فهـــــرست

كتاب أدب الدنيا والدين

لابي الحسن البصري

صحيفة

(تمت الفهرست)



أدب الدنيا والدين

تأليف

العالم العلامة الحبر الفهامة الامام الكبير المحقق الشهير أقضى القضاة
أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي
رحمه الله تعالى

(قررت نظارة المعارف العمومية لزوم طبع هذا الكتاب على نفقتها)
(واستعماله بالمدارس الاميرية)

(الطبعة الأولى)

بعد تصحيحه مع بعض اختصار بمعرفة اللجنة المشكلة من حضرتي عبد الله افندي الانصاري وعبد الجواد افندي عبد المتعال ثم تصديق فضيلتلو العلامة الشيخ حمزة فتح الله مفتش اللغة العربية بالمدارس

(بالمطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر المحمية)
سنة ١٣١٦ هجرية
١٨٩٨ م



(قال القاضى أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى رحمه الله تعالى)

الحمد لله ذى الطول والآلاء وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الرسل والانبياء وعلى آله وأصحابه الاتقياء (أما بعد) فان شرف المطلوب بشرف نتائجه وعظم خطره بكثرة منافعه وبحسب منافعه تجب العناية به وعلى قدر العناية به يكون اجتناء ثمرته وأعظم الامور خطرا وقدرا وأعمها نفعا ورفدا ما استقام به الدين والدنيا وانتظم به صلاح الآخرة والاولى لان باستقامة الدين تصح العبادة وبصلاح الدنيا تتم السعادة وقد توخيت بهذا الكتاب الاشارة الى آدابهما وتفصيل ما أجمل من أحوالهما على أعدل الامرين من ايجاز وبسط أجمع فيه بين تحقيق الفقهاء وترقيق الادباء فلا ينبو عن فهم ولا يدق فى وهم مستشهدا من كتاب الله جل اسمه بما يقتضيه ومن سنن رسول الله صلوات الله عليه بما يضاهيه ثم متبعا ذلك بامثال الحكماء وآداب البلغاء وأقوال الشعراء لان القلوب ترتاح الى الفنون المختلفة وتسأم من الفن الواحد وقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه ان القلوب تمل كما تمل الابدان فاهدوا اليها طرائف الحكمة فكان هذا الاسلوب يحب التنقل فى المطلوب من مكان الى مكان وكان المأمون رحمه الله تعالى يتنقل كثيرا فى داره من مكان الى مكان وينشد قول أبى العتاهية رحمه الله

لا يصلح النفس اذ كانت مدبرة * الا التنقل من حال الى حال

وجعلت ما تضمنه هذا الكتاب خمسة أبواب (الباب الاول) فى فضل العقل وذم الهوى (الباب الثانى) فى أدب العلم (الباب الثالث) فى أدب الدين (الباب الرابع) فى أدب الدنيا (الباب الخامس) فى أدب النفس وانما أستمد من الله تعالى حسن معونته وأستودعه حفظ موهبته بحوله ومشيئته وهو حسبى من معين وحفيظ

(باب فضل العقل وذم الهوى)

اعلم أن لكل فضيلة أسا ولكل أدب ينبوعا وأس الفضائل و ينبوع الاداب هو العقل الذى جعله الله تعالى للدين أصلا وللدنيا عمادا فاوجب التكليف بكماله وجعل الدنيا مدبرة باحكامه وألف به بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم وتباين أغراضهم ومقاصدهم وجعل ماتعبدهم به قسمين قسما وجب بالعقل فوكده الشرع وقسما جاز فى العقل فاوجبه الشرع فكان العقل لهما عمادا . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما اكتسب المرء مثل عقل يهدى صاحبه الى هدى ويردّه عن ردى . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل شئ عمل دعامة ودعامة عمل المرء عقله فبقدر عقله تكون عبادته لربه أما سمعتم قول الفجار لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصل الرجل عقله وحسبه دينه ومروءته خلقه . وقال الحسن البصرى رحمه الله ما استودع الله أحدا عقلا الا استنقذه به يوما ما . وقال بعض الحكماء العقل أفضل مرجو والجهل أنكى عدو . وقال بعض الادباء صديق كل امرئ عقله وعدوه جهله . وقال بعض البلغاء خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل . وقال بعض الشعراء وهو ابراهيم بن حسان

يزين الفتى فى الناس صحة عقله * وان كان محظورا عليه مكاسبه
يشين الفتى فى الناس قلة عقله * وان كرمت أعراقه ومناسبه
يعيش الفتى بالعقل فى الناس إنه * على العقل يجرى علمه وتجاربه
وأفضل قسم الله للمرء عقله * فليس من الاشياء شئ يقاربه
اذا أكمل الرحمن للمرء عقله * فقد كملت أخلاقه ومآربه

واعلم أن بالعقل تعرف حقائق الامور ويفصل بين الحسنات والسيئات وقد ينقسم قسمين غريزى ومكتسب

فالغريزى هو العقل الحقيقى وله حد يتعلق به التكليف لايجاوزه الى زيادة ولا يقصر عنه الى نقصان وبه يمتاز الانسان عن سائر الحيوان فاذا تم فى الانسان سمى عاقلا وخرج به الى حد الكمال كما قال صالح بن عبد القدوس

اذا تم عقل المرء تمت أموره * وتمت أمانيه وتم بناؤه

وروى الضحاك فى قوله تعالى لينذر من كان حيا أى من كان عاقلا واختلف الناس فيه وفى صفته على مذاهب شتى فقال قوم هو جوهر لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات

ومن قال بهذا القول اختلفوا فى محله فقالت طائفة منهم محله الدماغ لان الدماغ محل الحس وقالت طائفة أخرى منهم محله القلب لان القلب معدن الحياة ومادة الحواس وهذا القول فى العقل بانه جوهر لطيف فاسد من وجهين أحدهما أن الجواهر متماثلة فلا يصح أن يوجب بعضها مالا يوجب سائرها ولو أوجب سائرها مالا يوجبه بعضها لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله والثانى أن الجوهر يصح قيامه بذاته فلو كان العقل جوهرا لجاز أن يكون عقل بغير عاقل كما جاز أن يكون جسم بغير عقل فامتنع بهذين أن يكون العقل جوهرا . وقال آخرون العقل هو المدرك للاشياء على ماهى عليه من حقائق المعنى وهذا القول وان كان أقرب مما قبله فبعيد من الصواب من وجه واحد وهو أن الادراك من صفات الحى والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون متلذذا أو آلما أو مشتهيا . وقال آخرون من المتكلمين العقل هو جملة علوم ضرورية وهذا الحد غير محصور لما تضمنه من الاجمال ويتناوله من الاحتمال والحد ما هو بيان المحدود بما ينفى عنه الاجمال والاحتمال . وقال آخرون وهو القول الصحيح ان العقل هو العلم بالمدركات الضرورية وذلك نوعان أحدهما ماوقع عن درك الحواس والثانى ما كان مبتدأ فى النفوس فاما ما كان واقعا عن درك الحواس فمثل المرئيات المدركة بالنظر والاصوات المدركة بالسمع والطعوم المدركة بالذوق والروائح المدركة بالشم والاجسام المدركة باللمس فاذا كان الانسان ممن لو أدرك بحواسه هذه الاشياء لعلم ثبت له هذا النوع من العلم لان خروجه فى حال تغميض عينيه من أن يدرك بهما ويعلم لا يخرجه من أن يكون كامل العقل من حيث علم من حاله أنه لو أدرك لعلم وأما ما كان مبتدأ فى النفوس فكالعلم بان الشئ لا يخلو من وجود أو عدم وأن الموجود لا يخلو من حدوث أو قدم وأن من المحال اجتماع الضدين وأن الواحد أقل من الاثنين وهذا النوع من العلم لا يجوز أن ينتفى عن العاقل مع سلامة حاله وكمال عقله فاذا صار عالما بالمدركات الضرورية من هذين النوعين فهو كامل العقل وسمى بذلك تشبيها بعقل الناقة لان العقل يمنع الانسان من الاقدام على شهواته اذا قبحت كما يمنع العقال الناقة من الشرود اذا نفرت ولذلك قال عامر بن عبد القيس اذا عقلك عقلك عما لا ينبغى فانت عاقل وقد جاءت السنة بما يؤيد هذا القول فى العقل وهو ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال العقل نور فى القلب يفرق به بين الحق والباطل وكل من نفى أن يكون العقل جوهرا أثبت محله فى القلب لان القلب محل العلوم كلها . قال الله تعالى أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها فدلت هذه الآية على أمرين أحدهما أن العقل علم والثانى أن محله القلب . وفى قوله تعالى يعقلون بها تأويلان [illegible]

وأما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزى وهو نهاية المعرفة وصحة السياسة واصابة الفكرة وليس لهذا حد لانه ينمو ان استعمل وينقص ان أهمل ونماؤه يكون باحد وجهين اما بكثرة الاستعمال اذا لم يعارضه مانع من هوى ولا صاده من شهوة كالذى يحصل لذوى الاسنان من الحنكة وصحة الروية بكثرة التجارب وممارسة الامور ولذلك حمدت العرب آراء الشيوخ حتى قال بعضهم المشايخ أشجار الوقار ومنابع الاخبار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم ان رأوك فى قبيح صدوك وان أبصروك على جميل أمدوك وقيل عليكم بآراء الشيوخ فانهم ان فقدوا ذكاء الطبع فقد مرت على عيونهم وجوه العبر وتصدت لاسماعهم آثار الغير . وقيل فى منثور الحكم من طال عمره نقصت قوة بدنه وزادت قوة عقله وقيل فيه لا تدع الايام جاهلا الا أدبته . وقال بعض الحكماء كفى بالتجارب تأديبا وبتقلب الايام عظة . وقال بعض البلغاء التجربة مرآة العقل والغرة ثمرة الجهل . وقال بعض الادباء كفى مخبرا عما بقى ما مضى وكفى عبرا لاولى الالباب ما جربوا . وقال بعض الشعراء

ألم تر أن العقل زين لاهله * وان تمام العقل طول التجارب

وقال آخر

اذا طال عمر المرء فى غير آفة * أفادت له الايام فى كرها عقلا

وأما الوجه الثانى فقد يكون بفرط الذكاء وحسن الفطنة وذلك بجودة الحدس فى زمان غير مهمل للحدس فاذا امتزج بالعقل الغريزى صارت نتيجتهما نمو العقل المكتسب كالذى يكون فى الاحداث من وفور العقل وجودة الرأى حتى قال هرم بن قطبة حين تنافر اليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة عليكم بالحديث السن الحديد الذهن ولعل هرما أراد أن يدفعهما عن نفسه فاعتذر بما قال لكن لم ينكرا قوله اذ عانا للحق فصار الى أبى جهل لحداثة سنه وحدة ذهنه فابى أن يحكم بينهما فرجعا الى هرم فحكم بينهما وفيه قال لبيد

ياهرم ابن الاكرمين منصبا * انك قد أوتيت حكما معجبا

وقد قالت العرب عليكم بمشاورة الشباب فانهم ينتجون رأيا لم ينله طول القدم ولا استولت عليه رطوبة الهرم . وقد قال الشاعر

رأيت العقل لم يكن انتهابا * ولم يقسم على عدد السنينا

ولو أن السنين تقاسمته * حوى الآباء أنصبة البنينا

وحكى الاصمعى رحمه الله قال قلت لغلام حدث من أولاد العرب كان يحادثنى فأمتعنى بفصاحة وملاحة أيسرك أن يكون لك مائة ألف درهم وأنت أحمق قال لا والله قال فقلت ولم

قال أخاف أن يجنى على حمق جنايه تذهب بمالى ويبقى على حمق فانظر الى هذا الصبى كيف استخرج بفرط ذكائه واستنبط بجودة قريحته ما لعله يدق على من هو أكبر منه سنا وأكثر تجربة . وأحسن من هذا الذكاء والفطنة ماحكى ابن قتيبة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير فهربوا منه الا عبد الله فقال له عمر رضى الله عنه مالك لم لا تهرب مع أصحابك فقال يا أمير المؤمنين لم أكن على ريبة فأخافك ولم يكن الطريق ضيقا فاوسع لك فانظر ما تضمنه هذا الجواب من الفطنة وقوة المنة وحسن البديهة كيف نفى عنه اللوم وأثبت له الحجة فليس للذكاء غاية ولا لجودة القريحة نهاية . وحكى أن سليمان بن عبد الملك أمر الفرزدق بضرب أعناق أسارى من الروم فاستعفاه الفرزدق فلم يفعل وأعطاه سيفا لا يقطع شيأ فقال الفرزدق بل أضربهم بسيف أبى رغوان مجاشع يعنى سيف نفسه فقام فضرب به عنق رومى منهم فنبا السيف عنه فضحك سليمان ومن حوله فقال الفرزدق

أيعجب الناس ان أضحكت سيدهم * خليفة الله يستسقى به المطـــــر
لم ينب سيفى من رعب ولا دهش * عن الاســـير ولكن أخر القــدر
ولن يقــــدم نفسا قبل ميتتها * جمع اليدين ولا الصمصامة الذكر

ثم غمد سيفه وهو يقول

ما ان يعاب سيد اذا صبا * ولا يعاب صارم اذا نبا * ولا يعاب شاعر اذا كبا

ثم جلس وهو يقول كأنى بابن المراغة قد هجانى فقال

بسيف أبى رغوان ســيف مجاشع * ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ثم قام فانصرف وحضر جرير وخبر بالخبر ولم ينشد له الشعر فانشأ يقول

بسيف أبى رغوان ســيف مجاشع * ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ثم قال يا أمير المؤمنين كأنى بابن القين وقد أجابنى فقال

ولا نقتل الاسرى ولكن نفكهم * اذا أثقــل الاعنــاق حمل المغـارم

فاستحسن سليمان حدس الفرزدق على جرير ثم أخبر الفرزدق بشعر جرير ولم يخبر بحدسه فقال الفرزدق

كذاك سيوف الهند تنبو ظباتها * وتقطع أحيـانا مناط التمـائم
ولن نقتل الاسرى ولكن نفكهم * اذا أثقل الاعناق حمل المغـارم
وهــل ضربة الرومى جاعــلة لكم * أبا عن كليب أو أخا مثــل دارم

فشاع حديث الفرزدق بهذا حتى حكى أن المهدى أتى باسرى من الروم فامر بقتلهم وكان عنده شبيب بن شيبة فقال له اضرب عنق هذا العلج فقال يا أمير المؤمنين قد علمت ما ابتلى به الفرزدق فعير به قوم الى اليوم فقال انما أردت تشريفك وقد أعفيتك وكان أبو الهول الشاعر حاضرا فقال

جزعت من الرومى وهو مقيد * فكيف ولو لاقيته وهو مطلق
دعاك أمير المؤمنين لقتله * فكاد شبيب عند ذلك يفرق
فنح شبيبا عن قراع كتيبة * وأدن شبيبا من كلام يلفق

وليس العجب من كلام الفرزدق ان صح من جودة القريحتين ولكن من اتفاق الخاطرين ولمثل ذلك قالت الحكماء آية العقل سرعة الفهم وغايته اصابة الوهم وليس لمن منح جودة القريحة وسرعة الخاطر عجز عن جواب وان أعضل كما قيل لعلى رضى الله عنه كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم فقال كما يرزقهم على كثرة عددهم . وقيل لعبد الله بن عباس أين تذهب الارواح اذا فارقت الاجساد فقال أين تذهب نار المصابيح عند فناء الادهان وهذان الجوابان جوابا اسكات تضمنا دليلى اذعان وحجتى قهر . ومن غير هذا الفن وان كان مسكتا ما حكى عن ابليس لعنه الله أنه حين ظهر لعيسى بن مريم عليه السلام قال ألست تقول انه لن يصيبك الا ما كتبه الله عليك قال نعم قال فارم نفسك من ذروة هذا الجبل فانه ان يقدر لك السلامة تسلم . فقال له يا ملعون ان لله أن يختبر عباده وليس للعبد أن يختبر ربه ومثل هذا الجواب لا يستغرب من أنبياء الله تعالى الذين أمدهم بوحيه وأيدهم بنصره وانما يستغرب ممن يلجأ الى خاطره ويعول على بديهته . وروى قثم بن العباس رضى الله عنهما قال قيل لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه كم بين السماء والارض قال دعوة مستجابة قيل فكم بين المشرق والمغرب قال مسيرة يوم للشمس فكان هذا السؤال من سائله اما اختبارا واما استبصارا فصدر عنه من الجواب ما أسكت . فاما اذا اجتمع هذان الوجهان فى العقل المكتسب وهو ما ينميه فرط الذكاء بجودة الحدس وصحة القريحة بحسن البديهة مع ما ينميه الاستعمال بطول التجارب ومرور الزمان بكثرة الاختبار فهو العقل الكامل على الاطلاق فى الرجل الفاضل الاستحقاق روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال أثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير فقال كيف عقله قالوا يا رسول الله ان من عبادته ان من خلقه ان من فضله ان من أدبه فقال كيف عقله قالوا يا رسول الله نثنى عليه بالعبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الاحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر

وانما يقرب الناس من ربهم بالزلف على قدر عقولهم . واختلف الناس فى العقل المكتسب اذا تناهى و زاد هل يكون فضيلة أم لا فقال قوم لا يكون فضيلة لان الفضائل هيآت متوسطة بين فضيلتين ناقصتين كما أن الخير متوسط بين رذيلتين فما جاوز التوسط خرج عن حد الفضيلة وقد قالت الحكماء للاسكندر أيها الملك عليك بالاعتدال فى كل الامور فان الزيادة عيب والنقصان عجز هذا مع ما وردت به السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال خير الامور أوساطها . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه خير الامور النمط الاوسط اليه يرجع العالى وبه يلحق التالى . وقال الشاعر

لا تذهبن فى الامور فرطا * لا تسألن ان سألت شططا * وكن من الناس جميعا وسطا

قالوا لان زيادة العقل تفضى بصاحبها الى الدهاء والمكر وذلك مذموم وصاحبه ملوم وقد أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبا موسى الاشعرى أن يعزل زيادا عن ولايته فقال زياد يا أمير المؤمنين أعن موجدة أو خيانة فقال لا عن واحدة منهما ولكن خفت أن أحمل على الناس فضل عقلك ولاجل هذا المحكى عن عمر ما قيل قديما افراط العقل مضر بالجسد . وقال بعض الحكماء كفاك من عقلك ما دلك على سبيل رشدك . وقال بعض البلغاء قليل يكفى خير من كثير يطغى . وقال آخرون وهو أصح القولين زيادة العقل فضيلة لان المكتسب غير محدود وانما تكون زيادة الفضائل المحدودة نقصا مذموما لان ما جاوز الحد لا يسمى فضيلة كالشجاع اذا زاد على حد الشجاعة نسب الى التهور والسخى اذا زاد على حد السخاء نسب الى التبذير وليس كذلك حال العقل المكتسب لان الزيادة فيه زيادة علم بالامور وحسن اصابة بالظنون ومعرفة ما لم يكن الى ما يكون وذلك فضيلة لا نقص . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أفضل الناس أعقل الناس . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال العقل حيث كان ألوف مألوف . وقد قيل فى تأويل قوله تعالى قل كل يعمل على شاكلته أى بحسب عقله . وقال القاسم بن محمد كانت العرب تقول من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه فى أغلب خصال الخير عليه . وقيل فى منثور الحكم كل شئ اذا كثر رخص الا العقل فانه اذا كثر غلا . وقال بعض البلغاء ان العاقل من عقله فى ارشاد ومن رأيه فى امداد فقوله سديد وفعله حميد والجاهل من جهله فى اغواء ومن هواه فى اغراء فقوله سقيم وفعله ذميم وأنشدنى ابن لنكك لابيه

من لم يكن أكثره عقله * أهلكه أكثر ما فيه

فاما الدهاء والمكر فهو مذموم لان صاحبه صرف فضل عقله الى الشر ولو صرفه الى الخير لكان محمودا . وقد ذكر المغيرة بن شعبة عمر بن الخطاب فقال كان والله أفضل من أن يَخْدع وأعقل من أن يُخْدع وقال عمر لست بالخب ولا يخدعني الخب . واختلف الناس فيمن صرف فضل عقله الى الشر كزياد وأشباهه من الدهاة هل يسمى الداهية منهم عاقلا أم لا فقال بعضهم أسميه عاقلا لوجود العقل فيه وقال آخرون لا أسميه عاقلا حتى يكون خيرا دينا لان الخير والدين من موجبات العقل فاما الشرير فلا أسميه عاقلا وانما أسميه صاحب روية وفكر وقد قيل العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه حتى قال أصحاب الشافعي رضي الله عنه فيمن أوصى بثلث ماله لاعقل الناس انه يكون مصروفا في الزهاد لانهم انقادوا للعقل ولم يغتروا بالامل . وروى لقمان بن أبي عامر عن أبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا عويمر ازدد عقلا تزدد من ربك قربا قلت بابي أنت وأمي ومن لي بالعقل قال اجتنب محارم الله وأدّ فرائض الله تكن عاقلا ثم تنفل بصالحات الاعمال تزدد في الدنيا عقلا وتزدد من ربك قربا وبه عزا . وأنشدني بعض أهل الادب هذه الابيات وذكر أنها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه

ان المكارم أخلاق مطهرة * فالعقل أولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها * والجود خامسها والعرف ساديها
والبر سابعها والصبر ثامنها * والشكر تاسعها واللين عاشيها
والنفس تعلم أني لا أصدقها * ولست أرشد الا حين أعصيها
والعين تعلم من عيني محدثها * من كان من حزبها أو من أعاديها
عيناك قد دلتا عينيّ منك على * أشياء لولاهما ما كنت تبديها

واعلم أن العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزي لانه نتيجة منه وقد ينفك العقل الغريزي عن العقل المكتسب فيكون صاحبه مسلوب الفضائل موفور الرذائل كالأنوك الذي لا تجد له فضيلة والاحمق الذي قلما يخلو من رذيلة . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الاحمق كالفخار لا يرقع ولا يشعب . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الاحمق أبغض خلق الله اليه اذ حرمه أعز الاشياء عليه . وقال بعض الحكماء الحاجة الى العقل أقبح من الحاجة الى المال . وقال بعض البلغاء دولة الجاهل عبرة العاقل . وقال أنوشروان لبزرجمهر أي الاشياء خير للمرء قال عقل يعيش به قال فان لم يكن قال فاخوان يسترون عيبه قال فان لم يكن قال فمال يتحبب به الى الناس قال فان لم يكن قال فعيّ صامت قال فان لم يكن قال فموت جارف . وقال سابور بن أزدشير العقل نوعان أحدهما مطبوع والآخر مسموع

ولا يصلح واحد منهما الا بصاحبه فأخذ ذلك بعض الشعراء فقال

رأيت العقل نوعين * فمسموع ومطبوع
ولا ينفع مسموع * اذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس * وضوء العين ممنوع

وقد وصف بعض الادباء العاقل بما فيه من الفضائل والاحمق بما فيه من الرذائل فقال العاقل اذا والى بذل فى المودة نصره واذا عادى رفع عن الظلم قدره فيسعد مواليه بعقله ويعتصم معاديه بعدله ان أحسن الى أحد ترك المطالبة بالشكر وان أساء اليه مسىء سبب له أسباب العذر أو منحه الصفح والعفو والاحمق ضال مضل ان أونس تكبر وان أوحش تكدر وان استنطق تخلف وان ترك تكلف مجالسته مهنه ومعاتبته محنه ومحاورته تغر وموالاته تضر ومقاربته عمى ومقارنته شقا . وكانت ملوك الفرس اذا غضبت على عاقل حبسته مع جاهل والاحمق يسىء الى غيره ويظن أنه قد أحسن اليه فيطالبه بالشكر ويحسن اليه فيظن أنه قد أساء اليه فيطالبه بالوتر فساوى الاحمق لا تنقضى وعيوبه لا تتناهى ولا يقف النظر منها الى غاية الا لوحت ماوراءها بما هو أدنى منها وأردى وأمر وأدهى فما أكثر العبر لمن نظر وأنفعها لمن اعتبر . وقال الاحنف بن قيس من كل شىء يحفظ الاحمق الا من نفسه وقال بعض البلغاء ان الدنيا ربما أقبلت على الجاهل بالاتفاق وأدبرت عن العاقل بالاستحقاق فان أتتك منها سهمة مع جهل أو فاتتك منها بغية مع عقل فلا يحملنك ذلك على الرغبة فى الجهل والزهد فى العقل فدولة الجاهل من الممكنات ودولة العاقل من الواجبات وليس من أمكنه شىء من ذاته كمن استوجبه بآلته وأدواته وبعد فدولة الجاهل كالغريب الذى يحن الى النقله ودولة العاقل كالنسيب الذى يحن الى الوصله فلا يفرح المرء بحالة جليلة نالها بغير عقل أو منزلة رفيعة حلها بغير فضل فان الجهل يزله منها ويزيله عنها ويحطه الى رتبته ويرده الى قيمته بعد أن تظهر عيوبه وتكثر ذنوبه ويصير مادحه هاجيا ووليه معاديا . واعلم أنه بحسب ما ينتشر من فضائل العاقل كذلك يظهر من رذائل الجاهل حتى يصير مثلا فى الغابرين وحديثا فى الآخرين مع هتكه فى عصره وقبح ذكره فى دهره كالذى رواه عطاء عن جابر قال كان فى بنى اسرائيل رجل له حمار فقال يارب لو كان لك حمار لعلفته مع حمارى فهم به نبى من بنى اسرائيل فاوحى الله اليه انما أثيب كل انسان على قدر عقله واستعمل معاوية رجلا من كلب فذكر المجوس يوما عنده فقال لعن الله المجوس ينكحون أمهاتهم والله لو أعطيت عشرة آلاف درهم ما نكحت أمى فبلغ ذلك معاوية فقال قبحه الله أترونه لو زادوه فعل وعزله

وولى الربيع العامرى وكان من النوكى سائر اليمامة فأقاد كلبا بكلب فقال فيه الشاعر

شهدت بأن الله حق لقاؤه * وأن الربيع العامرى رقيع
أقاد لنا كلبا بكلب ولم يدع * دماء كلاب المسلمين تضيع

وليس لعار الجهل غاية ولا لمضار الحمق نهاية قال الشاعر

لكل داء دواء يستطب به * الا الحماقة أعيت من يداويها

﴿فصل﴾ وأما الهوى فهو عن الخير صاد وللعقل مضاد لانه ينتج من الاخلاق قبائحها ويظهر من الافعال فضائحها ويجعل ستر المروءة مهتوكا ومدخل الشر مسلوكا . قال عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما الهوى إله يعبد من دون الله ثم تلا أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وقال عكرمة فى قوله تعالى ولكنكم فتنتم أنفسكم يعنى بالشهوات وتربصتم يعنى بالتوبة وارتبتم يعنى فى أمر الله وغرتكم الامانى يعنى بالتسويف حتى جاء أمر الله يعنى الموت وغركم بالله الغرور يعنى الشيطان . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال طاعة الشهوة داء وعصيانها دواء . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فانها طلاعة تنزع الى شر غاية ان هذا الحق ثقيل مرى وان الباطل خفيف وبى وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة أورثت حزنا طويلا . وقال على ابن أبى طالب رضى الله عنه أخاف عليكم اثنين اتباع الهوى وطول الامل فان اتباع الهوى يصد عن الحق وطول الامل ينسى الآخرة . وقال الشعبى انما سمى الهوى هوى لانه يهوى بصاحبه . وقال اعرابى الهوى هوان ولكن غلط باسمه فأخذه الشاعر وقال

ان الهوان هو الهوى قلب اسمه * فاذا هويت فقد لقيت هوانا

وقيل فى منثور الحكم من أطاع هواه أعطى عدوه مناه . وقال بعض الحكماء العقل صديق مقطوع والهوى عدو متبوع . وقال بعض البلغاء أفضل الناس من عصى هواه وأفضل منه من رفض دنياه . وقال هشام بن عبد الملك بن مروان

اذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى * الى كل ما فيه عليك مقال

قال ابن المعتز رحمه الله لم يقل هشام بن عبد الملك سوى هذا البيت . وقال الشاعر

اذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى * فقد ثكلته عند ذاك ثواكله
وقد أشمت الاعداء جهلا بنفسه * وقد وجدت فيه مقالا عواذله
وما يردع النفس اللجوج عن الهوى * من الناس الا حازم الرأى كامله

ولما كان الهوى غالبا والى سبيل المهالك موردا جعل العقل عليه رقيبا مجاهدا يلاحظ عثرة غفلته ويدفع بادرة سطوته ويدفع خداع حيلته لان سلطان الهوى قوى ومدخل مكره خفى ومن هذين الوجهين يؤتى العاقل حتى تنفذ أحكام الهوى عليه أعنى بأحد الوجهين قوة سلطانه وبالآخر خفاء مكره فاما الوجه الاول فهو أن يقوى سلطان الهوى بكثرة دواعيه حتى تستولى عليه مغالبة الهوى والشهوات فيكل العقل عن دفعها ويضعف عن منعها مع وضوح قبحها فى العقل المقهور بها وهذا يكون فى الاحداث أكثر وعلى الشباب أغلب لقوة شهواتهم وكثرة دواعى الهوى المتسلط عليهم وأنهم ربما جعلوا الشباب عذرا لهم كما قال محمد بن بشير

كل يرى أن الشباب له * فى كل مبلغ لذة عذر

ولذلك قال بعض الحكماء الهوى ملك غشوم ومتسلط ظلوم . وقال بعض الادباء الهوى عسوف والعدل مألوف . وقال بعض الشعراء

ياعاقلا أردى الهوى عقله * مالك قد سدت عليك الامور

أتجعل العقل أسير الهوى * وانما العقل عليه أمير

وحسم ذلك أن يستعين العقل بالنفس النفور فيشعرها ما فى عواقب الهوى من شدة الضرر وقبح الاثر وكثرة الاجرام وتراكم الآثام . فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات . أخبر أن الطريق الى الجنة باحتمال المكاره والطريق الى النار باتباع الشهوات . قال على بن أبي طالب رضى الله عنه اياكم وتحكيم الشهوات على أنفسكم فان عاجلها ذميم وآجلها وخيم فان لم ترها تنقاد بالتحذير والارهاب فسوفها بالتأميل والارغاب فان الرغبة والرهبة اذا اجتمعتا على النفس ذلت لهما وانقادت . وقد قال ابن السماك كن لهواك مسوفا ولعقلك مسعفا وانظر ما تسوء عاقبته فوطن نفسك على مجانبته فان ترك النفس وما تهوى داؤها وترك ما تهوى دواؤها فاصبر على الدواء كما تخاف من الداء . وقال الشاعر

صبرت على الايام حتى تولت * وألزمت نفسى صبرها فاستمرت

وما النفس الاحيث يجعلها الفتى * فان أطمعت تاقت والا تسلت

فاذا انقادت النفس للعقل بما قد أشعرت من عواقب الهوى لم يلبث الهوى أن يصير بالعقل مدحورا وبالنفس مقهورا ثم له الحظ الاوفى فى ثواب الخالق وثناء المخلوقين . قال الله تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى .

وقال الحسن البصري أفضل الجهاد جهاد الهوى . وقال بعض الحكماء أعز العز الامتناع من تملك الهوى . وقال بعض البلغاء خير الناس من أخرج الشهوة من قلبه وعصى هواه في طاعة ربه . وقال بعض الادباء من أمات شهوته فقد أحيا مروءته . وقال بعض العلماء ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة وركب البهائم من شهوة بلا عقل وركب ابن آدم من كليهما فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم . وقيل لبعض الحكماء من أشجع الناس وأحراهم بالظفر في مجاهدته قال من جاهد الهوى طاعة لربه واحترس في مجاهدته من ورود خواطر الهوى على قلبه . وقال بعض الشعراء

قد يدرك الحازم ذو الرأى المنى * بطاعة الحزم وعصيان الهوى

وأما الوجه الثاني فهو أن يخفي الهوى مكره حتى تتموه أفعاله على العقل فيتصور القبيح حسنا والضرر نفعا وهذا يدعو اليه أحد شيئين اما أن يكون للنفس ميل الى ذلك الشيء فيخفى عنها القبيح لحسن ظنها وتتصوره حسنا لشدة ميلها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم حبك الشيء يعمي ويصم أي يعمي عن الرشد ويصم عن الموعظة . وقال علي رضي الله عنه الهوى عمى . قال الشاعر * حسن في كل عين من تود * وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه

ولست براء عيب ذي الود كله * ولا بعض ما فيه اذا كنت راضيا
فعين الرضا عن كل عيب كليلة * ولكن عين السخط تبدي المساويا

وأما السبب الثاني فهو استثقال الفكر في تمييز ما اشتبه وطلب الراحة في اتباع ما يسهل حتى يظن أن ذلك أوفق أمريه وأحمد حاليه اغترارا بان الاسهل محمود والاعسر مذموم فلن يعدم أن يتورط بخدع الهوى وزينة المكر في كل مخوف حذر ومكروه عسر ولذلك قال عامر ابن الظرب الهوى يقظان والعقل راقد فمن ثم غلب . وقال سليمان بن وهب الهوى أمتع والرأي أنفع وقيل في المثل العقل وزير ناصح والهوى وكيل فاضح . وقال الشاعر

اذا المرء أعطى نفسه كلما اشتهت * ولم ينهها تاقت الى كل باطل
وساقت اليه الاثم والعار بالذي * دعته اليه من حلاوة عاجل

وحسم السبب الاول أن يجعل فكر قلبه حكما على نظر عينه فان العين رائد الشهوة والشهوة من دواعي الهوى والقلب رائد الحق والحق من دواعي العقل . وقال بعض الحكماء نظر الجاهل بعينه وناظره ونظر العاقل بقلبه وخاطره ثم يتهم نفسه في صواب ما أحبت

وتحسين ما اشتهت ليصح له الصواب ويتبين له الحق فان الحق أثقل محملا وأصعب مركبا فان أشكل عليه أمران اجتنب أحبهما اليه وترك أسهلهما عليه فان النفس عن الحق أنفر وللهوى آثر . وقد قال العباس بن عبد المطلب اذا اشتبه عليك أمران فدع أحبهما اليك وخذ أثقلهما عليك وعلة هذا القول هو أن الثقيل يبطئ النفس عن التسرع اليه فيصح مع الابطاء وتطاول الزمان صواب ما استعجم وظهور ما استبهم . وقد قال على بن أبي طالب كرم الله وجهه من تفكر أبصر والمحبوب السهل تسرع النفس اليه وتعجل بالاقدام عليه فيقصر الزمان عن تصفحه ويفوت استدراكه لتقضي فعله فلا ينفع التصفح بعد العمل والاستدراك بعد الفوت . وقال بعض الحكماء ما كان عنك معرضا فلا تكن له متعرضا . وقال الشاعر

أليس طلاب ما قد فات جهلا * وذكر المرء ما لا يستطيع

ولقد وصف بعض البلغاء حال الهوى وما يقارنه من محن الدنيا فقال الهوى مطية الفتنة والدنيا دار المحنه فاترك الهوى تسلم وأعرض عن الدنيا تغنم ولا يغرنك هواك بطيب الملاهي ولا تفتننك دنياك بحسن العوارى فدة اللهو تنقطع وعارية الدهر ترتجع ويبقى عليك ما ترتكبه من المحارم وتكتسبه من المآثم . وقال على بن عبد الله الجعفرى سمعتنى امرأة في الطواف وأنا أنشد

أهوى هوى الدين واللذات تعجبنى * فكيف لى بهوى اللذات والدين

فقالت هما ضرتان فذر أيهما شئت وخذ الاخرى فاما فرق ما بين الهوى والشهوة مع اجتماعهما في العلة والمعلول واتفاقهما في الدلالة والمدلول فهو ان الهوى مختص بالآراء والاعتقادات والشهوة مختصة بنيل المستلذات فصارت الشهوة من نتائج الهوى وهى أخص والهوى أصل هو أعم . ونحن نسأل الله تعالى أن يكفينا دواعى الهوى ويصرف عنا سبل الردى ويجعل التوفيق لنا قائدا والعقل لنا مرشدا . فقد روى أن الله تعالى أوحى الى عيسى عليه السلام عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحى منى . وقال محمد بن كناسة

مامن روى أدبا ولم يعمل به * ويكف عن زيغ الهوى باديب
حتى يكون بما تعلم عاملا * من صالح فيكون غير معيب
ولقلما تغنى اصابة قائل * أفعاله أفعال غير مصيب

وقال آخر

يا أيها الرجل المعلم غيره * هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى * كيما يصح به وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك تعذر ان وعظت ويقتدى * بالقول منك ويقبل التعليم
لاتنه عن خلق وتأتى مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم

حكى أبوفروة أن طارقا صاحب شرطة خالد بن عبد الله القسرى مرّ بابن شبرمة وطارق فى موكبه فقال ابن شبرمة

أراها وإن كانت تحب كأنها * سحابة صيف عن قريب تقشع

اللهم لى دينى ولهم دنياهم فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء فقال له ابنه أبو بكر أتذكر قولك يوم كذا ان مر بك طارق فى موكبه فقال يا بنى انهم يجدون مثل أبيك ولا يجد أبوك مثلهم ان أباك أكل من حلوائهم فحبط فى أهوائهم أماترى هذا الدين الفاضل كيف عوجل بالتقريع وقوبل بالتوبيخ من أخص ذويه ولعله من أبر بنيه فكيف بنا ونحن أطلق منه عنانا وأقلق جنانا اذا رمقتنا أعين المتتبعين وتناولتنا ألسن المتعنتين هل نجد غير توفيق الله تعالى ملاذا وسوى عصمته معاذا

(باب أدب العلم)

اعلم أن العلم أشرف مارغب فيه الراغب وأفضل ماطلب وجدّ فيه الطالب وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب لان شرفه ينمّ على صاحبه وفضله ينمى عند طالبه . قال الله تعالى قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون فنع سبحانه المساواة بين العالم والجاهل لما قد خص به العالم من فضيلة العلم . وقال تعالى ومايعقلها الا العالمون فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمرا أو يفهم منه زجرا . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أوحى الله الى ابراهيم عليه السلام انى عليم أحب كل عليم . وروى أبو أمامة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين أحدهما عالم والآخر عابد فقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم رجلا . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه الناس أبناء مايحسنون . وقال مصعب بن الزبير لابنه تعلم العلم فان يكن لك مال كان لك جمالا وان لم يكن لك مال كان لك مالا . وقال عبد الملك بن مروان لبنيه يابنى تعلموا العلم فان كنتم سادة فقتم وان كنتم وسطا سدتم وان كنتم سوقة عشتم وقال بعض الحكماء العلم شرف لاقديم له والادب مال لاخوف عليه .

وقال بعض الادباء العلم أفضل خلف والعمل به أكمل شرف . وقال بعض البلغاء تعلم العلم فانه يقومك ويسددك صغيرا ويقدمك ويسودك كبيرا ويصلح زيغك وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك ويقوم عوجك وميلك ويصحح همتك وأملك . وقال على رضى الله تعالى عنه قيمة كل امرئ ما يحسن فاخذه الخليل فنظمه شعرا فقال

لا يكون العلى مثل الدنى * لا ولا ذو الذكاء مثل الغبى
قيمة المرء قدر ما يحسن المر * ء قضاء من الامام على

وليس يجهل فضل العلم الا أهل الجهل لان فضل العلم انما يعرف بالعلم وهذا أبلغ فى فضله لان فضله لا يعلم الا به فلما عدم الجهال العلم الذى به يتوصلون الى فضل العلم جهلوا فضله واسترذلوا أهله وتوهموا أن ما تميل اليه نفوسهم من الاموال المقتناه والطرف المشتهاه أولى أن يكون اقبالهم عليها وأحرى أن يكون اشتغالهم بها . وقد قال ابن المعتز فى منثور الحكم العالم يعرف الجاهل لانه كان جاهلا والجاهل لا يعرف العالم لانه لم يكن عالما وهذا صحيح ولاجله انصرفوا عن العلم وأهله انصراف الزاهدين وانحرفوا عنه وعنهم انحراف المعاندين لان من جهل شيأ عاداه . وأنشدنى ابن لنكك لابى بكر بن دريد

جهلت فعاديت العلوم وأهلها * كذاك يعادى العلم من هو جاهله
ومن كان يهوى أن يرى متصدرا * ويكره لا أدرى أصيبت مقاتله

وقيل لبزرجمهر العلم أفضل أم المال فقال بل العلم قيل فما بالنا نرى العلماء على أبواب الاغنياء ولا نكاد نرى الاغنياء على أبواب العلماء فقال ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال وجهل الاغنياء بفضل العلم . وقيل لبعض الحكماء لم لا يجتمع العلم والمال فقال لعز الكمال . وأنشدت لبعض أهل هذا العصر

وفى الجهل قبل الموت موت لاهله * فاجسامهم قبل القبور قبور
وان امرأ لم يحى بالعلم ميت * فليس له حتى النشور نشور

ووقف بعض المتعلمين بباب عالم ثم نادى تصدقوا علينا بما لا يتعب ضرسا ولا يسقم نفسا فأخرج له طعام ونفقة فقال فاقتى الى كلامكم أشد من حاجتى الى طعامكم انى طالب هدى لا سائل ندى فاذن له العالم وأفاده عن كل ما سأل عنه فخرج جذلا فرحا وهو يقول علم أوضح لبسا خير من مال أغنى نفسا . واعلم ان كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة والاحاطة بجميعها محال . قيل لبعض الحكماء من يعرف كل العلوم فقال كل الناس . وروى عن النبى صلى الله عليه

أنه قال من ظن أن العلم غاية فقد بخسه حقه ووضعه فى غير منزلته التى وصفه الله بها حيث يقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا . وقال بعض العلماء لو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته لكنا قد بدأنا العلم بالنقيصة ولكنا نطلبه لننقص فى كل يوم من الجهل ونزداد فى كل يوم من العلم . وقال بعض العلماء المتعمق فى العلم كالسابح فى البحر ليس يرى أرضا ولا يعرف طولا ولا عرضا . وقيل لحماد الراوية أما تشبع من هذه العلوم فقال استفرغنا فيها المجهود فلم نبلغ منها المحدود فنحن كما قال الشاعر * اذا قطعنا علما بدا علم * وأنشد الرشيد عن المهدى بيتين وقال أظنهما له

يا نفس خوضى بحار العلم أو غوصى * فالناس ما بين معموم ومخصوص
لا شئ فى هذه الدنيا نحيط به * الا احاطة منقوص بمنقوص

واذا لم يكن الى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام الى معرفة أهمها والعناية بأولاها وأفضلها وأولى العلوم وأفضلها علم الدين لان الناس بمعرفته يرشدون وبجهله يضلون اذ لا يصح أداء عبادة جهل فاعلها صفات أدائها ولم يعلم شروط أجزائها . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العلم خير من فضل العبادة وانما كان كذلك لان العلم يبعث على فعل العبادة والعبادة مع خلو فاعلها من العلم بها قد لا تكون عبادة فلزم علم الدين كل مكلف . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم وفيه تأويلان أحدهما علم ما لا يسع جهله من العبادات والثانى جملة العلم اذا لم يقم بطلبه من فيه كفاية واذا كان علم الدين قد أوجب الله تعالى فرض بعضه على الاعيان وفرض جميعه على الكفاية كان أولى مما لم يجب فرضه على الاعيان ولا على الكفاية . قال الله تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون . وروى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فاذا هو بمجلسين أحدهما يذكرون الله تعالى والآخر يتفقهون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا المجلسين على خير وأحدهما أحب الىّ من صاحبه أما هؤلاء فيذكرون الله تعالى ويسألونه فان شاء أعطاهم وان شاء منعهم وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل وانما بعثت معلما وجلس الى أهل الفقه . وروى مروان بن جناح عن يونس بن ميسرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال الخير عادة والشر لجاجة ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال خيار أمتى علماؤها وخيار علمائها فقهاؤها وروى معاذ بن رفاعة عن ابراهيم بن عبد الرحمن العدوى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال على بخلفائي قالوا ومن خلفاؤك قال الذين يحيون سنتي يعلمونها عباد الله . وروى حميد عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الفقه في الدين فرض على كل مسلم ألا فتعلموا وعلموا وتفقهوا ولا تموتوا جهالا . وروى سليمان بن يسار عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شيء عماد وعماد الدين الفقه وربما مال بعض المتهاونين بالدين الى العلوم العقلية ورأى أنها أحق بالفضيلة وأولى بالتقدمة استثقالا لما تضمنه الدين من التكليف واسترذالا لما جاء به الشرع من التعبد والتوقيف والكلام مع مثل هذا في أصل لا يتسع له هذا الفصل ولن ترى ذلك فيمن سلمت فطنته وصحت رويته لان العقل يمنع من أن يكون الناس هملا أو سدى يعتمدون على آرائهم المختلفة وينقادون لاهوائهم المتشعبة لما تؤول اليه امورهم من الاختلاف والتنازع وتفضي اليه أحوالهم من التباين والتقاطع فلم يستغنوا عن دين يتألفون به ويتفقون عليه ثم العقل موجب له أو تابع له ولو تصور هذا المختل التصور أن الدين ضرورة في العقل وأن العقل للدين أصل لقصر عن التقصير وأذعن للحق ولكن أهمل نفسه فضل وأضل وقد يتعلق بالدين علوم قد بين الشافعي رحمه الله فضيلة كل واحد منها فقال من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نبل مقداره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن تعلم اللغة رق طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه ولعمري ان صيانة النفس أصل الفضائل لان من أهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه العلم من فضيلته وتوكلا على ما يلزم الناس من صيانته سلبوه فضيلة علمه ووسموه بقبيح تبذله فلم يف ما أعطاه العلم بما سلبه التبذل لان القبيح أنم من الجميل والرذيلة أشهر من الفضيلة اذ الناس لما في طبائعهم من البغضة والحسد ونزاع المنافسة تنصرف عيونهم عن المحاسن الى المساوى فلا ينصفون محسنا ولا يحابون مسيئا لاسيما من كان بالعلم موسوما واليه منسوبا فان زلته لا تقال وهفوته لا تعذر اما لقبح أثرها واغترار كثير من الناس بها وقد قيل في منثور الحكم زلة العالم كالسفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام من أشد الناس فتنة قال زلة العالم اذا زل هلك بزلته عالم كثير فهذا وجه واما لان الجهال بذمه أغرى وعلى تنقيصه أحرى ليسلبوه فضيلة التقدم ويمنعوه مباينة التخصيص عنادا لما جهلوه ومقتا لما باينوه لان الجاهل يرى العلم تكلفا ولوما كما أن العالم يرى الجهل تخلفا وذما وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه

ومنزلة السفيه من الفقيه * كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد فى قرب هذا * وهذا فيه أزهد منه فيه
اذا غلب الشقاء على سفيه * تنطع فى مخالفة الفقيه

وقال يحيى بن خالد لابنه عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فان المرء عدو ما جهل وأنا أكره أن تكون عدو شئ من العلم وأنشد

تفنن وخذ من كل علم فانما * يفوق امرؤ فى كل فن له علم
فانت عدو للذى أنت جاهل * به ولعلم أنت تتقنه سلم

واذا صان ذو العلم نفسه حق صيانتها ولازم فعل ما يلزمها أمن تعيير الموالى وتنقيص المعادى وجمع الى فضيلة العلم جميل الصيانة وعزة النزاهة فصار بالمنزلة التى يستحقها بفضائله وروى أبو الدرداء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال العلماء ورثة الانبياء لان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم . وروى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للانبياء على العلماء فضل درجتين وللعلماء على الشهداء فضل درجة . وقال بعض البلغاء ان من الشريعة أن تجل أهل الشريعة ومن الصنيعة أن ترب حسن الصنيعة فينبغى لمن استدل بفطنته على استحسان الفضائل واستقباح الرذائل أن ينفى عن نفسه رذائل الجهل بفضائل العلم وغفلة الاهمال باستيقاظ المعاناة ويرغب فى العلم رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه ولا يلهيه عن طلبه كثرة مال وجده ولا نفوذ أمر وعلو منزله فان من نفذ أمره فهو الى العلم أحوج ومن علت منزلته فهو بالعلم أحق . وروى أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك . وقد قال بعض الادباء كل عز لا يوطده علم مذله وكل علم لا يؤيده عقل مضله وقال بعض علماء السلف اذا أراد الله بالناس خيرا جعل العلم فى ملوكهم والملك فى علمائهم . وقال بعض البلغاء العلم عصمة الملوك لانه يمنعهم من الظلم ويردهم الى الحلم ويصدهم عن الاذيه ويعطفهم على الرعيه فمن حقهم أن يعرفوا حقه ويستبطنوا أهله فاما المال فظل زائل وعارية مسترجعة وليس فى كثرته فضيلة ولو كانت فيه فضيلة لخص الله به من اصطفاه لرسالته واجتباه لنبوته وقد كان أكثر أنبياء الله تعالى مع ما خصهم الله به من كرامته وفضلهم على سائر خلقه فقراء لا يجدون بلغة ولا يقدرون على شئ حتى صاروا فى الفقر مثلا قال البحترى

فقر كفقر الانبياء وغربة * وصبابة ليس البلاء بواحد

ولعدم الفضيلة فى المال منحه الله الكافر وحرمه المؤمن . قال الشاعر

كم كافر بالله أمواله * تزداد أضعافا على كفره

ومؤمن ليس له درهم * يزداد إيمانا على فقره

يا لائم الدهر وأفعاله * مشتغلا يزرى على دهره

الدهر مأمور له آمر * ينصرف الدهر على أمره

وقد بين على بن أبى طالب رضى الله عنه فضل ما بين العلم والمال فقال العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال العلم حاكم والمال محكوم عليه مات خزان الاموال وبقى خزان العلم أعيانهم مفقوده وأشخاصهم فى القلوب موجوده . وسئل بعض العلماء أيما أفضل المال أم العلم فقال الجواب عن هذا أيما أفضل المال أم العقل . وقال صالح ابن عبد القدوس

لا خير فيمن كان خير شانه * فى الناس قولهم غنى واجد

وربما امتنع الانسان من طلب العلم لكبر سنه واستحيائه من تقصيره فى صغره أن يتعلم فى كبره فرضى بالجهل أن يكون موسوما به وآثره على العلم أن يصير مبتدئا به وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل لان العلم اذا كان فضيلة فرغبة ذوى الاسنان فيه أولى والابتداء بالفضيلة فضيلة ولأن يكون شيخا متعلما أولى من أن يكون شيخا جاهلا . حكى أن بعض الحكماء رأى شيخا كبيرا يحب النظر فى العلم ويستحى فقال له ياهذا أتستحى أن تكون فى آخر عمرك أفضل مما كنت فى أوله . وذكر أن ابراهيم بن المهدى دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون فى الفقه فقال ياعم ما عندك مايقول هؤلاء فقال ياأمير المؤمنين شغلونا فى الصغر واشتغلنا فى الكبر فقال لم لا تتعلمه اليوم قال أو يحسن بمثلى طلب العلم قال نعم والله لان تموت طالبا للعلم خير من أن تعيش قانعا بالجهل قال والى متى يحسن بى طلب العلم قال ماحسنت بك الحياة لان الصغير أعذر وان لم يكن فى الجهل عذر لانه لم تطل به مدة التفريط ولا استمرت عليه أيام الاهمال . وقد قيل فى منثور الحكم جهل الصغير معذور وعلمه محقور فاما الكبير فالجهل به أقبح ونقصه عليه أفضح لان علو السن اذا لم يكسبه فضلا ولم يفده علما وكانت أيامه فى الجهل ماضيه ومن الفضل خاليه كان الصغير أفضل منه لان الرجاء له أكثر والامل فيه أظهر وحسبك نقصا فى رجل يكون الصغير المساوى له فى الجهل أفضل منه . وأنشدت لبعض أهل الادب

اذا لم يكن مر السنين مترجما * عن الفضل للانسان سميته طفلا
وما تنفع الاعوام حين تعدها * ولم تستفد فيهن علما ولا فضلا
أرى الدهر من سوء التصرف مائلا * الى كل ذى جهل كأن به جهلا

وربما امتنع من طلب العلم لتعذر المادة وشغله اكتسابها عن التماس العلم وهذا وان كان أعذر من غيره مع أنه قلما يكون ذلك الا عند ذى شره وعيب وشهوة مستعبدة فينبغى أن يصرف العلم حظا من زمانه فليس كل الزمان زمان اكتساب ولابد للمكتسب من أوقات استراحة وأيام عطلة ومن صرف كل نفسه الى الكسب حتى لم يترك لها فراغا الى غيره فهو من عبيد الدنيا وأسراء الحرص . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل شئ فترة فمن كانت فترته الى العلم فقد نجا . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال كونوا علماء صالحين فان لم تكونوا علماء صالحين فجالسوا العلماء واسمعوا علما يدلكم على الهدى ويردكم عن الردى . وقال بعض العلماء من أحب العلم أحاطت به فضائله . وقال بعض الحكماء من صاحب العلماء وقر ومن جالس السفهاء حقر وربما منعه من طلب العلم ما يظنه من صعوبته وبعد غايته ويخشى من قلة ذهنه وبعد فطنته وهذا الظن اعتذار ذوى النقص وخيفة أهل العجز لان الاخبار قبل الاختبار جهل والخشية قبل الابتلاء عجز وقد قال الشاعر

لا تكونن للامور هيوبا * فالى خيبة يصير الهيوب

وقال رجل لابى هريرة رضى الله عنه أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال كفى بترك العلم إضاعة وليس وان تفاضلت الاذهان وتفاوتت الفطن ينبغى لمن قل منها حظه أن ييأس من نيل القليل وادراك اليسير الذى يخرج به من حد الجهالة الى أدنى مراتب التخصيص فان الماء مع لينه يؤثر فى صم الصخور فكيف لا يؤثر العلم الزكى فى نفس راغب شهى وطالب خلى لاسيما وطالب العلم معان . قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب وربما منع ذا السفاهة من طلب العلم أن يصور فى نفسه حرفة أهله وتضايق الامور مع الاشتغال به حتى يسمهم بالادبار ويتوسمهم بالحرمان فان رأى محبرة تطير منها وان وجد كتابا أعرض عنه وان رأى متحليا بالعلم هرب منه كأنه لم ير عالما مقبلا وجاهلا مدبرا ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوى منازل وأحوال كنت أخفى عنهم ما يصحبنى من محبرة وكتاب لئلا أكون عندهم مستثقلا وان كان البعد عنهم مؤنسا ومصلحا والقرب منهم موحشا ومفسدا . فقد قال بزرجمهر الجهل فى القلب كالنز فى الارض

يفسد ما حوله لكن اتبعت فيهم الحديث المروى عن أبى الاشعث عن أبى عثمان عن ثوبان عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال خالطوا الناس بأخلاقهم وخالفوهم فى أعمالهم . ولذلك قال بعض البلغاء رب جهل وقيت به علما وسفه حميت به حلما وهذه الطبقة ممن لا يرجى لها اصلاح ولا يؤمل لها فلاح لان من اعتقد أن العلم شين وأن تركه زين وأن للجهل اقبالا مجديا وللعلم ادبارا مكديا كان ضلاله مستحكما ورشاده مستبعدا وكان هو الخامس الهالك الذى قال فيه على بن أبى طالب رضى الله عنه اغد عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامس فتهلك . وقد رواه خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن النبى صلى الله عليه وسلم مسندا وليس لمن هذه حاله فى العذل نفع ولا فى الاستصلاح مطمع وقد قيل لبزرجمهر مالكم لا تعاتبون الجهال فقال انا لا نكلف العمى أن يبصروا ولا الصم أن يسمعوا وهذه الطائفة التى تنفر من العلم هذا النفور وتعاند أهله هذا العناد ترى العقل بهذه المثابة وتنفر من العقلاء هذا النفور وتعتقد أن العاقل محارف وأن الاحمق محظوظ وناهيك بضلال من هذا اعتقاده فى العقل والعلم هل يكون لخير أهلا أو لفضيلة موضعا . وقد قال بعض البلغاء أخبث الناس المساوى بين المحاسن والمساوى وعلة هذا أنهم ربما رأوا عاقلا غير محظوظ وعالما غير مرزوق فظنوا أن العلم والعقل هما السبب فى قلة حظه ورزقه وقد انصرفت عيونهم عن حرمان أكثر النوكى وادبار أكثر الجهال لان فى العقلاء والعلماء قلة وعليهم من فضلهم سمة ولذلك قيل العلماء غرباء لكثرة الجهال فاذا ظهرت سمة فضلهم وصادف ذلك قلة حظ بعضهم تنوهوا بالتمييز واشتهروا بالتعيين فصاروا مقصودين باشارة المتعنتين ملحوظين بايماء الشامتين والجهال والحمقى لما كثروا ولم يتخصصوا انصرفت عنهم النفوس فلم يلحظ المحروم منهم بطرف شامت ولا قصد المجدود منهم باشارة عائب فلذلك ظن الجاهل المرزوق أن الفقر والضيق مختصان بالعلم والعقل دون الجهل والحمق ولو فتشت أحوال العلماء والعقلاء مع قلتهم لوجدت الاقبال فى أكثرهم ولو اختبرت أمور الجهال والحمقى مع كثرتهم لوجدت الحرمان فى أكثرهم وانما يصير ذو الحال الواسعة منهم ملحوظا مشتهرا لان حظه عجب واقباله مستغرب كما أن حرمان العاقل العالم غريب واقلاله عجيب ولم تزل الناس على سالف الدهور من ذلك متعجبين وبه معتبرين حتى قيل لبزرجمهر ما أعجب الاشياء فقال نجح الجاهل واكداء العاقل لكن الرزق بالحظ والجد لا بالعلم والعقل حكمة منه تعالى يدل بها على قدرته واجراء الامور على مشيئته . وقد قالت الحكماء لو جرت الاقسام على قدر العقول لم تعش البهائم فنظمه أبو تمام الطائى فقال

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل * ويكدى الفتى من دهره وهو عالم
ولو كانت الارزاق تجرى على الحجا * هلكن اذن من جهلهن البهائم

وقال كعب بن زهير بن أبي سلمى

لو كنت أعجب من شيء لأعجبنى * سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لامور ليس يدركها * والنفس واحدة والهم منتشر

على أن العلم والعقل سعادة واقبال وان قل معهما المال وضاقت معهما الحال والجهل والحمق حرمان وادبار وان كثر معهما المال واتسعت معهما الحال لان السعادة ليست بكثرة المال فكم من مكثر شقى ومقل سعيد وكيف يكون الجاهل الغنى سعيدا والجهل يضعه أم كيف يكون العالم الفقير شقيا والعلم يرفعه . وقد قيل فى منثور الحكم كم من ذليل أعزه علمه ومن عزيز أذله جهله . وقال عبد الله بن المعتز نعمة الجاهل كروضة مزبلة . وقال بعض الحكماء كلما حسنت نعمة الجاهل ازداد قبحا . وقال بعض العلماء لبنيه يابنى تعلموا العلم وان لم تنالوا به من الدنيا حظا فلأن يذم الزمان لكم أحب الى من أن يذم الزمان بكم . وقال بعض الادباء من لم يفد بالعلم مالا كسب به جمالا . وأنشد بعض أهل الادب لابن طباطبا

حسود مريض القلب يخفى أنينه * ويضحى كئيب البال عندى حزينه
يلوم على أن رحت للعلم طالبا * أجمع من عند الرواة فنونه
فأعرف أبكار الكلام وعونه * وأحفظ مما أستفيد عيونه
ويزعم أن العلم لا يكسب الغنى * ويحسن بالجهل الذميم ظنونه
فيا لائمى دعنى أغالى بقيمتى * فقيمة كل الناس مايحسنونه

وأنا أستعيذ بالله من خدع الجهل المذلة وبوادر الحمق المضلة وأسأله السعادة بعقل رادع يستقيم به من زل وعلم نافع يستهدى به من ضل . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا استرذل الله عبدا حظر عليه العلم فينبغى لمن زهد فى العلم أن يكون فيه راغبا ولمن رغب فيه أن يكون له طالبا ولمن طلبه أن يكون منه مستكثرا ولمن استكثر منه أن يكون به عاملا ولا يطلب لتركه احتجاجا ولا للتقصير فيه عذرا . وقد قال الشاعر

فلا تعذرانى فى الاساءة انه * شرار الرجال من يسىء فيعذر

ولا يسوف نفسه بالمواعيد الكاذبة ويمنيها بانقطاع الاشغال المتصلة فان لكل وقت شغلا ولكل زمان عذرا . وقال الشاعر

نروح ونغدو لحاجاتنا * وحاجة من عاش لاتنقضى
تموت مع المرء حاجاته * وتبقى له حاجة مابقى

ويقصد طلب العلم واثقا بتيسير الله قاصدا وجه الله تعالى بنية خالصة وعزيمة صادقة . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من تعلم علما لغير الله وأراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار . وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال تعلموا العلم قبل أن يرفع ورفعه ذهاب أهله فان أحدكم لايدرى متى يحتاج اليه أومتى يحتاج الى ماعنده وليحذر أن يطلبه لمراء أو رياء فان الممارى به مهجور لا ينتفع والمرائى به محقور لا يرتفع . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لاتعلموا العلم لتماروا به السفهاء ولاتعلموا العلم لتجادلوا به العلماء فمن فعل ذلك منكم فالنار مثواه وليس الممارى به هو المناظر فيه طالبا للصواب منه ولكنه القاصد لدفع ما يرد عليه من فاسد أو صحيح وفيهم جاءت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لايجادل الا منافق أو مرتاب . وقال الاوزاعى اذا أراد الله بقوم شرا أعطاهم الجدل ومنعهم العمل . وأنشد الرياشى لمصعب بن عبد الله

أجادل كل معترض ظنين * فأجعل دينه غرضا لدينى
وأترك ماعلمت لرأى غيرى * وليس الرأى كالعلم اليقين
وما أنا والخصومة وهى شئ * يصرف فى الشمال وفى اليمين
فاما ماعلمت فقد كفانى * وأما ما جهلت فجنبونى

وقد بين ذلك بعض العلماء فقال لصاحبه لايمنعنك حذر المراء من حسن المناظرة فان الممارى هو الذى لايريد أن يتعلم منه أحد ولا يرجو أن يتعلم من أحد واعلم أن لكل مطلوب باعثا والباعث على المطلوب شيآن رغبة أورهبة فليكن طالب العلم راغبا راهبا أما الرغبة ففى ثواب الله تعالى لطالبى مرضاته وحافظى مفترضاته وأما الرهبة فمن عقاب الله تعالى لتاركى أوامره ومهملى زواجره فاذا اجتمعت الرغبة والرهبة أدتا الى كنه العلم وحقيقة الزهد لان الرغبة أقوى الباعثين على العلم والرهبة أقوى السببين فى الزهد وقد قالت الحكماء أصل العلم الرغبة وثمرته السعادة وأصل الزهد الرهبة وثمرته العبادة فاذا اقترن الزهد والعلم فقد تمت السعادة وعمت الفضيلة وان افترقا فيا ويح مفترقين فما أضر افتراقهما وأقبح انفرادهما وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من ازداد فى العلم رشدا ولم يزدد فى الدنيا زهدا لم يزدد من الله الا بعدا . وقال مالك بن دينار من لم يؤت من العلم مايقمعه فما أوتى منه لا ينفعه وقال بعض الحكماء الفقيه بغير ورع كالسراج يضىء البيت ويحرق نفسه

﴿ فصـــل ﴾ واعلم أن للعلوم أوائل تؤدى الى أواخرها ومداخل تفضى الى حقائقها فليبتدئ طالب العلم باوائلها لينتهى الى أواخرها وبمداخلها ليفضى الى حقائقها ولا يطلب الآخر قبل الاول ولا الحقيقة قبل المدخل فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة لان البناء على غير أس لا يبنى والثمر من غير غرس لا يجنى ولذلك أسباب فاسدة ودواع واهية فمنها أن يكون فى النفس أغراض تختص بنوع من العلم فيدعوه الغرض الى قصد ذلك النوع ويعدل عن مقدماته كرجل يؤثر القضاء ويتصدى للحكم فيقصد من علم الفقه الى أدب القاضى وما يتعلق به من الدعوى والبينات أو يحب الاتسام بالشهادة فيتعلم كتاب الشهادات لئلا يصير موسوما بجهل ما يعانى فاذا أدرك ذلك ظن أنه قد حاز من العلم جمهوره وأدرك منه مشهوره ولم يرما بقى منه الا غامضا طلبه عناء وعويصا استخراجه فناء لقصور همته على ما أدرك وانصرافها عما ترك ولو نصح نفسه لعلم أن ما ترك أهم مما أدرك لان بعض العلم مرتبط ببعض ولكل باب منه تعلق بما قبله فلا تقوم الاواخر الا باوائلها وقد يصح قيام الاوائل بانفسها فيصير طلب الاواخر بترك الاوائل تركا للاوائل والاواخر فاذا ليس يعرى من لوم وان كان تارك الكل ألوم ومنها أن يحب الاشتهار بالعلم اما للتكسب أو للتجمل فيقصد من العلم ما اشتهر من مسائل الجدل وطريق النظر ويتعاطى علم ما اختلف فيه دون ما اتفق عليه ليناظر على الخلاف وهو لا يعرف الوفاق ويجادل الخصوم وهو لا يعرف مذهبا مخصوصا ولقد رأيت من هذه الطبقة عددا قد تحققوا بالعلم تحقق المتكلمين واشتهروا به اشتهار المتبحرين اذا أخذوا فى مناظرة الخصوم ظهر كلامهم واذا سئلوا عن واضح مذهبهم ضلت أفهامهم حتى انهم ليخبطون فى الجواب خبط عشواء فلا يظهر لهم صواب ولا يتقرر لهم جواب ثم لا يرون ذلك نقصا اذا نفقوا فى المجالس كلاما مرصوفا ولفقوا على المخالف حجاجا مألوفا وقد جهلوا من المذهب ما يعلم المبتدى ويتداوله الناشئ فهم دائما فى لغط مضل أو غلط مذل ورأيت قوما منهم يرون الاشتغال بالمذهب تكلفا والاستكثار منه تخلفا وحاجنى بعضهم عليه فقال كيف يكون علم حافظ المذهب مستورا وعلم المناظر علما مشهورا فقلت كيف يكون علم حافظ المذهب مستورا وهو سريع الجواب كثير الصواب لانه ان لم يسئل سكت فلم يعرف والمناظر ان لم يسئل سأل فعرف فقلت أليس اذا سئل الحافظ فاصاب بان فضله قال نعم قلت أفليس اذا سئل المناظر فاخطأ بان نقصه وقد قيل عند الامتحان يكرم المرء أو يهان فامسك عن جوابى لانه ان أنكر كابر المعقول ولو اعترف لزمته الحجة والامساك اذعان والسكوت رضى ولأن ينقاد الى الحق أولى من أن يستفزه الباطل وهذه طريقة من يقول

اعرفونى وهو غير عروف ولامعروف وبعيد ممن لا يعرف العلم أن يعرفه به . وقد قال زهير

ومهما تكن عند امرئ من خليقة * وان خالها تخفى على الناس تعلم

ومن أسباب التقصير أيضا أن يغفل عن التعلم فى الصغر ثم يشتغل به فى الكبر فيستحي أن يبتدئ بما يبتدئ الصغير ويستنكف أن يساويه الحدث الغرير فيبدأ بأواخر العلوم وأطرافها ويهتم بحواشيها وأكنافها ليتقدم على الصغير المبتدى ويساوى الكبير المنتهى وهذا ممن رضى بخداع نفسه وقنع بمداهنة حسه لان معقوله ان أحس ومعقول كل ذى حس يشهد بفساد هذا التصور وينطق باختلال هذا التخيل لانه شئ لا يقوم فى وهم وجهل ما يبتدئ به المتعلم أقبح من جهل ما ينتهى اليه العالم . وقد قال الشاعر

ترق الى صغير الامر حتى * يرقيك الصغير الى الكبير

فتعرف بالتفكر فى صغير * كبيرا بعد معرفة الصغير

ولهذا المعنى وأشباهه كان التعلم فى الصغر أحمد . روى مروان بن سالم عن اسمعيل بن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الذى يتعلم فى صغره كالنقش على الصخر والذى يتعلم فى كبره كالذى يكتب على الماء . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه قلب الحدث كالاراضى الخالية ما ألقى فيها من شئ قبلته وانما كان ذلك لان الصغير أفرغ قلبا وأقل شغلا وأيسر تبذلا وأكثر تواضعا . وقد قيل فى منثور الحكم المتواضع من طلاب العلم أكثرهم علما كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء فاما أن يكون الصغير أضبط من الكبير اذا عرى من هذه الموانع وأوعى منه اذا خلا من هذه القواطع فلا . حكى أن الاحنف بن قيس سمع رجلا يقول التعلم فى الصغر كالنقش على الحجر فقال الاحنف الكبير أكثر عقلا ولكنه أشغل قلبا ولعمرى لقد خص الاحنف عن المعنى وبينه ونبه على العلة لان قواطع الكبير كثيرة فمنها ما ذكرنا من الاستحياء . وقد قيل فى منثور الحكم من رق وجهه رق علمه . وقال الخليل بن أحمد يرتع الجهل بين الحياء والكبر فى العلم ومنها وفور شهواته وتقسم أفكاره . وقال الشاعر

صرف الهوى عن ذى الهوى عزيز * ان الهوى ليس له تمييز

وقال بعض البلغاء القلب اذا علق كالرهن اذا غلق ومنها الطوارق المزعجة والهموم المذهلة . وقد قيل فى منثور الحكم الهم قيد الحواس . وقال بعض البلغاء من بلغ أشده لاقى من العيش أشده ومنها كثرة أشغاله وترادف أحواله حتى انها تستوعب زمانه وتستنفد أيامه فاذا كان ذا رئاسة ألهته وان كان ذا معيشة قطعته ولذلك قيل تفقهوا

قبل أن تسوّدوا . وقال بزرجمهر الشغل مجهدة والفراغ مفسدة فينبغي لطالب العلم أن لا يني في طلبه وينتهز الفرصة به فربما شح الزمان بما سمح وضن بما منح ويبتدئ من العلم بأوّله ويأتيه من مدخله ولا يتشاغل بطلب ما لا يضر جهله فيمنعه ذلك من ادراك ما لا يسعه جهله فان لكل علم فضولا مذهلة وشذورا مشغلة ان صرف اليها نفسه قطعته عما هو أهم منها . وقال ابن عباس رضى الله عنهما العلم أكثر من أن يحصى فخذوا من كل شئ أحسنه . وقال المأمون ما لم يكن من العلم بارعا فبطون الصحف أولى به من قلوب الرجال . وقال بعض الحكماء بترك ما لا يعنيك يتم لك ما يعنيك ولا ينبغي أن يدعوه ذلك الى ترك ما استصعب عليه اشعارا لنفسه أن ذلك من فضول علمه واعذارا لها في ترك الاشتغال به فان ذلك مطية النوكى وعذر المقصرين ومن أخذ من العلم ما تسهل وترك منه ما تعذر كان كالقانص اذا امتنع عليه الصيد تركه فلا يرجع الا خائبا اذ ليس يرى الصيد الا ممتنعا كذلك العلم طلبه صعب على من جهله سهل على من علمه لان معانيه التي يتوصل اليها مستودعة في كلام مترجم عنها وكل كلام مستعمل فهو يجمع لفظا مسموعا ومعنى مفهوما فاللفظ كلام يعقل بالسمع والمعنى تحت اللفظ يفهم بالقلب . وقد قال بعض الحكماء العلوم مطالعها من ثلاثة أوجه قلب مفكر ولسان معبر وبيان مصوّر فاذا عقل الكلام بسمعه فهم معانيه بقلبه واذا فهم المعاني سقط عنه كلفة استخراجها وبقي عليه معاناة حفظها واستقرارها لان المعاني شوارد تضل بالاغفال والعلوم وحشية تنفر بالارسال فاذا حفظها بعد الفهم آنست واذا ذكرها بعد الانس رست وقال بعض العلماء من أكثر المذاكرة بالعلم لم ينس ما علم واستفاد ما لم يعلم . وقال الشاعر

اذا لم يذاكر ذو العلوم بعلمه * ولم يستفد علما نسي ما تعلما

فكم جامع للكتب من كل مذهب * يزيد مع الايام في جمعه عمى

وان لم يفهم معاني ما سمع كشف عن السبب المانع منها ليعلم العلة في تعذر فهمها فان بمعرفة أسباب الاشياء وعللها يصل الى تلافي ما شذ وصلاح ما فسد وليس يخلو السبب المانع من ذلك من ثلاثة أقسام اما أن يكون لعلة في الكلام المترجم واما أن يكون لعلة في المعنى المستودع واما أن يكون لعلة في السامع المستخرج فان كان السبب المانع من فهمها لعلة في الكلام المترجم عنها لم يخل ذلك من ثلاثة أحوال أحدها أن يكون لتقصير اللفظ عن المعنى فيصير تقصير اللفظ عن ذلك المعنى سببا مانعا من فهم ذلك المعنى وهذا يكون من أحد وجهين اما من حصر المتكلم وعيه واما من بلادته وقلة فهمه والحال الثانية أن يكون لزيادة اللفظ على المعنى فتصير الزيادة علة مانعة من فهم المقصود منه وهذا قد يكون من أحد وجهين

امامن هذا المتكلم وا كثاره واما السوء ظنه بفهم سامعه والحال الثالثة أن يكون لمواضعة يقصدها المتكلم بكلامه فاذا لم يعرفها السامع لم يفهم معانيها فأما تقصير اللفظ و زيادته فمن الاسباب الخاصة دون العامة لانك لست تجد ذلك عاما في كل كلام وانما تجده في بعضه فان عدلت عن الكلام المقصر الى الكلام المستوفى وعن الزائد الى الكافي أرحت نفسك من تكلف ما يكد رخاطرك وان أقمت على استخراجه اما لضرورة دعتك اليه عند اعواز غيره أو لحمية داخلتك عند تعذر فهمه فانظر في سبب الزيادة والتقصير فان كان التقصير لحصر والزيادة لهذر سهل عليك استخراج المعنى منه لان ماله من الكلام محصول لا يجوز أن يكون المختل منه أكثر من الصحيح وفي الاكثر على الاقل دليل وان كانت زيادة اللفظ على المعنى لسوء ظن المتكلم بفهم السامع كان استخراجه أسهل وان كان تقصير اللفظ عن المعنى لسوء فهم المتكلم فهو أصعب الامور حالا وأبعدها استخراجا لان ما لم يفهمه مكلمك فانت من فهمه أبعد الا أن يكون بفرط ذكائك وجودة خاطرك تتنبه باشارته على استنباط ما عجز عنه واستخراج ما قصر فيه فتكون فضيلة الاستيفاء لك وحق التقدم له وأما المواضعة فضربان عامة وخاصة فأما العامة فهي مواضعة العلماء فيما جعلوه ألقابا لمعان لا يستغني المتعلم عنها ولا يقف على معنى كلامهم الا بها كما جعل المتكلمون الجواهر والاعراض والاجسام ألقابا تواضعوها لمعان اتفقوا عليها ولست تجد من العلوم علما يخلو من هذا وهذه المواضعة العامة تسمى عرفا وأما الخاصة فمواضعة الواحد يقصد بباطن كلامه غير ظاهره فاذا كانت في الكلام كانت رمزا وان كانت في الشعر كانت لغزا فاما الرمز فلست تجده في علم معنوي ولا كلام لغوي وانما يختص غالبا باحد شيئين اما بمذهب شنيع يخفيه معتقده ويجعل الرمز سببا لتطلع النفوس اليه واحتمال التأويل فيه سببا لدفع التهمة عنه واما لما يدعي أربابه انه علم مرموز وأن ادراكه بديع معجز كالصنعة التي وضع لها أربابها اسم العلم الكيميا فرمزوا باوصافه وأخفوا معانيه ليوهموا الشح به والاسف عليه خديعة للعقول الواهية والآراء الفاسدة . وقد قال الشاعر

منعت شيأ فأكثرت الولوع به * وحب شئ الى الانسان مامنعا

ثم ليكونوا برآء من عهدة ماقالوه اذا جرب ولو كان ماتضمن هذين النوعين وأشباههما من الرموز معنى صحيحا وعلما مستفادا لخرج من الرمز الخفي الى العلم الجلي فان أغراض الناس مع اختلاف أهوائهم لا تتفق على ستر سليم واخفاء مفيد . وقد قال زهير

الستر دون الفاحشات ولا * يلقاك دون الخير من ستر

وربما استعمل الرمز من الكلام فيما يراد تفخيمه من المعانى وتعظيمه من الالفاظ ليكون أحلى فى القلوب موقعا وأجل فى النفوس موضعا فيصير بالرمز سائرا وفى الصحف مخلدا كالذى حكى عن فيثاغورس فى وصاياه المرموزة أنه قال احفظ ميزانك من الندى وأوزانك من الصدى يريد بحفظ الميزان من الندى حفظ اللسان من الخنا وحفظ الاوزان من الصدى حفظ العقل من الهوى فصار بهذا الرمز مستحسنا ومدونا ولو قاله باللفظ الصريح والمعنى الفصيح لما سار عنه ولا استحسن منه وعلة ذلك ان المحجوب عن الافهام كالمحجوب عن الابصار فيما يحصل له فى النفوس من التعظيم وفى القلوب من التفخيم وما ظهر منها ولم يحتجب هان واسترذل وهذا انما يصح استحلاؤه فيما قل وهو باللفظ الصريح مستقل فاما العلوم المنتشرة التى تتطلع النفوس اليها فقد استغنت بقوة الباعث عليها وشدة الداعى اليها عن الاستدعاء اليها برمز مستحلى ولفظ مستغرب بل ذلك منفر عنها لما فى الاشتغال باستخراج رموزها من الابطاء عن دركها وتصور معانيها فهذا حال الرمز وأما اللغز فهو تحدى أهل الفراغ وشغل ذوى البطالة ليتنافسوا فى تباين قرائحهم ويتفاخروا فى سرعة خواطرهم فيستكدوا خواطر قد منحوا صحتها فيما لا يجدى نفعا ولا يفيد علما فهم كاهل الصراع الذين قد صرفوا ما منحوه من صحة أجسامهم الى صراع كدود يصرع عقولهم ويهد أجسامهم لا يكسبهم حمدا ولا يجدى عليهم نفعا انظر الى قول الشاعر

رجل مات وخلف رجلا * ابن أم ابن أخى أخت أبيه
معه أم بنى أولاده * وأبا أخت بنى عم أخيه

أخبرنى عن هذين البيتين وقد روعك صعوبة ما تضمنهما من السؤال اذا استكدك الفكر فى استخراجه فعلمت أنه أراد ميتا خلف أبا و زوجة وعما ما الذى أفادك من العلم ونفى عنك من الجهل ألست بعد علمه تجهل ما كنت جاهلا من قبله ولو أن السائل قلب لك السؤال فأخر ما قدم وقدم ما أخر لكنت فى الجهل به قبل استخراجه كما كنت فى الجهل الاول وقد كددت نفسك وأتعبت خاطرك ثم لا تعدم أن يرد عليك مثل هذا مما تجهله فتكون فيه كما كنت قبله فاصرف نفسك تولى الله رشدك عن علوم النوكى وتكلف البطالين . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه . ثم اجعل ما من الله به عليك من صحة القريحة وسرعة الخاطر مصروفا الى علم ما يكون اتفاق خاطرك فيه مذخورا وكد فكرك فيه مشكورا . وقد روى سعيد بن أبى هند عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ

ونحن نستعيذ بالله من أن نغبن فضل نعمته علينا ونجهل نفع احسانه الينا . وقد قيل في منثور الحكم من الفراغ تكون الصبوة . وقال بعض البلغاء من أمضى يومه في غير حق قضاه أوفرض أداه أو مجد أثله أو حمد حصله أوخير أسسه أو علم اقتبسه فقد عق يومه وظلم نفسه . وقال بعض الشعراء

لقد هاج الفراغ عليك شغلا * وأسباب البلاء من الفراغ

فهذا تعليل ما في الكلام من الاسباب المانعة من فهم معانيه حتى خرج بنا الاستيفاء الى الاطالة والكشف الى الاغماض . وأما القسم الثاني وهو أن يكون السبب المانع من فهم السامع لعلة في المعنى المستودع فلا يخلو حال المعنى من ثلاثة أقسام اما أن يكون مستقلا بنفسه أو يكون مقدمة لغيره أو يكون نتيجة من غيره فاما المستقل بنفسه فضربان جلي وخفي فاما الجلي فهو يسبق الى فهم متصوره من أول وهلة وليس هذا من أقسام ما يشكل على ذي تصور وأما الخفي فيحتاج في ادراكه الى زيادة تأمل وفضل معاناة لينجلي عما أخفى وينكشف عما أغمض وباستعمال الفكر فيه يكون الارتياض به وبالارتياض به يسهل منه ما استصعب ويقرب منه ما بعد فان للرياضة جراءة وللدراية تأثيرا وأما ما كان مقدمة لغيره فضربان أحدهما أن تقوم المقدمة بنفسها وان تعدت الى غيرها فتكون كالمستقل بنفسه في تصوره وفهمه وان كان مستدعيا لنتيجته والثاني أن يكون مفتقرا الى نتيجته فيتعذر فهم المقدمة الا بما يتبعها من النتيجة لانها تكون بعضا وتبعيض المعنى أشكل له وبعضه لا يغني عن كله وأما ما كان نتيجة لغيره فهو لا يدرك الا باوله ولا يتصور على حقيقته الا بمقدمته والاشتغال به قبل المقدمة عناء واتعاب الفكر في استنباطه قبل قاعدته أذى فهذا أوضح تعليل ما في المعاني من الاسباب المانعة من فهمها وأما القسم الثالث وهو أن يكون السبب المانع لعلة في المستمع فذلك ضربان أحدهما من ذاته والثاني من طارئ عليه فاما ما كان من ذاته فيتنوع نوعين أحدهما ما كان مانعا من تصور المعنى وفهمه والثاني ما كان مانعا من حفظه بعد تصوره وفهمه فاما المانع من تصور المعنى وفهمه فهو البلادة وقلة الفطنة وهو الداء العياء . وقد قال بعض الحكماء اذا فقد العالم الذهن قل على الاضداد احتجاجه وكثر الى الكتب احتياجه وليس لمن بلي به الا الصبر والاقلال لانه على القليل أقدر وبالصبر أحرى أن ينال ويظفر . وقد قال بعض الحكماء قدم لحاجتك بعض لجاجتك وليس يقدر على الصبر من هذه حالته الا أن يكون غالب الشهوة بعيد الهمة فيشعر قلبه الصبر لقوة شهوته ويكلف جسده احتمال التعب لبعد همته فاذا تلوح له المعنى بمساعدة الشهوة

أعقبه ذلك إلحاح الآملين ونشاط المدركين فقل عنده كل كثير وسهل عليه كل عسير . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لاتنالون ماتحبون الا بالصبر على ماتكرهون ولاتبلغون ماتهوون الا بترك ماتشتهون . وقيل في منثور الحكم أتعب قدمك فكم من تعب قدمك . وقال بعض البلغاء اذا اشتد الكلف هانت الكلف . وأنشد بعض أهل الادب لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه

لاتعجزن ولاتدخلك مضجرة * فالنجح يهلك بين العجز والضجر

وأما المانع من حفظه بعد تصوره وفهمه فهو النسيان الحادث عن غفلة التقصير واهمال التواني فينبغي لمن بلي به أن يستدرك تقصيره بكثرة الدرس ويوقظ غفلته بادامة النظر فقد قيل لن يدرك العلم من لايطيل درسه ويكد نفسه وكثرة الدرس كدود لايصبر عليه الا من يرى العلم مغنما والجهالة مغرما فيحتمل تعب الدرس ليدرك راحة العلم وينفي عنه معرة الجهل فان نيل العظيم بامر عظيم وعلى قدر الرغبة يكون الطلب وبحسب الراحة يكون التعب وقد قيل علة الراحة قلة الاستراحة . وقال بعض الحكماء أكمل الراحة ما كانت عن كد التعب وأعز العلم ما كان عن ذل الطلب وربما استثقل المتعلم الدرس والحفظ واتكل بعد فهم المعاني على الرجوع الى الكتب والمطالعة فيها عند الحاجة فلايكون الا كمن أطلق ماصاده ثقة بالقدرة عليه بعد الامتناع منه فلا تعقبه الثقة الا خجلا والتفريط الا ندما وهذه حال قد يدعو اليها أحد ثلاثة أشياء اما الضجر من معاناة الحفظ ومراعاته وطول الامل في التوفر عليه عند نشاطه وفساد الرأي في عزيمته وليس يعلم أن الضجور خائب وأن الطويل الامل مغرور وأن الفاسد الرأي مصاب والعرب تقول في أمثالها حرف في قلبك خير من ألف في كتبك وقالوا لاخير في علم لايعبر معك الوادي ولايعمر بك النادي وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه

علمي معي حيثما يممت يتبعني * قلبي وعاء له لابطن صندوق
ان كنت في البيت كان العلم فيه معي * أوكنت في السوق كان العلم في السوق

وربما اعتنى المتعلم بالحفظ من غير تصور ولافهم حتى يصير حافظا لالفاظ المعاني قيما بتلاوتها وهو لايتصورها ولايفهم ماتضمنته يروي بغير روية ويخبر عن غير خبرة فهو كالكتاب الذي لايدفع شبهة ولايؤيد حجة . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال همة السفهاء الرواية وهمة العلماء الرعاية . وقال ابن مسعود رضي الله عنه كونوا للعلم رعاة ولاتكونوا له رواة فقد يرعوي من لايروي ويروي من لايرعوي . وحدث الحسن البصري بحديث فقال له رجل ياأباسعيد عمن قال وماتصنع بعمن أما أنت فقد نالتك عظته وقامت عليك حجته

وربما اعتمد على حفظه وتصوّره وأغفل تقييد العلم فى كتبه ثقة بما استقر فى ذهنه وهذا خطأ منه لان الشك معترض والنسيان طارق . وقد روى أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال قيدوا العلم بالكتاب . وروى أن رجلا شكى الى النبى صلى الله عليه وسلم النسيان فقال له استعمل يدك أى اكتب حتى ترجع اذا نسيت الى ما كتبت . وقال الخليل بن احمد اجعل مافى الكتب رأس المال ومافى قلبك النفقة . وقال مهبوذ لولا ماعقدته الكتب من تجارب الاولين لانحل مع النسيان عقود الآخرين . وقال بعض البلغاء ان هذه الآداب نوافر تند عن عقل الاذهان فاجعلوا الكتب عنها حماة والاقلام لها رعاة وأما الطارى فنوعان أحدهما شبهة تعترض المعنى فتمنع من تصوّره وتدفع عن ادراك حقيقته فينبغى أن يزيل تلك الشبهة عن نفسه بالسؤال والنظر ليصل الى تصوّر المعنى وادراك حقيقته . ولذلك قال بعض العلماء لاتخل قلبك من المذاكرة فتعود عقيما ولاتعف طبعك من المناظرة فتصير سقيما . وقال بشار بن برد

شفاء العمى طول السؤال وانما * دوام العمى طول السكوت على الجهل
فكن سائلا عما عناك فانما * دعيت أخا عقل لتبحث بالعقل

والثانى أفكار تعارض الخاطر فتذهل عن تصوّر المعنى وهذا سبب قل مايعرى منه أحد لاسيما من انبسطت آماله واتسعت أمانيه وقد يقل فيمن لم يكن له فى غير العلم أرب ولافيما سواه همة فان طرأت على الانسان لم يقدر على مكابرة نفسه على الفهم وغلبة قلبه على التصوّر لان القلب مع الاكراه أشد نفورا وأبعد قبولا وقد جاء فى الاثر ان القلب اذا أكره عمى ولكن يعمل فى دفع ماطرأ عليه من هم مذهل أو مكر قاطع ليستجيب له القلب مطيعا . وقد قال الشاعر

وليس بمغن فى المودة شافع * اذا لم يكن بين الضلوع شفيع

وقال بعض الحكماء ان لهذه القلوب تنافرا كتنافر الوحش فتألفوها بالاقتصاد فى التعليم والتوسط فى التقديم لتحسن طاعتها ويدوم نشاطها . فهذا تعليل مافى المستمع من الاسباب المانعة من فهم المعانى . وهاهنا قسم رابع يمنع من معرفة الكلام وفهم معانيه ولكنه قد يعرى من بعض الكلام فلذلك لم يدخل فى جملة أقسامه ولم نستجز الاخلال بذكره وهو الخط لان من الكلام ما كان مسموعا لا يحتاج فى فهمه الى تأمل الخط به والمانع من فهمه هو على ماذكرنا من أقسامه ومنه ما كان مستودعا بالخط محفوظا بالكتابة مأخوذا بالاستخراج فكان الخط حافظا له ومعبرا عنه . وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى

أو أثارة من علم قال الخط . وعن مجاهد فى قوله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا يعنى الخط والعرب تقول الخط أحد اللسانين وحسنه أحد الفصاحتين . وقال جعفر بن يحيى الخط سمط الحكمة به يفصل شذورها وينظم منثورها . وقال ابن المقفع اللسان مقصور على القريب الحاضر والقلم على الشاهد والغائب . وقال حكيم الروم الخط هندسة روحانية وان ظهرت بآلة جسمانية . وقال حكيم العرب الخط أصيل فى الروح وان ظهر بحواس الجسد . واختلف فى أول من كتب الخط فذكر كعب الاحبار ان أول من كتب آدم عليه السلام كتب سائر الكتب قبل موته بثلاثمائة سنة فى طين ثم طبخه فلما غرقت الارض فى أيام نوح على نبينا وعليه السلام بقيت الكتابة فاصاب كل قوم كتابهم وبقى الكتاب العربى الى أن خص الله تعالى به اسماعيل فاصابه وتعلمها . وحكى ابن قتيبة أن أول من كتب ادريس على نبينا وعليه السلام وكانت العرب تعظم قدر الخط وتعده من أجل نافع حتى قال عكرمة بلغ فداء أهل بدر أربعة آلاف حتى ان الرجل ليفادى على أنه يعلم الخط لما هو مستقر فى نفوسهم من عظم خطره وجلالة قدره وظهور نفعه وأثره وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم فوصف نفسه بان علم بالقلم كما وصف نفسه بالكرم وعد ذلك من نعمه العظام ومن آياته الجسام حتى أقسم به فى كتابه فقال سبحانه وتعالى ن والقلم وما يسطرون فاقسم بالقلم كما أقسم بما يخط بالقلم واختلف فى أول من كتب بالعربية فذكر كعب الاحبار أن أول من كتب بها آدم عليه السلام ثم وجدها بعد الطوفان اسماعيل على نبينا وعليه السلام . وحكى ابن عباس رضى الله عنه أن أول من كتب بها ووضعها اسماعيل عليه السلام على لفظه ومنطقه وحكى عروة بن الزبير رضى الله عنه أن أول من كتب بها قوم من الاوائل أسماؤهم أبجد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت وكانوا ملوك مدين . وحكى ابن قتيبة فى المعارف أن أول من كتب بالعربى مرامر بن مرة من أهل الانبار ومن الانبار انتشرت . وحكى المدائنى أن أول من كتب بها مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة فمرامر وضع الصور وأسلم فصل ووصل وعامر وضع الاعجام ولما كان الخط بهذه الحال وجب على من أراد حفظ العلم أن يعنى بامرين أحدهما تقويم الحروف على أشكالها الموضوعة لها والثانى ضبط ما اشتبه منها بالنقط والاشكال المميزة لها ثم ما زاد على هذين من تحسين الخط وملاحة نظمه فانما هو زيادة حذق بصنعته وليس بشرط فى صحته . وقد قال على بن عبيدة الخط لسان اليد وبهجة الضمير . وقال أبو العباس المبرد رداءة الخط زمانة الادب

وقال عبد الحميد البيان فى اللسان والبنان . وأنشدنى بعض أهل العلم لاحد شعراء البصرة

اعذر أخاك على نذالة خطه * واغفر نذالته لجودة ضبطه
واعلم بان الخط ليس يراد من * تركيبه الا تبين سمطه
فاذا أبان عن المعانى لم يكن * تحسينه الا زيادة شرطه

ومحل مازاد على الخط المفهوم من تصحيح الحروف وحسن الصورة محل مازاد على الكلام المفهوم من فصاحة الالفاظ وصحة الاعراب ولذلك قالت العرب حسن الخط أحد الفصاحتين وكما أنه لا يعذر من أراد التقدم فى الكلام أن يطرح الفصاحة والاعراب وان فهم وأفهم كذلك لا يعذر من أراد التقدم فى الخط أن يطرح تصحيح الحروف وتحسين الصور وان فهم وأفهم وربما تقدم بالخط من كان الخط أجل فضائله وأشرف خصائله حتى صار علما مشهورا وسيدا مذكورا غير أن العلماء أطرحوا صرف الهمة الى تحسين الخط لانه يشغلهم عن العلم ويقطعهم عن التوفر عليه ولذلك تجد خطوط العلماء فى الاغلب رديئة الا من أسعده القضاء وقد قال الفضل بن سهل من سعادة المرء أن يكون ردىء الخط ليكون الزمان الذى يفنيه بالكتابة يشغله بالحفظ والنظر وليست رداءة الخط هى السعادة وانما السعادة أن لا يكون له صارف عن العلم وعادة ذى الخط الحسن أن يتشاغل بتحسين خطه عن العلم فمن هذا الوجه صار برداءة خطه سعيدا وان لم تكن رداءة الخط سعادة واذا كان ذلك كذلك فقد يعرض للخط أسباب تمنع من قراءته ومعرفته كما يعرض للكلام أسباب تمنع من فهمه وصحته والاسباب المانعة من قراءة الخط وفهم ما تضمنه قد تكون من ثمانية أوجه (الوجه الاول) اسقاطه ألفاظا من أثناء الكلام يصير الباقى بها مبتورا لا يعرف استخراجه ولا يفهم معناه وهذا يكون اما من سهو الكاتب أو من فساد نقله وهذا يسهل استنباطه على من كان مرتاضا بذلك النوع فيستدل بحواشى الكلام وما سلم منه على ما سقط أو فسد لاسيما اذا قل لان الكلمة تستدعى ما يليها ومعرفة المعنى توضح عن الكلام المترجم عنه فاما من كان قليل الارتياض بذلك النوع فانه يصعب عليه استنباط المعنى منه لاسيما اذا كان كثيرا لانه يحتاج فى فهم المعانى الى الفكرة والروية فيما قد استخرجه بالكتابة فاذا هو لم يعرف تمام الكلام المترجم عن المعنى قصر فهمه عن ادراكه وضل فكره من استنباطه (والوجه الثانى) زيادة ألفاظ فى أثناء الكلام يشكل بها معرفة الصحيح غير الزائد من معرفة السقيم الزائد فيصير الكل مشكلا وهذا لا يكاد يوجد كثيرا الا أن يقصد الكاتب تعمية كلامه فيدخل فى أثنائه ما يمنع من فهمه فيصير ذلك رمزا يعرف بالمواضعة فاما وقوعه سهوا فقد يكون بالكلمة والكلمتين وذلك لا يمنع من فهمه على المرتاض وغيره

(والوجه الثالث) اسقاط حروف من أثناء الكلمة تمنع من استخراجها على الصحة وقد يكون هذا تارة من السهو فيقل وتارة من ضعف الهجاء فيكثر والقول فيه كالقول في الوجه الاول (والوجه الرابع) زيادة حروف في أثناء الكلمة يشكل بها معرفة الصحيح من حروفها وهذا يكون تارة من سهو الكاتب فيقل ولا يمنع من استخراج الصحيح ويكون تارة لتعمية ومواضعة يقصد بها الكاتب اخفاء غرضه فيكثر كالتراجم ويكون القول فيه كالقول في الوجه الثاني (والوجه الخامس) وصل الحروف المفصولة وفصل الحروف الموصولة فيدعو ذلك الى الاشكال لان الكلمة ينبه عليها وصل حروفها ويمنع فصلها من مشاركة غيرها فان كان ذلك من سهو قل فسهل استخراجه وان كان ذلك من قلة معرفة بالخط أو مشقا تسبق به اليد كثر فصعب استخراجه الا على المرتاض به . ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه شر الكتابة المشق كما أن شر القراءة الهذرمة وان كان للتعمية والرمز لا يعرف الا بالمواضعة (والوجه السادس) تغيير الحروف عن أشكالها وابدالها بأغيارها حتى يكتب الحاء على شكل الباء والصاد على شكل الراء وهذا يكون في رموز التراجم لا يوقف عليه الا بالمواضعة الا من قد زاد فيه الذكاء فيقدر على استخراج المعمى (والوجه السابع) ضعف الخط عن تقويم الحروف على الاشكال الصحيحة واثباتها على الاوصاف الحقيقية حتى لا تكاد الحروف تمتاز عن أغيارها حتى تصير العين الموصولة كالفاء والمفصولة كالحاء وهذا يكون من رداءة الخط وضعف اليد واستخراج ذلك ممكن بفضل المعاناة وشدة التأمل وان كان ربما أضجر قارئه وأوهى معانيه . ولذلك قيل ان الخط الحسن ليزيد الحق وضوحا (والوجه الثامن) اغفال النقط والاشكال التي تتميز بها الحروف المشتبهة وهذا أيسر أمرا وأخف حالا لان من كان متميزا بصحة الاستخراج ومعرفة الخط لم تخف عليه معرفة الخط وفهم ما تضمنه مع اغفال النقط والاشكال بل قد استقبح الكتاب ذلك في المكاتبات ورأوه من تقصير الكاتب أو سوء ظنه بفهم المكاتب وكان استقباحهم له في مكاتبة الرؤساء أكثر . حكى قدامة بن جعفر أن بعض كتاب الدواوين حاسب عاملا فشكى العامل منه الى عبيد الله بن سليمان وكتب رقعة يذكر فيها احتجاجا لصحة دعواه ووضوح شكواه فوقع فيها عبيد الله بن سليمان هذا هذا فأخذها العامل وقرأها فظن أن عبيد الله أراد بهذا هذا اثباتا لصحة دعواه وصدق قوله كما يقال في اثبات الشئ هو هو فحمل الرقعة الى كاتب الديوان وأراه خط عبيد الله وقال له ان عبيد الله قد صدق قولي وصحح ما ذكرت فخفي على الكاتب ذلك وأطيف به على كتاب الدواوين فلم يقفوا على مراد عبيد الله فرد اليه ليسأل عن مراده فشدد عبيد الله الكلمة الثانية

وكتب تحتها والله المستعان استعظاما منه لتقصيرهم في استخراج مراده حتى احتاج الى ابانته بالشكل فهذه حال الكتاب في استقباحهم اعجام المكاتبات بالنقط والاشكال فاما غير المكاتبات من سائر العلوم فلم يروه قبيحا بل استحسنوه لاسيما في كتب الادب التي يقصد بها معرفة صيغة الالفاظ وكيفية مخارجها مثل كتب النحو واللغة والشعر والغريب فان الحاجة الى ضبطها بالشكل والاعجام أكثر وهي مما سواه من العلوم أيسر وقد قال الثوري الخطوط المعجمة كالبرود المعلمة . وقال بعض البلغاء اعجام الخط يمنع من استعجامه وشكله يؤمن من اشكاله . وقال بعض الادباء رب علم لم تعجم فصوله فاستعجم محصوله وكما استقبح الكتاب الشكل والاعجام في المكاتبات وان كان في كتب العلوم مستحسنا فكذلك استحسنوا مشق الخط في المكاتبات وان كان في العلوم مستقبحا وسبب ذلك أنهم لفرط ادلالهم بالصنعة وتقدمهم في الكتابة يكتفون بالاشارة ويقتصرون على التلويح ويرون الحاجة الى استيفاء شروط الابانة تقصيرا ولقصد ما يعتقدونه من التقدم بهذا الحال رأوا ما نبه عليه من سواد المداد أثرا جميلا وعلى الفضل والتخصيص دليلا . حكي أن عبيد الله بن سليمان رأى على بعض ثيابه أثر صفرة فاخذ من مداد الدواة فطلاه به ثم قال المداد بنا أحسن من الزعفران وأنشد

انما الزعفران عطر العذارى * ومداد الدوى عطر الرجال

فهذه جملة كافية في الابانة عن الاسباب المانعة من فهم الكلام ومعرفة معانيه لفظا كان أو خطا والله ولي التوفيق فينبغي لطالب العلم أن يكشف عن الاسباب المانعة من فهم المعنى ليسهل عليه الوصول اليه ثم يكون بعد ذلك سائسا لنفسه مدبرا لها في حال تعلمه فان للنفس نفورا يفضي الى تقصير ووفورا يؤول الى سرف وقيادها عسر ولها أحوال ثلاث حال عدل وانصاف وحال غلو واسراف وحال تقصير واجحاف فاما حال العدل والانصاف فهي أن تختلف قوى النفس من جهتين متقابلتين طاعة مسعدة وشفقة كافة فطاعتها تمنع التقصير وشفقتها تردع عن السرف وهذه أحمد الاحوال لان ما منع من التقصير نماء وما صد عن السرف مستديم والنمو اذا استدام فاخلق به أن يستكمل . وقال بعض الحكماء اياك ومفارقة الاعتدال فان المسرف مثل المقصر في الخروج عن الحد وأما حال الغلو والاسراف فهي أن تختص النفس بقوى الطاعة وتعدم قوى الشفقة فيبعثها اختصاص الطاعة على افراغ الجهد ويفضي بها افراغ الجهد الى عجز الكلال فيؤديها عجز الكلال الى الترك والاهمال فتصير الزيادة نقصانا والربح خسرانا . وقد قالت الحكماء طالب العلم وعامل البر كآكل الطعام ان أخذ منه قوتا عصمه وان أسرف فيه أبشمه وربما كان فيه منيته كآخذ الادوية التي القصد فيها شفاء

ومجاوزة الحد فيها السم المميت وأما حال التقصير والاجحاف فهي أن تختص النفس بقوى الشفقة وتعدم قوى الطاعة فيدعوها الاشفاق الى المعصية وتمنعها المعصية من الاجابة فلا تطلب شاردا ولا تقبل عائدا ولا تحفظ مستودعا ومن لم يطلب الشارد ويقبل العائد ويحفظ المستودع فقد الموجود ولم يجد المفقود ومن فقد ماوجد فهو مصاب محزون ومن لم يجد مافقد فهو خائب مغبون . وقد قال بعض الحكماء العجز مع الوانى والفوت مع التوانى وقد يكون للنفس مع الاحوال الثلاث حالتان مشتركتان بغلبة احدى القوتين فيكون للنفس طاعة واشفاق واحداهما أغلب من الاخرى فان كانت الطاعة أغلب كانت الى الوفور المجاوز أميل وان كان الاشفاق أغلب كانت الى التقصير أقرب فاذا عرف من نفسه قدر طاعتها وخبر منها كنه اشفاقها راض نفسه ليلبث على أحمد حالاتها . وقد أشار الى ماوصفنا من حال النفس الفرزدق فى قوله

لكل امرئ نفسان نفس كريمة * وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسك من نفسيك تشفع للندى * اذا قل من احرارهن شفيعها

فان أهمل سياستها وأغفل رياضتها ورام أن يأخذها بالعنف ويقهرها بالعسف استشاطت نافرة ولجت معاندة فلم تنقد الى طاعة ولم تنكف عن معصية . وقال سابق البربرى

اذا زجرت بلوجا زدته علقا * ولجت النفس منه فى تماديها
فعد عليه اذا ما نفسه جمحت * باللين منك فان اللين يثنيها

فاذا استصعب عليه قياد نفسه ودام منه نفور قلبه مع سياستها ومعاناة رياضتها تركها ترك راحه ثم عاودها بعد الاستراحه فان اجابتها تسرع وطاعتها ترجع . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان القلب يموت ويحيا ولو بعد حين . وقال ابن مسعود للقلوب شهوة واقبال وفترة وادبار فأتوها من قبل شهوتها ولا تأتوها من قبل فترتها . وقال الشاعر

وماسمى الانسان الا لانسه * ولا القلب الا أنه يتقلب

وأما الشروط التى يتوفر بها علم الطالب وينتهى معها كمال الراغب مع مايلاحظ به من التوفيق ويمد به من المعونة فتسعة شروط (الاول) العقل الذى يدرك به حقائق الامور (والثانى) الفطنة التى يتصور بها غوامض العلوم (والثالث) الذكاء الذى يستقر به حفظ ماتصوره وفهم ماعلمه (والرابع) الشهوة التى يدوم بها الطلب ولا يسرع اليه الملل (والخامس) الاكتفاء بمادة تغنيه عن كلف الطلب (والسادس) الفراغ الذى يكون معه التوفر ويحصل به الاستكثار (والسابع) عدم القواطع المذهلة من هموم واشغال وأمراض (والثامن)

طول العمر واتساع المدة لينتهى بالاستكثار الى مراتب الكمال (والتاسع) الظفر بعالم سمح بعلمه متأن فى تعليمه فاذا استكمل هذه الشروط التسعة فهو أسعد طالب وأنجح متعلم . وقد قال الاسكندر يحتاج طالب العلم الى أربع مدة وجدة وقريحة وشهوة وتمامها فى الخامس معلم ناصح

﴿فصل﴾ وسأذكر طرفا مما يتأدب به المتعلم ويكون عليه العالم اعلم أن للمتعلم فى زمان تعلمه ملقا وتذللا ان استعملهما غنم وان تركهما حرم لان التملق للعالم يظهر مكنون علمه والتذلل له سبب لادامة صبره وباظهار مكنونه تكون الفائدة وباستدامة صبره يكون الاكثار . وقد روى معاذ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ليس من أخلاق المؤمن الملق الا فى طلب العلم . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ذللت طالبا فعززت مطلوبا . وقال بعض الحكماء من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقى فى ذل الجهل أبدا . وقال بعض حكماء الفرس اذا قعدت وأنت صغير حيث تحب قعدت وأنت كبير حيث لا تحب ثم ليعرف له فضل علمه وليشكر له جميل فعله . فقد روت عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من وقر عالما فقد وقر ربه . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه لا يعرف فضل أهل الفضل الا أهل الفضل . وقال بعض الشعراء

ان المعلم والطبيب كلاهما * لا ينصحان اذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك ان جفوت طبيبه * واصبر لجهلك ان جفوت معلما

ولا يمنعه من ذلك علو منزلته ان كانت له وان كان العالم خاملا فان العلماء بعلمهم قد استحقوا التعظيم لا بالقدرة والمال . وأنشدنى بعض أهل الادب لابى بكر بن دريد

لا تحقرن عالما وان خلقت * أثوابه فى عيون رامقه
وانظر اليه بعين ذى أدب * مهذب الرأى فى طرائقه
فالمسك بينا تراه ممتهنا * بفهر عطاره وساحقه
حتى تراه فى عارضى ملك * وموضع التاج من مفارقه

وليكن مقتديا بهم فى رضى أخلاقهم متشبها بهم فى جميع أفعالهم ليصير لها آلفا وعليها ناشئا ولما خالفها مجانبا . فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم خيار شبابكم المتشبهون بشيوخكم وشرار شيوخكم المتشبهون بشبابكم . وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من تشبه بقوم فهو منهم . وأنشدنى بعض أهل الادب لابى بكر بن دريد

العالم العاقل ابن نفسه * أغناه جنس علمه عن جنسه
كن ابن من شئت وكن مؤدبا * فانما المرء بفضل كيسه
وليس من تكرمه لغيره * مثل الذى تكرمه لنفسه

وليحذر المتعلم التبسط على من يعلمه وان آنسه والادلال عليه وان تقدمت صحبته . فقد قيل لبعض الحكماء من أذل الناس فقال عالم يجرى عليه حكم جاهل وكانت رسول الله صلى الله عليه وسلم جارية من السبي فقال لها من أنت فقالت بنت الرجل الجواد حاتم فقال صلى الله عليه وسلم ارحموا عزيز قوم ذل ارحموا غنيا افتقر ارحموا عالما ضاع بين الجهال . ولا يظهر له الاستكفاء منه والاستغناء عنه فان في ذلك كفرا لنعمته واستخفافا بحقه وربما وجد بعض المتعلمين قوة في نفسه لجودة ذكائه وحدة خاطره فقصد من يعلمه بالاعنات له والاعتراض عليه ازراء به وتبكيتا له فيكون كمن تقدم فيه المثل السائر لابى البطحاء

أعلمه الرماية كل يوم * فلما استد ساعده رماني

وهذه من مصائب العلماء وانعكاس حظوظهم أن يصيروا عند من يعلمونه مستجهلين وعند من قدموه مسترذلين . وقال صالح بن عبد القدوس

وان عناء أن تعلم جاهلا * فيحسب جهلا أنه منك أعلم
متى يبلغ البنيان يوما تمامه * اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم
متى ينتهى عن سيء من أتى به * اذا لم يكن منه عليه تندم

وقد رجح كثير من الحكماء حق العالم على حق الوالد حتى قال بعضهم

يا فاخرا للسفاه بالسلف * وتاركا للعلاء والشرف
آباء أجسادنا هم سبب * لان جعلنا عرائض التلف
من علم الناس كان خير أب * ذاك أبو الروح لا أبو الجيف

ولا ينبغي أن يبعثه معرفة الحق له على قبول الشبهة منه ولا يدعوه ترك الاعنات له على التقليد فيما أخذ عنه فانه ربما غالى بعض الاتباع فى عالمهم حتى يروا أن قوله دليل وان لم يستدل وأن اعتقاده حجة وان لم يحتج فيفضي به الامر الى التسليم له فيما أخذ عنه ويؤل به ذلك الى التقصير فيما يصدر منه لانه يجتهد بحسب اجتهاد من يأخذ عنه فلا يبعد أن تبطل تلك المقالة ان انفردت أو يخرج أهلها من عداد العلماء فيما شاركت لانه قد لا يرى لهم من يأخذ عنهم ما كانوا يرونه لمن أخذوا عنه فيطالبهم بما قصروا فيه فيضعفوا عن ابانته ويعجزوا عن نصرته فيذهبوا ضائعين ويصيروا عجزة مضعوفين ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلا يناظر فى مجلس حفل وقد استدل عليه الخصم بدلالة صحيحة فكان جوابه عنها أن قال ان هذه دلالة فاسدة وجه فسادها أن شيخي لم يذكرها وما لم يذكره الشيخ لا خير فيه فامسك عنه المستدل تعجبا ولان شيخه كان محتشما وقد حضرت طائفة يرون فيه مثل ما رأى هذا الجاهل ثم أقبل المستدل على وقال لى والله لقد أفحمني بجهله وصار سائر الناس المبرئين من هذه الجهالة

من بين مستهزئ ومتعجب ومستعيذ بالله من جهل مغرب فهل رأيت كذلك عالما أوغل في الجهل وأدل على قلة العقل واذا كان المتعلم معتدل الرأى فيمن يأخذ عنه متوسط الاعتقاد فيمن يتعلم منه حتى لا يحمله الاعنات على اعتراض المبكتين ولا يبعثه الغلو على تسليم المقلدين برئ المتعلم من المذمتين وسلم العالم من الهجنتين وليس كثرة السؤال فيما التبس اعناتا ولا قبول ما صح فى النفس تقليدا . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال العلم خزائن ومفتاحه السؤال فاسألوا رحمكم الله فانما يؤجر فى العلم ثلاثة القائل والمستمع والآخذ . وقال عليه الصلاة والسلام هلا سألوا اذا لم يعلموا فانما شفاء العى السؤال فأمر بالسؤال وحث عليه ونهى آخرين عن السؤال وزجر عنه فقال صلى الله عليه وسلم أنها كم عن قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال . وقال عليه الصلاة والسلام اياكم وكثرة السؤال فانما هلك من قبلكم بكثرة السؤال وليس هذا مخالفا للاول وانما أمر بالسؤال من قصد به علم ما جهل ونهى عنه من قصد به اعنات ما سمع واذا كان السؤال فى موضعه أزال الشكوك ونفى الشبهة . وقد قيل لابن عباس رضى الله عنهما بم نلت هذا العلم قال بلسان سؤول وقلب عقول . وروى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال حسن السؤال نصف العلم . وأنشد المبرد عن أبى سليمان الغنوى

فسل الفقيه تكن فقيها مثله * لا خير فى علم بغير تدبر
واذا تعسرت الامور فأرجها * وعليك بالامر الذى لم يعسر

وليأخذ المتعلم حظه ممن وجد طلبته عنده من نبيه وخامل ولا يطلب الصيت وحسن الذكر باتباع أهل المنازل من العلماء اذا كان النفع بغيرهم أعم الا أن يستوى النفعان فيكون الاخذ عمن اشتهر ذكره وارتفع قدره أولى لان الانتساب اليه أجمل والاخذ عنه أشهر . وقد قال الشاعر

اذا أنت لم يشهرك علمك لم تجد * لعلمك مخلوقا من الناس يقبله
وان صانك العلم الذى قد حملته * أتاك له من يجتنيه ويحمله

واذا قرب منك العلم فلا تطلب ما بعد واذا سهل من وجه فلا تطلب ما صعب واذا حمدت من خبرته فلا تطلب من لم تختبره فان العدول عن القريب الى البعيد عناء وترك الاسهل بالاصعب بلاء والانتقال من المخبور الى غيره خطر . وقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه عقبى الاخرق مضره والمتعسف لا تدوم له مسره . وقال بعض الحكماء القصد أسهل من التعسف والكف أودع من التكلف وربما تتبع نفس الانسان من بعد عنه استهانة بمن قرب منه وطلب ما صعب احتقارا لما سهل عليه وانتقل الى من لم يخبره مللا لمن خبره فلا يدرك

محبوبا ولا يظفر بطائل . وقد قالت العرب فى أمثالها العالم كالكعبة يأتيها البعداء ويزهد فيها القرباء وأنشدنى بعض شيوخنا لمسيح بن حاتم

لاترى عالما يحل بقوم * فيحلوه غير دار الهوان
قلما توجد السلامة والصحة مجموعتين فى انسان
فاذا حلتا مكانا سحيقا * فهما فى النفوس معشوقتان
هذه مكة العزيزة بيت الله يسعى لحجها الثقلان
وترى أزهد البرية فى الحج لها أهلها لقرب المكان

﴿فصل﴾ فاما ما يجب أن يكون عليه العلماء من الاخلاق التى بهم أليق ولهم ألزم فالتواضع ومجانبة العجب لان التواضع عطوف والعجب منفر وهو بكل أحد قبيح وبالعلماء أقبح لان الناس بهم يقتدون وكثيرا ما يداخلهم الاعجاب لتوحدهم بفضيلة العلم ولو أنهم نظروا حق النظر وعملوا بموجب العلم لكان التواضع بهم أولى ومجانبة العجب بهم أحرى لان العجب نقص ينافى الفضل لاسيما مع قول النبى صلى الله عليه وسلم ان العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب فلا يفى ما أدركوه من فضيلة العلم بما لحقهم من نقص العجب . وقد روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قليل العلم خير من كثير العبادة وكفى بالمرء علما اذا عبد الله عز وجل وكفى بالمرء جهلا اذا أعجب برأيه . وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تعلمون ليتواضع لكم من تعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم . وقال بعض السلف من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله به ومن تواضع بعلمه رفعه الله به وعلة اعجابهم انصراف نظرهم الى كثرة من دونهم من الجهال وانصراف نظرهم عن فوقهم من العلماء فانه ليس متناه فى العلم الا وسيجد من هو أعلم منه اذ العلم أكثر من أن يحيط به بشر . قال الله تعالى نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم يعنى فى العلم . قال أهل التأويل يعنى فوق كل ذى علم من هو أعلم منه حتى ينتهى ذلك الى الله تعالى . وقيل لبعض الحكماء من يعرف كل العلم قال كل الناس . وقال الشعبى ما رأيت مثلى وما أشاء أن ألقى رجلا أعلم منى الا لقيته لم يذكر الشعبى هذا القول تفضيلا لنفسه فيستقبح منه وانما ذكره تعظيما للعلم عن أن يحاط به فينبغى لمن علم أن ينظر الى نفسه بتقصير ما قصر فيه ليسلم من عجب ما أدرك منه . وقد قيل فى منثور الحكم اذا علمت فلا تفكر فى كثرة من دونك من الجهال ولكن أنظر الى من فوقك من العلماء وأنشدت لابن العميد

من شاء عيشا هنيئا يستفيد به * فى دينه ثم فى دنياه اقبالا
فلينظرن الى من فوقه أدبا * ولينظرن الى من دونه مالا

وقلما تجد بالعلم معجبا وبما أدركه منه مفتخرا الا من كان فيه مقلا ومقصرا لانه قد يجهل قدره ويحسب أنه نال بالدخول فيه أكثره فاما من كان فيه متوجها ومنه مستكثرا فهو يعلم من بعد غايته والعجز عن ادراك نهايته مايصده عن العجب به . وقد قال الشعبى العلم ثلاثة أشبار فمن نال منه شبرا شمخ بانفه وظن أنه ناله ومن نال الشبر الثانى صغرت اليه نفسه وعلم أنه لم ينله وأما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحد أبدا ومما أنذرك به من حالى أنى صنفت فى البيوع كتابا جمعت فيه مااستطعت من كتب الناس وأجهدت فيه نفسى وكددت فيه خاطرى حتى اذا تهذب واستكمل وكدت أعجب به وتصورت انى أشد الناس اضطلاعا بعلمه حضرنى وأنا فى مجلسى اعرابيان فسألانى عن بيع عقداه فى البادية على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف لواحدة منهن جوابا فاطرقت مفكرا وبحالى وحالهما معتبرا فقالا ماعندك فيما سألناك جواب وأنت زعيم هذه الجماعة فقلت لا فقالا واها لك وانصرفا ثم اتيا من يتقدمه فى العلم كثير من أصحابى فسألاه فاجابهما مسرعا بما أقنعهما وانصرفا عنه راضيين بجوابه حامدين لعلمه فبقيت مرتبكا وبحالهما وحالى معتبرا وانى لعلى ما كنت عليه فى تلك المسائل الى وقتى فكان ذلك زاجر نصيحة ونذير عظة تذلل بهما قياد النفس وانخفض لهما جناح العجب توفيقا منحته ورشدا أوتيته وحق على من ترك العجب بما يحسن أن يدع التكلف لما لا يحسن فقد نهى الناس عنهما واستعاذوا بالله منهما ومن أوضح ذلك بيانا استعاذة الجاحظ فى كتاب البيان حيث يقول اللهم انا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ونعوذ بك من شر السلاطة والهذر كما نعوذ بك من شر العى والحصر ونحن نستعيذ بالله تعالى مثل ما استعاذ فليس لمن تكلف مالا يحسن غاية ينتهى اليها ولا حد يقف عنده ومن كان تكلفه غير محدود فاخلق به أن يضل ويضل . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من سئل فأفتى بغير علم فقد ضل وأضل . وقال بعض الحكماء من العلم أن لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم فحسبك جهلا من عقلك أن تنطق بما لا تفهم ولقد أحسن زرارة ابن زيد حيث يقول

اذا ما انتهى علمى تناهيت عنده * أطال فاملى أو تناهى فاقصرا
ويخبرنى عن غائب المرء فعله * كفى الفعل عما غيب المرء مخبرا

فاذا لم يكن الى الاحاطة بالعلم سبيل فلا عار أن يجهل بعضه واذا لم يكن في جهل بعضه عار لم يقبح به أن يقول لا أعلم فيما ليس يعلم . وروى أن رجلا قال يارسول الله أي البقاع خير وأي البقاع شر فقال لا أدرى حتى أسأل جبريل . وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه وما أبردها على القلب اذا سئل أحدكم فيما لا يعلم أن يقول الله أعلم وان العالم من عرف أن ما يعلم فيما لا يعلم قليل . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما اذا ترك العالم قول لا أدرى أصيبت مقاتله . وقال بعض العلماء هلك من ترك لا أدرى . وقال بعض الحكماء ليس لى من فضيلة العلم الا علمى بانى لست أعلم . وقال بعض البلغاء من قال لا أدرى علم فدرى ومن انتحل ما لا يدرى أهمل فهوى ولا ينبغي للرجل وان صار في طبقة العلماء الافاضل أن يستنكف من تعلم ما ليس عنده ليسلم من التكلف له . وقد قال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام ياصاحب العلم تعلم من العلم ما جهلت وعلم الجهال ما علمت . وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه خمس خذوهن عنى فلو ركبتم الفلك ماوجدتموهن الاعندى ألا لا يرجونّ أحد الا ربه ولا يخافنّ الا ذنبه ولا يستنكف أن يتعلم ما ليس عنده واذا سئل عما لا يعلم فليقل لا أعلم ومنزلة الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما لو كان أحد مكتفيا من العلم لاكتفى منه موسى على نبينا وعليه السلام ولما قال هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . وقيل للخليل بن احمد بم أدركت هذا العلم قال كنت اذا لقيت عالما أخذت منه وأعطيته . وقال بزرجمهر من العلم أن لا تحقر شيأ من العلم ومن العلم تفضيل جميع العلم . وقال المنصور لشريك أنى لك هذا العلم قال لم أرغب عن قليل أستفيده ولم أبخل بكثير أفيده على أن العلم يقتضى ما بقى منه ويستدعى ما تأخر عنه وليس للراغب فيه قناعة ببعضه . وروى عون بن عبد الله عن ابن مسعود رضى الله عنه انه قال منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا أما طالب العلم فانه يزداد من الرحمن قربا ثم قرأ انما يخشى الله من عباده العلماء وأما طالب الدنيا فانه يزداد طغيانا ثم قرأ كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى وليكن مستقلا للفضيلة منه ليزداد منها ومستكثرا للنقيصة فيه لينتهى عنها ولا يقنع من العلم بما أدرك لان القناعة فيه زهد والزهد فيه ترك والترك له جهل . وقد قال بعض الحكماء عليك بالعلم والاكثار منه فان قليله أشبه شئ بقليل الخير وكثيره أشبه شئ بكثيره ولن يعيب الخير الا القلة فاما كثرته فانها أمنية . وقال بعض البلغاء من فضل علمك استقلالك لعلمك ومن كمال عقلك استظهارك على عقلك ولا ينبغي أن يجهل من نفسه مبلغ علمها ولا أن يتجاوز بها قدر حقها ولأن يكون بها مقصرا فيذعن بالانقياد أولى من أن يكون بها مجاوزا فيكف عن الازدياد لان من جهل حال نفسه

كان لغيرها أجهل . وقد قالت عائشة رضى الله عنها يارسول الله متى يعرف الانسان ربه قال اذا عرف نفسه وقد قسم الخليل بن أحمد أحوال الناس فيما علموه أو جهلوه أربعة أقسام متقابلة لا يخلو حال الانسان منها فقال الرجال أربعة رجل يدرى ويدرى أنه يدرى فذلك عالم فاسألوه ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فذلك ناس فذكروه ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى فذلك مسترشد فعلموه ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فذلك جاهل فارفضوه وأنشد أبو القاسم الآمدى

اذا كنت لا تدرى ولم تك بالذى * يسائل من يدرى فكيف اذا تدرى
جهلت ولم تعلم بانك جاهل * فمن لى بأن تدرى بانك لا تدرى
اذا جئت فى كل الامور بغمة * فكن هكذا أرضا يطألك الذى يدرى
ومن أعجب الاشياء أنك لا تدرى * وأنك لا تدرى بانك لا تدرى

وليكن من شيمته العمل بعلمه وحث النفس على أن تأتمر بما يأمر به ولا يكن ممن قال الله تعالى فيهم مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا . وقد قال قتادة فى قوله تعالى وانه لذو علم لما علمناه انه لعامل بما علم . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ويل لجاع القول ويل للمصرين يريد الذين يستمعون القول ولا يعملون به . وروى عبد الله بن وهب عن سفيان أن الخضر على نبينا وعليه السلام قال لموسى عليه السلام يا ابن عمران تعلم العلم لتعمل به ولا تتعلمه لتحدث به فيكون عليك بوره ولغيرك نوره . وقال على ابن أبى طالب انما زهد الناس فى طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم . وقال أبو الدرداء أخوف ما أخاف اذا وقفت بين يدى الله أن يقول قد علمت فماذا عملت وكان يقال خير من القول فاعله وخير من الصواب قائله وخير من العلم حامله . وقيل فى منثور الحكم لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به . وقال بعض العلماء ثمرة العلم أن يعمل به وثمرة العمل أن يؤجر عليه . وقال بعض الصلحاء العلم يهتف بالعمل فان أجابه والا ارتحل . وقال بعض الحكماء خير العلم ما نفع وخير القول ما ردع . وقال بعض الادباء ثمرة العلوم العمل بالمعلوم . وقال بعض البلغاء من تمام العلم استعماله ومن تمام العمل استقلاله فمن استعمل علمه لم يخل من رشاد ومن استقل عمله لم يقصر عن مراد . وقال أبو تمام الطائى

ولم يحمدوا من عالم غير عامل * خلاقا ولا من عامل غير عالم
رأوا طرقات الجد عوجا قطيعة * وأقطع عجز عندهم عجز حازم

لانه لما كان عليه حجة على من أخذ عنه واقتبسه منه حتى يلزمه العمل به والمصير اليه كان عليه أحج وله ألزم لان مرتبة العلم قبل مرتبة القول كما أن مرتبة العلم قبل مرتبة العمل . وقد قال أبو العتاهية رحمه الله

اسمع الى الاحكام تحـ * ـملها الرواة اليك عنكا
واعلم هـديت بانها * حجج تكون عليك منكا

ثم ليجتنب أن يقول مالا يفعل وأن يأمر بما لا يأتمر وأن يسر غير ما يظهر ولا يجعل قول الشاعر هـذا

اعمل بقولي وان قصرت في عملي * ينفعك قولي ولا يضررك تقصيري

عذرا له في تقصيره فيضره وان لم يضر غيره فان اعذار النفس يغريها ويحسن لها مساويها فان من قال مالا يفعل فقد مكر ومن أمر بما لا يأتمر فقد خدع ومن أسر غير ما يظهر فقد نافق . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المكر والخديعة صاحباهما في النار على أن أمره بما لا يأتمر مطرح وانكاره مالا ينكره من نفسه مستقبح بل ربما كان ذلك سببا لاغراء المأمور بترك ما أمره به عنادا وارتكاب ما نهى عنه كيادا . وحكى أن اعرابيا أتى ابن أبي ذئب فسأله عن مسألة طلاق فافتاه بطلاق امرأته فقال انظر حسنا قال نظرت وقد بانت منك فولى الاعرابي وهو يقول

أتيت ابن ذئب أبتغي الفقه عنده * فطلق حتى البت تبت أنامله
اطلق في فتوى ابن ذئب حليلتي * وعند ابن ذئب أهله وحلائله

فظن بجهله أنه لا يلزمه الطلاق بقول من لم يلتزم الطلاق فما ظنك بقول يجب فيه اشتراك الآمر والمأمور كيف يكون مقبولا منه وهو غير عامل به ولا قابل له كلا . وقال احمد بن يوسف

وعامل بالفجور يأمر بالبر كهاد يخوض في الظلم
أو كطبيب قد سقم * وهو يداوي من ذلك السقم
يا واعظ الناس غير متعظ * ثوبك طهر أو لا فلا تلم

(وقال آخر)

عوّد لسانك قلة اللفظ * واحفظ كلامك أيما حفظ
اياك أن تعظ الرجال وقد * أصبحت محتاجا الى الوعظ

وأما الانقطاع عن العلم الى العمل أو الانقطاع عن العمل الى العلم اذا عمل بموجب العلم فقد حكى عن الزهرى فيه ما يغني عن تكلف غيره وهو أنه قال العلم أفضل من العمل به لمن جهل

والعمل أفضل من العلم لمن علم وأما فضل ما بين العلم والعبادة اذا لم يخل بواجب ولم يقصر فى فرض . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يبعث العالم والعابد فيقال للعابد ادخل الجنة ويقال للعالم اتئد حتى تشفع للناس ومن آداب العلماء أن لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون ولا يمتنعوا من افادة ما يعلمون فان البخل به لؤم وظلم والمنع منه حسد واثم وكيف يسوغ لهم البخل بما منحوه جودا من غير بخل وأوتوه عفوا من غير بذل أم كيف يجوز لهم الشح بما أن بذلوه زاد ونمى وان كتموه تناقص ووهى ولو استن بذلك من تقدمهم لما وصل العلم اليهم ولانقرض عنهم بانقراضهم ولصاروا على مرور الايام جهالا وبتقلب الاحوال وتناقصها أرذالا . وقد قال الله تعالى واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تمنعوا العلم أهله فان فى ذلك فساد دينكم والتباس بصائركم ثم قرأ ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من كتم علما يحسنه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار . وروى عن على بن ابى طالب كرم الله وجهه أنه قال ما أخذ الله العهد على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ العهد على أهل العلم أن يعلموا . وقال بعض الحكماء اذا كان من قواعد الحكمة بذل ما ينقصه البذل فاحرى أن يكون من قواعدها بذل ما يزيده البذل . وقال بعض العلماء كما أن الاستفادة نافلة للمتعلم كذلك الافادة فريضة على المعلم . وقد قيل فى منثور الحكم من كتم علما فكأنه جاهله . وقال خالد بن صفوان انى لافرح بافادتى المتعلم أكثر من فرحى باستفادتى من العلم ثم له بالتعليم نفعان أحدهما ما يرجوه من ثواب الله تعالى فقد جعل النبى صلى الله عليه وسلم التعليم صدقة فقال تصدقوا على أخيكم بعلم يرشده ورأى يسدده . وروى ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال تعلموا العلم وعلموا فان أجر العالم والمتعلم سواء قيل وما أجرهما قال مائة مغفرة ومائة درجة فى الجنة والنفع الثانى زيادة العلم واتقان الحفظ فقد قال الخليل بن احمد اجعل تعليمك دراسة لعلمك واجعل مناظرة المتعلم تنبيها على ما ليس عندك . وقال ابن المعتز فى منثور الحكم النار لا ينقصها ما أخذ منها ولكن يخمدها أن لا تجد حطبا كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه فاياك والبخل بما تعلم . وقال بعض العلماء علم علمك وتعلم علم غيرك فاذا أنت قد علمت ما جهلت وحفظت ما علمت واعلم أن المتعلمين ضربان مستدعى وطالب فاما المستدعى الى العلم فهو من استدعاه العالم الى التعليم لما ظهر له من جودة ذكائه وبان له من

قوة خاطره فاذا وافق استدعاء العالم شهوة المتعلم كانت نتيجتهما درك النجباء وظفر السعداء لان العالم باستدعائه متوفر والمتعلم بشهوته وذكائه مستكثر وأما طالب العلم لداع يدعوه وباعث يحدوه فان كان الداعي دينيا وكان المتعلم فطنا ذكيا وجب على العالم أن يكون عليه مقبلا وعلى تعليمه متوفرا لا يخفي عليه مكنونا ولا يطوي عنه مخزونا وان كان بليدا بعيد الفطنة فينبغي أن لا يمنع من اليسير فيحرم ولا يحمل عليه بالكثير فيظلم ولا يجعل بلادته ذريعة لحرمانه فان الشهوة باعثة والصبر مؤثر . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تمنعوا العلم أهله فتظلموا ولا تضعوه في غير أهله فتأثموا . وقال بعض الحكماء لا تمنعوا العلم أحدا فان العلم أمنع لجانبه فاما ان لم يكن الداعي دينيا نظر فيه فان كان مباحا كرجل دعاه الى طلب العلم حب النباهة وطلب الرئاسة فالقول فيه يقارب القول الاول في تعليم من قبل لان العلم يعطفه الى الدين في ثاني الحال وان لم يكن مبتدئا به في أول حال . وقد حكى عن سفيان الثوري أنه قال تعلمنا العلم لغير الله تعالى فأبى أن يكون الا لله . وقال عبد الله بن المبارك طلبنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا وان كان الداعي محظورا كرجل دعاه الى طلب العلم شر كامن ومكر باطن يريد أن يستعملهما في شبه دينيه وحيل فقهيه لا تجد أهل السلامة منهما مخاصا ولا عنهما مدفعا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أهلك أمتي رجلان عالم فاجر وجاهل متعبد . فقيل يا رسول الله أي الناس شر فقال العلماء اذا فسدوا فينبغي للعالم اذا رأى من هذه حاله أن يمنعه من طلبته ويصرفه عن بغيته ولا يعينه على امضاء مكره واكمال شره . فقد روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال واضع العلم في غير أهله كمقلد الخنازير اللؤلؤ والجوهر والذهب . وقال عيسى ابن مريم على نبينا وعليه السلام لا تلقوا الجوهر للخنزير فالعلم أفضل من اللؤلؤ ومن لا يستحقه شر من الخنزير . وحكى أن تلميذا سأل عالما عن بعض العلوم فلم يفده فقيل له لم منعته فقال لكل تربة غرس ولكل بناء أس . وقال بعض البلغاء لكل ثوب لابس ولكل علم قابس . وقال بعض الادباء ارث لروضة توسطها خنزير وابك لعلم حواه شرير وينبغي أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه ما يتحمله بذكائه أو يضعف عنه ببلادته فانه أروح للعالم وانجح للمتعلم . وقد روى ثابت عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا أنا لم أعلم مالم أر فلا علمت ما رأيت . وقال عبد الله ابن الزبير لا عاش بخير من لم ير برأيه مالم ير بعينيه . وقال ابن الرومي

ألمعى يرى باول رأى * آخر الامر من وراء المغيب
لوذعى له فؤاد ذكى * ماله فى ذكائه من ضريب
لا يروى ولا يقلب طرفا * واكف الرجال فى تقليب

واذا كان العالم فى توسم المتعلمين بهذه الصفة وكان بقدر استحقاقهم خبيرا لم يضع له عناء ولم يخب على يديه صاحب وان لم يتوسمهم خفيت عليه أحوالهم ومبلغ استحقاقهم كانوا واياه فى عناء مكد وتعب غير مجد لانه لا يعدم أن يكون فيهم ذكى محتاج الى الزيادة وبليد يكتفى بالقليل فيضجر الذكى ويعجز البليد ومن تردد أصحابه بين عجز وضجر ملوه وملهم . وقد حكى عبد الله بن وهب أن سفيان بن عبد الله قال قال الخضر لموسى عليهما السلام ياطالب العلم ان القائل أقل ملالة من المستمع فلا تمل جلساءك اذا حدثتهم ياموسى واعلم أن قلبك وعاء فانظر ماتحشو فى وعائك . وقال بعض الحكماء خير العلماء من لا يقل ولا يمل . وقال بعض العلماء كل علم كثر على المستمع ولم يطاوعه الفهم ازداد القلب به عمى وانما ينفع سمع الآذان اذا قوى فهم القلوب فى الابدان وربما كان لبعض السلاطين رغبة فى العلم لفضيلة نفسه وكرم طبعه فلا يجعل ذلك ذريعة فى الانبساط عنده والادلال عليه بل يعطيه مايستحقه بسلطانه وعلو يده فان للسلطان حق الطاعة والاعظام وللعالم حق القبول والاكرام ثم لا ينبغى أن يبتدئه الا بعد الاستدعاء ولا يزيده على قدر الاكتفاء فربما أحب بعض العلماء اظهار علمه للسلطان فاكثره فصار ذلك ذريعة الى ملله ومفضيا الى بغضه فان السلطان متقسم الافكار مستوعب الزمان فليس له فى العلم فراغ المنقطعين اليه ولا صبر المنفردين به . وقد حكى الاصمعى رحمه الله قال قال لى الرشيد ياأبا عبد الملك أنت أعلم منا ونحن أعقل منك فلا تعلمنا فى ملا ولا تسرع الى تذكيرنا فى خلا واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال فاذا بلغت من الجواب قدر الاستحقاق فلا تزد الا أن نستدعى ذلك منك وانظر الى ماهو ألطف فى التأديب وأنصف فى التعليم وبلغ باوجز لفظ غاية التقويم وليخرج تعليمه مخرج المذاكرة والمحاضرة لا مخرج التعليم والافادة لان لتأخير التعلم خجلة تقصير يجل السلطان عنها فان ظهر منه خطأ أو زلل فى قول أو عمل لم يجاهره بالرد وعرض باستدراك زلله واصلاح خلله . وحكى أن عبد الملك بن مروان قال للشعبى كم عطاءك قال ألفين قال لحنت قال لما ترك أمير المؤمنين الاعراب كرهت أن أعرب كلامى عليه ثم ليحذر أتباعه فيما يجانب الدين ويضاد الحق موافقة لرأيه ومتابعة لهواه فربما زلت أقدام العلماء فى ذلك رغبة أو رهبة فضلوا وأضلوا مع سوء العاقبة وقبح الآثار . وقد روى الحسن البصرى

رحمه الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزال هذه الامة بخير تحت يد الله وفى كنفه مالم يمال قراؤها أمراءها ولم يزك صلحاؤها فجارها ولم يمار أخيارها أشرارها فاذا فعلوا ذلك رفع عنهم يده ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب وضربهم بالفاقة والفقر وملأ قلوبهم رعبا . ومن آدابهم نزاهة النفس عن شبه المكاسب والقناعة بالميسور عن كد المطالب فان شبه المكتسب اثم وكد الطلب ذل والاجر أجدر به من الاثم والعز أليق به من الذل . وأنشدني بعض أهل الادب لعلى بن العزيز القاضى رحمه الله تعالى

يقولون لى فيك انقباض وانما * رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم * ومن أكرمته عزة النفس اكرما
ولم أقض حق العلم ان كان كلما * بدا طمع صيرته لى سلما
وما كل برق لاح لى يستفزنى * ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
اذا قيل هذا منهل قلت قد أرى * ولكن نفس الحر تحتمل الظما
أنهنهها عن بعض ما لا يشينها * مخافة أقوال العدا فيم أو لما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى * لاخدم من لاقيت لكن لاخدما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة * اذا فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم * ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا * محياه بالاطماع حتى تجهما

على أن العلم عوض من كل لذة ومغن عن كل شهوة ومن كان صادق النية فيه لم يكن له همة فيما يجد بدا منه . وقال بعض البلغاء من تفرد بالعلم لم توحشه خلوة ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوة ومن آنسه قراءة القرآن لم توحشه مفارقة الاخوان . وقال بعض العلماء لا سمير كالعلم ولا ظهير كالحلم . ومن آدابهم أن يقصدوا وجه الله بتعليم من علموا ويطلبوا ثوابه بارشاد من أرشدوا من غير أن يعتاضوا عليه عوضا ولا يلتمسوا عليه رزقا . فقد قال الله تعالى ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا . قال أبو العالية لا تأخذوا عليه أجرا وهو مكتوب عندهم فى الكتاب الاول يا ابن آدم علم مجانا كما علمت مجانا . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أجر المعلم كأجر الصائم القائم وحسب من هذا أجره أن يلتمس أجرا . ومن آدابهم نصح من علموه والرفق بهم وتسهيل السبيل عليهم وبذل المجهود فى رفدهم ومعونتهم فان ذلك أعظم لاجرهم وأسنى لذكرهم وأنشر لعلومهم وأرسخ لمعلومهم . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلى كرم الله وجهه يا على لأن يهدى الله بك رجلا خير مما طلعت عليه

الشمس . ومن آدابهم أن لا يعنفوا متعلما ولا يحقروا ناشئا ولا يستصغروا مبتدئا فان ذلك أدعى اليهم وأعطف عليهم وأحث على الرغبة فيما لديهم . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال علموا ولا تعنفوا فان المعلم خير من المعنف . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال وقروا من تتعلمون منه ووقروا من تعلمونه . ومن آدابهم أن لا يمنعوا طالبا ولا ينفروا راغبا ولا يؤيسوا متعلما لما فى ذلك من قطع الرغبة فيهم والزهد فيما لديهم واستمرار ذلك مفض الى انقراض العلم بانقراضهم . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه قالوا بلى يارسول الله قال من لم يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤيسهم من روح الله ولا يدع القرآن رغبة الى ماسواه ألا لا خير فى عبادة ليس فيها تفقه ولا علم ليس فيه تفهم ولا قراءة ليس فيها تدبر فهذه جملة كافية والله ولى التوفيق

باب أدب الدين

اعلم أن الله سبحانه وتعالى انما كلف الخلق متعبداته وألزمهم مفترضاته وبعث اليهم رسله وشرع لهم دينه لغير حاجة دعته الى تكليفهم ولا ضرورة قادته الى تعبدهم وانما قصد نفعهم تفضلا منه عليهم كما تفضل بما لا يحصى عدا من نعمه بل النعمة فيما تعبدهم به أعظم لان نفع ماسوى المتعبدات مختص بالدنيا العاجلة ونفع المتعبدات يشتمل على نفع الدنيا والآخرة وما جمع نفعى الدنيا والآخرة كان أعظم نعمة وأكثر تفضلا وجعل ما تعبدهم به مأخوذا من عقل متبوع وشرع مسموع فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع والشرع مسموع فيما لا يمنع منه العقل لان الشرع لا يرد بما يمنع منه العقل والعقل لا يتبع فيما يمنع منه الشرع فلذلك توجه التكليف الى من كمل عقله فارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فبلغهم رسالته وألزمهم حجته وبين لهم شريعته وتلا عليهم كتابه فيما أحله وحرمه وأباحه وحظره واستحبه وكرهه وأمر به ونهى عنه وما وعد به من الثواب لمن أطاعه وأوعد به من العقاب لمن عصاه فكان وعده ترغيبا ووعيده ترهيبا لان الرغبة تبعث على الطاعة والرهبة تكف عن المعصية والتكليف يجمع أمرا بطاعة ونهيا عن معصية ولذلك كان التكليف مقرونا بالرغبة والرهبة وكان ماتخلل كتابه من قصص الانبياء السالفة وأخبار القرون الخالية عظة واعتبارا تقوى معهما الرغبة وتزداد بهما الرهبة وكان ذلك من لطفه بنا وتفضله علينا فالحمد لله الذى نعمه لا تحصى وشكره لا يؤدى ثم جعل الى رسوله صلى الله عليه وسلم بيان ما كان مجملا وتفسير

ما كان مشكلا وتحقيق ما كان محتملا ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ومنزلة التفويض اليه . قال الله تعالى وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون ثم جعل الى العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم استنباط ما نبه على معانيه وأشار الى اصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه الى علم المراد به فيمتازوا بذلك عن غيرهم ويختصوا بثواب اجتهادهم قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات وقال الله تعالى وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم فصار الكتاب أصلا والسنة فرعا واستنباط العلماء ايضاحا وكشفا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال القرآن أصل علم الشريعة نصه ودليله والحكمة بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم والامة المجتمعة حجة على من شذ عنها وكان من رأفته بخلقه وتفضله على عباده أن أقدرهم على ما كلفهم ورفع الحرج عنهم فيما تعبدهم ليكونوا مع ما قدأعده لهم ناهضين بفعل الطاعات ومجانبة المعاصى . قال الله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها وقال وما جعل عليكم فى الدين من حرج . وجعل ما كلفهم به ثلاثة أقسام قسما أمرهم باعتقاده وقسما أمرهم بفعله وقسما أمرهم بالكف عنه ليكون اختلاف جهات التكليف أبعث على قبوله وأعون على فعله حكمة منه ولطفا وجعل ما أمرهم باعتقاده قسمين قسما اثباتا وقسما نفيا فأما الاثبات فاثبات توحيده وصفاته واثبات بعثته رسله وتصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به وأما النفى فنفى الصاحبة والولد والحاجة والقبائح أجمع وهذان القسمان أول ما كلفه العاقل وجعل ما أمرهم بفعله ثلاثة أقسام قسما على أبدانهم كالصلاة والصيام وقسما فى أموالهم كالزكاة والكفارة وقسما على أبدانهم وفى أموالهم كالحج والجهاد ليسهل عليهم فعله ويخف عنهم أداؤه نظرا منه تعالى لهم وتفضلا منه عليهم وجعل ما أمرهم بالكف عنه ثلاثة أقسام قسما لاحياء نفوسهم وصلاح أبدانهم كنهيه عن القتل وأكل الخبائث وشرب الخمور المؤدية الى فساد العقل وزواله وقسما لائتلافهم واصلاح ذات بينهم كنهيه عن الغضب والغلبة والظلم والسرف المفضى الى القطيعة والبغضاء وقسما لحفظ أنسابهم وتعظيم محارمهم كنهيه عن الزنا ونكاح ذوات المحارم فكانت نعمته فيما حظره علينا كنعمته فيما أباحه لنا وتفضله فيما كفنا عنه كتفضله فيما أمرنا به فهل يجد العاقل فى رؤيته مساغا أن يقصر فيما أمر به وهو نعمة عليه أو يرى فسحة فى ارتكاب ما نهى عنه وهو تفضل عليه وهل يكون من أنعم عليه بنعمة فأهملها مع شدة فاقته اليها الا مذموما فى العقل مع ما جاء من وعيد الشرع ثم من لطفه بخلقه وتفضله على عباده أن جعل لهم من جنس

كل فريضة نفلا وجعل لهم من الثواب قسطا وندبهم اليه ندبا وجعل لهم بالحسنة عشرا ليضاعف ثواب فاعله ويضع العقاب عن تاركه ومن لطيف حكمته أن جعل لكل عبادة حالين حال كمال وحال جواز وفقا منه بخلقه لما سبق فى علمه أن فيهم العجل المبادر والبطىء المتثاقل ومن لا صبر له على أداء الاكمل ليكون ما أخل به من هيئات عبادته غير قادح فى فرض ولا مانع من أجر فكان ذلك من نعمه علينا وحسن نظره الينا فكان أول ما فرض بعد تصديق نبيه صلى الله عليه وسلم عبادات الابدان وقدمها على ما يتعلق بالاموال لان النفوس على الاموال أشح وبما يتعلق بالابدان أسمح وذلك الصلاة والصيام فقدم الصلاة على الصيام لان الصلاة أسهل فعلا وأيسر عملا وجعلها مشتملة على خضوع له وابتهال اليه فالخضوع له رهبة منه والابتهال اليه رغبة فيه . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم اذا قام أحدكم الى صلاته فانما يناجى ربه فلينظر بم يناجيه . وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه انه كان كلما دخل عليه وقت الصلاة اصفر مرة واحمر أخرى فقيل له فى ذلك فقال أتتنى الامانة التى عرضت على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها ولا أدرى أسىء فيها أم أحسن ثم جعل لها شروطا لازمة من رفع حدث وازالة نجس ليستديم النظافة للقاء ربه والطهارة لاداء فرضه ثم ضمنها تلاوة كتابه المنزل ليتدبر ما فيه من أوامره ونواهيه ويعتبر اعجاز ألفاظه ومعانيه ثم علقها بأوقات راتبة وأزمان مترادفة ليكون ترادف أزمانها وتتابع أوقاتها سببا لاستدامة الخضوع له والابتهال اليه فلا تنقطع الرهبة منه ولا الرغبة فيه واذا لم تنقطع الرغبة والرهبة استدام صلاح الخلق وبحسب قوة الرغبة والرهبة يكون استيفاؤها على الكمال والتقصير فيها عن حال الجواز . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة مكيال فمن وفى وفى له ومن طفف فقد علمتم ما قال الله فى المطففين . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من هانت عليه صلاته كانت على الله تعالى عز وجل أهون . وأنشدت لبعض الفصحاء فى ذلك

أقبل على صلواتك الخمس * كم مصبح وعساه لا يمسى
واستقبل اليوم الجديد بتوبة * تمحو ذنوب صحيفة الامس
فليفعلن بوجهك الغض البلى * فعل الظلام بصورة الشمس

ثم فرض الله تعالى الصيام وقدمه على زكاة الاموال لتعلق الصيام بالابدان وكان فى ايجابه حث على رحمة الفقراء واطعامهم وسد جوعاتهم لما عانوه من شدة المجاعة فى صومهم وقد قيل ليوسف على نبينا وعليه السلام لم تجوع وأنت على خزائن الارض فقال أخاف أن

أشبع فانسى الجائع ثم لما فى الصوم من قهر النفس واذلالها وكسر الشهوة المستولية عليها واشعار النفس ماهى عليه من الحاجة الى يسير الطعام والشراب والمحتاج الى الشئ ذليل به وبهذا احتج الله تعالى على من اتخذ عيسى على نبينا وعليه السلام وأمه إلهين من دونه فقال ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام فجعل حاجتهما الى الطعام نقصا فيهما عن أن يكونا إلهين وقد وصف الحسن البصري رحمه الله تعالى فى قصصه نقص الانسان بالطعام وغيره فقال مسكين ابن آدم محتوم الاجل مكتوم الامل مستور العلل يتكلم بلحم وينظر بشحم ويسمع بعظم أسير جوعه صريع شبعه تؤذيه البقه وتنتنه العرقه وتقتله الشرقه لايملك لنفسه ضرا ولانفعا ولاموتا ولاحياة ولانشورا فانظر الى لطفه بنا فيما أوجبه من الصيام علينا كيف أيقظ العقول له وقد كانت عنه غافلة أو متغافلة ونفع النفوس به ولم تكن لولاه منتفعة ولانافعة ثم فرض زكاة الاموال وقدمها على فرض الحج لان فى الحج مع انفاق المال سفرا شاقا فكانت النفس الى الزكاة أسرع اجابة منها الى الحج فكان فى ايجابها مواساة للفقراء ومعونة لذوى الحاجات تكفهم من البغضاء وتمنعهم من التقاطع وتبعثهم على التواصل لان الآمل وصول والراجى هائب واذا زال الامل وانقطع الرجاء واشتدت الحاجة وقعت البغضاء واشتد الحسد فحدث التقاطع بين أرباب الاموال والفقراء ووقعت العداوة بين ذوى الحاجات والاغنياء حتى تفضى الى التغالب على الاموال والتغرير بالنفوس هذا مع مافى أداء الزكاة من تمرين النفس على السماحة المحمودة ومجانبة الشح المذموم لان السماحة تبعث على أداء الحقوق والشح يصد عنها وما يبعث على اداء الحقوق فأجدر به حمدا وماصد عنها فأخلق به ذما . وقد روى أبوهريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال شر ما أعطى العبد شح هالع وجبن خالع . فسبحان من دبرنا بلطيف حكمته وأخفى عن فطنتنا جزيل نعمته حتى استوجب من الشكر باخفائها أعظم مما استوجبه بابدائها . ثم فرض الحج فكان آخر فروضه لانه يجمع عملا على بدن وحقا فى مال فجعل فرضه بعد استقرار فروض الابدان وفروض الاموال ليكون استئناسهم بكل واحد من النوعين ذريعة الى تسهيل ما جمع بين النوعين فكان فى ايجابه تذكير ليوم الحشر بمفارقة المال والاهل وخضوع العزيز والذليل فى الوقوف بين يديه واجتماع المطيع والعاصى فى الرهبة منه والرغبة اليه واقلاع أهل المعاصى عما اجترحوه وندم المذنبين على ما أسلفوه فقل من حج الا وأحدث توبة من ذنب واقلاعا من معصية ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم

من علامة الحجة المبرورة أن يكون صاحبها بعدها خيرا منه قبلها وهذا صحيح لان الندم على الذنوب مانع من الاقدام عليها والتوبة مكفرة لما سلف منها فاذا كف عما كان يقدم عليه أنبأ عن صحة توبته وصحة التوبة تقتضى قبول حجته ثم نبهه بما يعانى فيه من مشاق السفر المؤدى اليه على موضع النعمة برفاهة الاقامة وأنسة الاوطان ليحنوا على من سلب هذه النعمة من أبناء السبيل ثم أعلم بمشاهدة حرمه الذى أنشأ منه دينه وبعث فيه رسوله صلى الله عليه وسلم ثم بمشاهدة دار الهجرة التى أعز الله بها أهل طاعته وأذل بنصرة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام أهل معصيته حتى خضع له عظماء المتجبرين وتذلل له زعماء المتكبرين أنه لم ينتشر عن ذلك المكان المنقطع ولا قوى بعد الضعف البين حتى طبق الارض شرقا وغربا الا بمعجزة ظاهرة ونصر عزيز فاعتبر ألهمك الله الشكر ووفقك للتقوى انعامه عليك فيما كلفك واحسانه اليك فيما تعبدك فقد وكلتك الى فطنتك وأحلتك على بصيرتك بعد أن كنت لك رائدا صدوقا وناصحا شفوقا هل تحسن نهوضا بشكره اذا فعلت ما أمرك وتقبلت ما كلفك كلا انه لا يوليك نعمة توجب الشكر الا وصلها قبل شكر ما سلف بنعمة توجب الشكر فى المؤتنف . وقال الحسن بن على رضى الله عنهما نعم الله أكثر من أن تشكر الا ما أعان عليه وذنوب ابن آدم أكثر من أن تغفر الا ما عفى عنه . وأنشدت لمنصور بن اسماعيل الفقيه المصرى رحمه الله تعالى

شكر الاله نعمة * موجبة لشكره
فكيف شكرى بره * وشكره من بره

واذا كنت عن شكر نعمه عاجزا فكيف بك اذا قصرت فيما أمرك أو فرطت فيما كلفك ونفعه أعود عليك لو فعلته هل تكون اسوابغ نعمه الا كفورا وببداية العقول الا مزجورا وقد قال الله تعالى يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها . قال مجاهد أى يعرفون ما عدد الله عليهم من نعمه وينكرونها بقولهم انهم ورثوها عن آبائهم أوا كتسبوها بأفعالهم . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله يا ابن آدم ما أنصفتنى أتحبب اليك بالنعم وتتمقت الىّ بالمعاصى خيرى اليك نازل وشرك الىّ صاعد كم من ملك كريم يصعد الىّ منك بعمل قبيح وقال بعض صلحاء السلف قد أصبح بنا من نعم الله تعالى ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه فلا ندرى أيهما نشكر أجميل ما ينشر أم قبيح ما يستر فحق على من عرف موقع النعمة أن يقبلها ممتثلا لما كلف منها وقبولها يكون بأدائها ثم يشكر الله تعالى على ما أنعم به من اسدائها فان بنا من الحاجة الى نعمه أكثر مما كلفنا من شكر نعمه فان نحن أدينا حق النعمة فى التكليف

تفضل باسداء النعمة من غير جهة التكليف فلزمت النعمتان ومن لزمته النعمتان فقد أوتى حظ الدنيا والآخرة وهذا هو السعيد على الاطلاق وان قصرنا فى أداء ما كلفنا من شكره قصر عنا مالا تكليف فيه من نعمه فنفرت النعمتان ومن نفرت عنه النعمتان فقد سلب حظ الدنيا والآخرة فلم يكن له فى الحياة حظ ولا فى الموت راحة وهذا هو الشقى بالاستحقاق وليس يختار الشقوة على السعادة ذو لب صحيح ولا عقل سليم . وقد قال الله تعالى ليس بامانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوأ يجز به . وروى الاعمش عن مسلم قال قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه يارسول الله ما أشد هذه الآية من يعمل سوأ يجز به فقال يا أبا بكر ان المصيبة فى الدنيا جزاء واختلف المفسرون فى تأويل قوله تعالى سنعذبهم مرتين فقال بعضهم أحد العذابين الفضيحة فى الدنيا والثانى عذاب القبر . وقال عبد الرحمن بن يزيد أحد العذابين مصائبهم فى الدنيا فى أموالهم وأولادهم والثانى عذاب الآخرة فى النار وليس وان نال أهل المعاصى لذة من عيش أو أدركوا أمنية من الدنيا كانت عليهم نعمة بل قد يكون ذلك استدراجا ونقمة . وروى ابن لهيعة عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأيت الله تعالى يعطى العباد ما يشاؤن على معاصيهم اياه فانما ذلك استدراج منه لهم ثم تلا فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون . فاما المحرمات التى عنع الشرع منها واستقر التكليف عقلا أو شرعا بالنهى عنها فتنقسم قسمين منها ما تكون النفوس داعية اليها والشهوات باعثة عليها كالسفاح وشرب الخمر فقد زجر الله عنها لقوة الباعث عليها وشدة الميل اليها بنوعين من الزجر أحدهما حد عاجل يرتدع به الجرىء والثانى وعيد آجل يزدجر به التقى ومنها ما تكون النفوس نافرة منها والشهوات مصروفة عنها كأكل الخبائث والمستقذرات وشرب السموم المتلفات فاقتصر الله فى الزجر عنها بالوعيد وحده دون الحد لان النفوس مسعدة فى الزجر عنها والشهوات مصروفة عنها وعن ركوب المحظور منها ثم أكد الله زواجره بانكار المنكرين لها فأوجب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ليكون الامر بالمعروف تأكيدا لاوامره والنهى عن المنكر تأييدا لزواجره لان النفوس الاشرة قد ألهتها الصبوة عن اتباع الاوامر وأذهلتها الشهوة عن تذكار الزواجر فكان انكار المجانسين أزجر لها وتوبيخ المخالطين أبلغ فيها ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم ما أقر قوم المنكر بين أظهرهم الا عمهم الله بعذاب محتضر . واذا كان ذلك فلا يخلو حال فاعلى المنكر من أمرين أحدهما أن يكونوا آحادا متفرقين وأفرادا متبددين لم يتحزبوا فيه ولم يتظافروا

عليه وهم رعية مقهورون وأشذاذ مستضعفون فلا خلاف بين الناس أن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع المكنة وظهور القدرة واجب على من شاهد ذلك من فاعليه أو سمعه من قائليه وانما اختلفوا فى وجوب ذلك على منكر به هل وجب عليهم بالعقل أو بالشرع فذهب بعض المتكلمين الى وجوب ذلك بالعقل لانه لما وجب بالعقل أن يمنع من القبيح وجب أيضا بالعقل أن يمنع غيره منه لان ذلك أدعى الى مجانبته وأبلغ فى مفارقته وقد روى عبد الله بن المبارك رحمه الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قوما ركبوا سفينة فاقتسموا فأخذ كل واحد منهم موضعا فنقر رجل منهم موضعه بفأس فقالوا ما تصنع فقال هو مكانى أصنع فيه ما شئت فلم يأخذوا على يديه فهلك وهلكوا . وذهب آخرون الى وجوب ذلك بالشرع دون العقل لان العقل لو أوجب النهى عن المنكر ومنع غيره من القبيح لوجب مثله على الله تعالى ولما جاز ورود الشرع باقرار أهل الذمة على الكفر وترك النكير عليهم لان واجبات العقول لا يجوز ابطالها بالشرع وفى ورود الشرع بذلك دليل على أن العقل غير موجب لانكاره فاما اذا كان فى ترك انكاره مضرة لاحقة بمنكره وجب انكاره بالعقل على القولين معا فأما ان لحق المنكر مضرة من انكاره ولم تلحقه من كفه واقراره لم يجب عليه الانكار بالعقل ولا بالشرع أما العقل فلانه يمنع من اجتلاب المضار التى لا يوازيها نفع وأما الشرع فقد روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أنكر المنكر بيدك فان لم تستطع فبلسانك فان لم تستطع فبقلبك وذلك أضعف الايمان فان أراد الاقدام على الانكار مع لحوق المضرة به نظر فان لم يكن اظهار النكير مما يتعلق باعزاز دين الله ولا اظهار كلمة الحق لم يجب عليه النكير اذا خشى بغالب الظن تلفا أو ضررا ولم يخش منه النكير أيضا وان كان فى اظهار النكير اعزاز دين الله تعالى واظهار كلمة الحق حسن منه النكير مع خشية الاضرار والتلف وان لم يجب عليه اذا كان الغرض قد يحصل له بالنكير وان انتصر أو قتل وعلى هذا الوجه قال النبى صلى الله عليه وسلم ان من أفضل الاعمال كلمة حق عند سلطان جائر فاما اذا كان يقتل قبل حصول الغرض قبح فى العقل أن يتعرض لانكاره وكذلك لو كان الانكار يزيد المنهى اغراء بفعل المنكر ولجاجا فى الاكثار منه قبح فى العقل انكاره والحال الثانية أن يكون فعل المنكر من جماعة قد تظافرت عليه وعصبة قد تحزبت ودعت اليه فقد اختلف الناس فى وجوب انكاره على مذاهب شتى فقالت طائفة من أصحاب الحديث وأهل الآثار لا يجب انكاره والاولى بالانسان أن يكون كافا ممسكا وملازما لبيته وادعا غير منكر

ولا مستفز وقالت طائفة أخرى ممن يقول بظهور المنتظر لايجب انكاره ولا التعرض لازالته الا أن يظهر المنتظر فيتولى انكاره بنفسه ويكونوا حينئذ أعوانه وقالت طائفة أخرى منهم الاصم لايجوز للناس انكاره الا أن يجتمعوا على امام عدل فيجب عليهم الانكار معه وقال جمهور المتكلمين انكار ذلك واجب والدفع عنه لازم على شروطه من وجود أعوان يصلحون له فاما مع فقد الاعوان فعلى الانسان الكف لان الواحد قد يقتل قبل بلوغ الغرض وذلك قبيح في العقل أن يتعرض له فهذا حكم ما أكد الله تعالى به أوامره وأيد به زواجره من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يختلف من أحوال الآمرين به والناهين عنه ثم ليس يخلو حال الناس فيما أمروا به ونهوا عنه من فعل الطاعات واجتناب المعاصي من أربعة أحوال فنهم من يستجيب الى فعل الطاعة ويكف عن ارتكاب المعاصي وهي أكمل أحوال أهل الدين وأفضل صفات المتقين فهذا يستحق جزاء العاملين وثواب المطيعين . روى محمد بن عبد الملك المدائني عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذنب لاينسى والبر لايبلى والديان لايموت فكن كما شئت وكما تدين تدان . وقد قيل كل يحصد ما يزرع ويجزى بما يصنع بل قالوا زرع يومك حصاد غدك ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي وهي أخبث أحوال المكلفين وشر صفات المتعبدين فهذا يستحق عذاب اللاهي عن فعل ما أمر به من طاعته وعذاب المجترئ على ما أقدم عليه من معاصيه وقد قال ابن شبرمة عجبت لمن يحتمي من الطيبات مخافة الداء كيف لايحتمي من المعاصي مخافة النار فأخذ ذلك بعض الشعراء فقال

جسمك قد أفنيته بالحمى * دهرا من البارد والحار
وكان أولى بك أن تحتمي * من المعاصي حذر النار

وقال ابن ضبارة انا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله تعالى أهون من الصبر على عذاب الله تعالى وقال آخر اصبروا عباد الله على عمل لاغنى لكم عن ثوابه واصبروا عن عمل لاصبر لكم على عقابه وقيل للفضيل بن عياض رضي الله عنه رضي الله عنك فقال كيف يرضى عني ولم أرضه ومنهم من يستجيب الى فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي فهذا يستحق عذاب المجترى لانه تورط بغلبة الشهوة على الاقدام على المعصية وان سلم من التقصير في فعل الطاعة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أقلعوا عن المعاصي قبل أن يأخذكم الله فيدعكم هتا بتا (الهت الكسر والبت القطع) ولذلك قال بعض العلماء أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه ولم تزل الشبهة يقينه وقال حماد بن زيد عجبت لمن يحتمي من

الاطعمة لمضراتها كيف لايحتمى من الذنوب لمعراتها . وقال بعض الحكماء أهل الذنوب مرضى القلوب . وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله ما أعجب الاشياء فقال قلب عرف الله عز وجل ثم عصاه . وقال بعض الالباء يدل بالطاعة العاصى وينسى عظيم المعاصى . وقال رجل لابن عباس رضى الله عنهما أيما أحب اليك رجل قليل الذنوب قليل العمل أو رجل كثير الذنوب كثير العمل فقال ابن عباس رضى الله عنهما لا أعدل بالسلامة شيأ . وقيل لبعض الزهاد ما تقول فى صلاة الليل فقال خف الله بالنهار ونم بالليل وسمع بعض الزهاد رجلا يقول لقوم أهلككم النوم فقال بل أهلكتكم اليقظة . وقيل لابى هريرة رضى الله عنه ما التقوى فقال أجزت فى أرض فيها شوك فقال نعم فقال كيف كنت تصنع فقال كنت أتوقى قال فتوق الخطايا . وقال عبد الله بن المبارك

أيضمن لى فتى ترك المعاصى * وأرهنه الكفالة بالخلاص
أطاع الله قوم واستراحوا * ولم يتجرعوا غصص المعاصى

ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب المعاصى فهذا يستحق عذاب اللاهى عن دينه المنذر بقلة يقينه . وروى أبو ادريس الخولانى عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال كانت صحف موسى على نبينا وعليه السلام كلها عبرا عجبت لمن أيقن بالنار ثم يضحك وعجبت لمن أيقن بالقدر ثم يتعب وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها باهلها ثم يطمئن اليها وعجبت لمن أيقن بالموت ثم يفرح وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اجتهدوا فى العمل فان قصر بكم ضعف فكفوا عن المعاصى وهذا واضح المعنى لان الكف عن المعاصى ترك وهو أسهل وعمل الطاعات فعل وهو أثقل ولذلك لم يبح الله تعالى ارتكاب المعصية بعذر ولا بغير عذر لانه ترك والترك لا يعجز المعذور عنه وانما أباح ترك الاعمال بالاعذار لان العمل قد يعجز المعذور عنه . وقال بكر بن عبد الله رحم الله أمرأ كان قويا فاعمل قوته فى طاعة الله تعالى أو كان ضعيفا فكف عن معصية الله تعالى . وقال عبد الاعلى بن عبد الله الشامى رحمه الله تعالى

العمر ينقص والذنوب تزيد * وتقال عثرات الفتى فيعود
هل يستطيع جحود ذنب واحد * رجل جوارحه عليه شهود
والمرء يسأل عن سنيه فيشتهى * تقليلها وعن الممات يحيد

واعلم أن لاعمال الطاعات ومجانبة المعاصى آفتين احداهما تكسب الوزر والاخرى توهن الأجر

فاما المكتسبة للوزر فاعجاب بما سلف من عمله وقدّم من طاعته لان الاعجاب به يفضى الى حالتين مذمومتين احداهما أن المعجب بعمله يمتن به والممتن على الله تعالى جاحد لنعمه . قال ابن عباس رضى الله عنهما أوحى الله تعالى الى نبى من أنبيائه أما زهدك فى الدنيا فقد استعجلت به الراحة وأما انقطاعك الىّ فهو عز لك فهذا لك وبقيت أنا والثانية أن المعجب بعمله مدل به والمدل بعمله مجترئ والمجترئ على الله عاص . وقال مورق العجلى خير من العجب بالطاعة أن لا تأتى بطاعة . وقال بعض السلف ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه وباك نادم على ذنبه خير من ضاحك معترف بلهوه . وأما الموهنة للاجر فالثقة بما أسلف والركون الى ماقدّم لان الثقة تؤل الى أمرين أحدهما يحدث اتكالا على مامضى وتقصيرا فيما يستقبل ومن قصر واتكل لم يرج أجرا ولم يؤد شكرا والثانى أن الواثق آمن والآمن من الله تعالى غير خائف . ومن لم يخف الله تعالى هانت عليه أوامره وسهلت عليه زواجره . وقال الفضيل بن عياض رهبة المرء من الله تعالى على قدر علمه بالله تعالى . وقال مورق العجلى لان أبيت نائما وأصبح نادما أحب الىّ من أن أبيت قائما وأصبح ناعما . وقال الحكماء ما بينك وبين أن لا يكون فيك خير الا أن ترى أن فيك خيرا . وقيل لرابعة العدوية رحمها الله هل عملت عملا قط ترين أنه يقبل منك قالت ان كان شئ فخوفى من أن يرد علىّ عملى . وقال ابن السماك رحمة الله عليه انا لله فيما مضى ما أعظم فيه الخطر وانا لله فيما بقى ما أقل منه الحذر . وحكى أن بعض الزهاد وقف على جمع فنادى باعلى صوته يامعشر الاغنياء لكم أقول استكثروا من الحسنات فان ذنوبكم كثيرة . ويامعشر الفقراء لكم أقول أقلوا من الذنوب فان حسناتكم قليلة . فينبغى أحسن الله اليك بالتوفيق أن لا تضيع صحة جسمك وفراغ وقتك بالتقصير فى طاعة ربك والثقة بسالف عملك فاجعل الاجتهاد غنيمة صحتك والعمل فرصة فراغك فليس كل الزمان مستعدا ولا مافات مستدركا وللفراغ زيغ أو ندم وللخلوة ميل أو أسف . وقال عمر بن الخطاب الراحة للرجال غفلة وللنساء غلمة وقال بزرجمهران يكن الشغل مجهدة فالفراغ مفسدة . وقال بعض الحكماء اياكم والخلوات فانها تفسد العقول وتعقد المحلول . وقال بعض البلغاء لاتمض يومك فى غير منفعة ولا تضع مالك فى غير صنعة فالعمر أقصر من أن ينفد فى غير المنافع والمال أقل من أن يصرف فى غير الصنائع والعاقل أجل من أن يفنى أيامه فيما لا يعود عليه نفعه وخيره وينفق أمواله فيما لا يحصل له ثوابه وأجره وأبلغ من ذلك قول عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام البر ثلاثة المنطق والنظر والصمت فمن كان منطقه فى غير ذكر فقد لغا ومن كان نظره فى غير اعتبار

فقد سها ومن كان صمته فى غير فكر فقد لها . واعلم أن للانسان فيما كلف من عباداته ثلاث أحوال احداها أن يستوفيها من غير تقصير فيها ولا زيادة عليها والثانية أن يقصر فيها والثالثة أن يزيد عليها فاما الحال الاولى فهى أن يأتى بها على حال الكمال من غير زيادة فيها ولا زيادة تطوع على راتبتها فهى أوسط الاحوال وأعدلها لانه لم يكن منه تقصير فيذم ولا تكثير فيعجز . وقد روى سعيد بن أبى سعيد رضى الله عنه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال سددوا وقاربوا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة . وقال الشاعر

عليك باوساط الامور فانها * نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

وأما الحال الثانية وهو أن يقصر فيها فلا يخلو حال تقصيره من أربعة أحوال احداهن أن يكون لعذر أعجزه عنه أو مرض أضعفه عن أداء ما كلف به فهذا يخرج عن حكم المقصرين ويلحق بأحوال العاملين لاستقرار الشرع على سقوط مادخل تحت العجز . وقد جاء الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال مامن عامل كان يعمل عملا فيقطعه عنه مرض الاوكل الله تعالى به من يكتب له ثواب عمله . والحال الثانية أن يكون تقصيره فيه اغترارا بالمسامحة فيه ورجاء العفو عنه فهذا مخدوع العقل مغرور بالجهل فقد جعل الظن ذخرا والرجاء عدة فهو كمن قطع سفرا بغير زاد ظنا بانه سيجده فى المفاوز الجدبة فيفضى به الظن الى الهلكة وهلا كان الحذر أغلب عليه وقد ندب الله تعالى اليه . وحكى أن اسرائيل بن محمد القاضى قال لقينى مجنون كان فى الخرابات فقال يا اسرائيل خف الله خوفا يشغلك عن الرجاء فان الرجاء يشغلك عن الخوف وفر الى الله ولا تفر منه . وقيل لمحمد بن واسع رحمه الله ألا تبكى فقال تلك حلية الآمنين . وحكى أن أبا حازم الاعرج أخبر سليمان بن عبد الملك بوعيد الله للمذنبين فقال سليمان أين رحمة الله قال قريب من المحسنين . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ما انتفعت ولا اتعظت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل كتاب كتبه الى على بن أبى طالب كرم الله وجهه أما بعد فان الانسان ليسره درك مالم يكن ليفوته ويسوءه فوت مالم يكن ليدركه فلا تكن بما نلته من دنياك فرحا ولا لما فاتك منها ترحا ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة لطول الامل فكأن قد والسلام . وقال محمود الوراق رحمه الله

أخاف على المحسن المتقى * وأرجو لذى الهفوات المسى

فذلك خوفى على محسن * فكيف على الظالم المعتدى

على أن ذا الزيغ قد يستفيق * ويستأنف الزيغ قلب التقى

والحال الثالثة أن يكون تقصيره فيه ليستوفي ما أخل به من بعد فيبدأ بالسيئة في التقصير قبل الحسنة في الاستيفاء اغترارا بالامل في امهاله ورجاء لتلافي ما أسلف من تقصيره واخلاله فلا ينتهي به الامل الى غاية ولا يفضي به الى نهاية لان الامل هو في ثاني حال كهو في أول حال . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من يؤمل أن يعيش غدا فانه يؤمل أن يعيش أبدا ولعمري ان هذا صحيح لان لكل يوم غدا فاذا يفضي به الامل الى الفوت من غير درك ويؤديه الرجاء الى الاهمال من غير تلاف فيصير الامل خيبة والرجاء اياسا . وقد روى عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أول صلاح هذه الامة بالزهد واليقين وفسادها بالبخل والامل . وقال الحسن البصري رحمه الله ما أطال عبد الامل الا أساء العمل وقال رجل لبعض الزهاد بالبصرة ألك حاجة ببغداد قال ما أحب أن أبسط أملي الى أن تذهب الى بغداد وتجيء . وقال بعض الحكماء الجاهل يعتمد على أمله والعاقل يعتمد على عمله . وقال بعض البلغاء الامل كالسراب غرّ من رآه وخاب من رجاه . وقال محمد بن يزدان دخلت على المأمون وكنت يومئذ وزيره فرأيته قائما وبيده رقعة فقال يا محمد أقرأت ما فيها فقلت هي في يد أمير المؤمنين فرمى بها الىّ فاذا فيها مكتوب

انك في دار لها مدة * يقبل فيها عمل العامل
أما ترى الموت محيطا بها * يقطع فيها أمل الآمل
تعجل بالذنب لما تشتهي * وتأمل التوبة من قابل
والموت يأتي بعد ذا بغتة * ماذاك فعل الحازم العاقل

فلما قرأتها قال المأمون رحمه الله تعالى هذا من أحكم شعر قرأته . وقال أبو حازم الاعرج نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب ونحن لا نتوب حتى نموت . وقال بعض البلغاء زائد الامهال رائد الاهمال والحال الرابعة أن يكون تقصيره فيه استثقالا للاستيفاء وزهدا في التمام واقتصارا على ما سنح وقلة اكتراث بما بقي فهذا على ثلاثة أضرب أحدها أن يكون ما أخل به وقصر فيه غير قادح في فرض ولا مانع من عبادة كمن اقتصر في العبادة على فعل واجباتها وعمل مفترضاتها وأخل بمسنوناتها وهيآتها فهذا مسيء فيما ترك اساءة من لا يستحق وعيدا ولا يستوجب عقابا لان أداء الواجب يسقط عنه العقاب واخلاله بالمسنون يمنع من اكمال الثواب . وقد قال بعض الحكماء من تهاون بالدين هان ومن غالب الحق لان . وقال الشاعر

ويصون ثوبته ويترك غير ذلك لا يصونه
وأحق ما صان الفتى * ورعا أمانته ودينه

والضرب الثانى أن يكون ما أخل به من مفروض عبادته لكن لا يقدح تركه ما بقى فيما مضى كن أكمل عبادات وأخل بغيرها فهذا أسوأ حالا ممن تقدمه لما استحقه من الوعيد واستوجبه من العقاب والضرب الثالث أن يكون ما أخل به من مفروض عبادته وهو قادح فيما عمل منها كالعبادة التى يرتبط بعضها ببعض فيكون المقصر فى بعضها تاركا لجميعها فلا يحتسب له ما عمل لاخلاله بما بقى فهذا أسوأ أحوال المقصرين وحاله لاحقة بأحوال التاركين بل قد تكلف ما لا يسقط فرضا ولا يؤدى حقا فقد ساوى التاركين فى استحقاق الوعيد وزاد عليهم فى تكلف ما لا يفيد فصار من الاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ثم لعله لا يفطن لشأنه ولا يشعر بخسرانه وقد خسر الدنيا والآخرة ويفطن لليسير من ماله ان وهى واختل . وأنشدنى بعض أهل العلم

أبنىّ ان من الرجال بهيمة * فى صورة الرجل السميع المبصر

فطن بكل مصيبة فى ماله * واذا يصاب بدينه لم يشعر

وأما الحال الثالثة وهو أن يزيد فيما كلف فهذا على ثلاثة أقسام أحدها أن تكون الزيادة رياء للناظرين وتصنعا للمخلوقين حتى يستعطف به القلوب النافرة ويخدع به العقول الواهية فيتبهرج بالصلحاء وليس منهم ويتدلس فى الاخيار وهو ضدهم . وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم للمرائى بعمله مثلا فقال المتشبع بما لا يملك كلابس ثوب زور يريد بالمتشبع بما لا يملك المتزين بما ليس فيه وقوله كلابس ثوب زور هو الذى يلبس ثياب الصلحاء فهو برياته محروم الاجر مذموم الذكر لانه لم يقصد وجه الله تعالى فيؤجر عليه ولا يخفى رياءه على الناس فيحمد به قال الله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا قال جميع أهل التأويل معنى قوله ولا يشرك بعبادة ربه أحدا أى لا يرائى بعمله أحدا فجعل الرياء شركا لانه جعل ما يقصد به وجه الله تعالى مقصودا به غير الله تعالى . وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى فى قوله تعالى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قال لا تجهر بها رياء ولا تخافت بها حياء . وكان سفيان بن عيينة رحمه الله يتأول قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى أن العدل استواء السريرة والعلانية فى العمل لله تعالى والاحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته وكان غيره يقول العدل شهادة أن لا اله الا الله والاحسان الصبر على أمره ونهيه وطاعة الله فى سره وجهره وايتاء ذى القربى صلة الارحام وينهى عن الفحشاء يعنى الزنا والمنكر القبائح والبغى

الكبر والظلم وليس يخرج الرياء بالاعمال من هذا التاويل أيضا لانه من جملة القبائح . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أخوف ما أخاف على أمتي الرياء الظاهر والشهوة الخفية . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أشد الناس عذابا يوم القيامة من يرى أن فيه خيرا ولا خير فيه . وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه لا تعمل شيأ من الخير رياء ولا تتركه حياء . وقال بعض العلماء كل حسنة لم يرد بها وجه الله تعالى فعلتها قبح الرياء وثمرتها سوء الجزاء وقد يفضى الرياء بصاحبه الى استهزاء الناس به كما حكى أن طاهر ابن الحسين قال لابى عبد الله المروزى منذ كم صرت الى العراق ياأباعبد الله قال دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائم فقال ياأباعبد الله سألتك عن مسألة فاجبت عن مسألتين . وحكى الاصمعى رحمه الله أن اعرابيا صلى فاطال والى جانبه قوم فقالوا ما أحسن صلاتك فقال وأنا مع ذلك صائم

صلى فأعجبني وصام فرابني * نح القلوص عن المصلى الصائم

فانظر الى هذا الرياء مع قبحه ما أدله على سخف عقل صاحبه وربما ساعد الناس مع ظهور ريائه على الاستهزاء بنفسه كالذى حكى أن زاهدا نظر الى رجل فى وجهه سجادة كبيرة واقفا على باب السلطان فقال مثل هذا الدرهم بين عينيك وأنت واقف ههنا فقال انه ضرب على غير السكة وهذا من أجوبة الخلاعة التى يدفع بها تهجين المذمة ولقد استحسن الناس من الاشعث بن قيس قوله وقد خفف صلاته مرة فقال بعض أهل المسجد خففت صلاتك جدا فقال انه لم يخالطها رياء فتخلص من تنقيصهم بنفى الرياء عن نفسه ورفع التصنع فى صلاته وقد كان الانكار لولا ذلك متوجها عليه واللوم لاحقا به ومر أبو أمامة ببعض المساجد فاذا رجل يصلى وهو يبكى فقال له أنت أنت لو كان هذا فى بيتك فلم يرذلك منه حسنا لانه اتهمه بالرياء ولعله كان بريئا منه فكيف بمن صار الرياء أغلب صفاته وأشهر سماته مع أنه آثم فيما عمل وأثم من هبوب النسيم عاجل ولذلك قال عبد الله بن المبارك أفضل الزهد اخفاء الزهد وربما أحس ذو الفضل من نفسه ميلا الى المراآة فبعثه الفضل على هتك ما نازعته النفس من المراآة فكان ذلك أبلغ فى فضله وقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظى عظنى فقال لا أرضى نفسى لك واعظا لانى أجلس بين الغنى والفقير فاميل على الفقير وأوسع للغنى ولان طاعة الله تعالى فى العمل لوجهه لا لغيره . وحكى أن قوما أرادوا سفرا فحادوا عن الطريق فانتهوا الى راهب فقالوا قد ضللنا فكيف الطريق فقال ههنا وأومأ بيده الى السماء . والقسم الثانى أن يفعل الزيادة اقتداء بغيره وهذا قد تثمره مجالسة الاخيار

الافاضل وتحدثه مكاثرة الاتقياء الاماثل . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل . فاذا كاثرهم المجالس وطاولهم المؤانس أحب أن يقتدى بهم فى أفعالهم ويتأسى بهم فى أعمالهم ولا يرضى لنفسه أن يقصر عنهم ولا أن يكون فى الخير دونهم فتبعثه المنافسة على مساواتهم وربما دعته الحمية الى الزيادة عليهم والمكاثرة لهم فيصيرون سببا لسعادته وباعثا على استزادته والعرب تقول لولا الوئام لهلك الانام أى لولا أن الناس يرى بعضهم بعضا فيقتدى بهم فى الخير لهلكوا . ولذلك قال بعض البلغاء من خير الاختيار صحبة الاخيار ومن شر الاختيار مودة الاشرار وهذا صحيح لان للمصاحبة تأثيرا فى اكتساب الاخلاق فتصلح أخلاق المرء بمصاحبة أهل الصلاح وتفسد بمصاحبة أهل الفساد . ولذلك قال الشاعر

رأيت صلاح المرء يصلح أهله * ويعديهم داء الفساد اذا فسد
يعظم فى الدنيا بفضل صلاحه * ويحفظ بعد الموت فى الاهل والولد

وأنشدنى بعض أهل الادب لابى بكر الخوارزمى

لا تصحب الكسلان فى حالاته * كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد الى الجليد سريعة * والجمر يوضع فى الرماد فيخمد

والقسم الثالث أن يفعل الزيادة ابتداء من نفسه التماسا لثوابها ورغبة فى الزلفة بها فهذا من نتائج النفس الزاكية ودواعى الرغبة الوافية الدالين على خلوص الدين وصحة اليقين وذلك أفضل أحوال العاملين وأعلى منازل العابدين وقد قيل الناس فى الخير أربعة منهم من يفعله ابتداء ومنهم من يفعله اقتداء ومنهم من يتركه استحسانا ومنهم من يتركه حرمانا فمن فعله ابتداء فهو كريم ومن فعله اقتداء فهو حكيم ومن تركه استحسانا فهو ردى ومن تركه حرمانا فهو شقى ثم لما يفعله من الزيادة حالتان احداهما أن يكون مقتصدا فيها وقادرا على الدوام عليها فهى أفضل الحالتين وأعلى المنزلتين عليها انقرض أخيار السلف وتتبعهم فيها فضلاء الخلف . وقد روت عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال أيها الناس افعلوا من الاعمال ما تطيقون فان الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الاعمال ما ديم عليه والعرب تقول القصد والدوام وأنت السابق الجواد ولان من كان صحيح الرغبة فى ثواب الله تعالى لم يكن له مسرة الا فى طاعته . وقال عبد الله بن المبارك قلت لراهب متى عيدكم قال كل يوم لا أعصى الله فيه فهو يوم عيد أنظر الى هذا القول منه وان لم يكن من مقاصد الطاعة ما أبلغه فى حب الطاعة وأحثه على بذل الاستطاعة . وخرج

بعض الزهاد في يوم عيد في هيئة رثة فقيل لم تخرج في مثل هذا اليوم في مثل هذه الهيئة والناس متزينون فقال ما يتزين لله تعالى بمثل طاعته . والحالة الثانية أن يستكثر منها استكثار من لا ينهض بدوامها ولا يقدر على اتصالها فهذا ربما كان بالمقصر أشبه لان الاستكثار من الزيادة اما أن يمنع من أداء اللازم فلا يكون الا تقصيرا لانه تطوع بزيادة أحدثت نقصا وبنفل منع فرضا واما أن يعجز عن استدامة الزيادة ويمنع من ملازمة الاستكثار من غير اخلال بلازم ولا تقصير في فرض فهي اذا قصيرة المدى قليلة اللبث والقليل العمل في طويل الزمان أفضل عند الله عز وجل من كثير العمل في قصير الزمان لان المستكثر من العمل في الزمان القصير قد يعمل زمانا ويترك زمانا فربما صار في زمان تركه لاهيا أو ساهيا والمقلل في الزمان الطويل مستيقظ الافكار مستديم التذكار . وقد روى أبو صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان للاسلام شرة وللشرة فترة فمن سدد وقارب فارجوه ومن أشير اليه بالاصابع فلا تعدوه فجعل للاسلام شرة وهي الايغال في الاكثار وجعل للشرة فترة وهي الاهمال بعد الاستكثار فلم يخل بما أثبت من أن تكون هذه الزيادة تقصيرا أو اخلالا ولا خير في واحد منهما . واعلم جعل الله العلم حاكما لك وعليك والحق قائدا لك واليك ان الدنيا اذا وصلت فتبعات موبقة واذا فارقت ففجعات محرقة وليس لوصلها دوام ولا من فراقها بد فرض نفسك على قطيعتها لتسلم من تبعاتها وعلى فراقها لتأمن فجعاتها فقد قيل المرء مقترض من عمره المنقرض مع أن العمر وان طال قصير والفراغ وان تم يسير وأنشدت لعلي بن محمد رحمه الله تعالى

اذا كملت للمرء ستون حجة * فلم يحظ من ستين الا بسدسها
ألم تر أن النصف بالليل حاصل * وتذهب أوقات المقيل بخمسها
فتأخذ أوقات الهموم بحصة * وأوقات أوجاع تميت بمسها
فحاصل ما يبقى له سدس عمره * اذا صدقته النفس عن علم حدسها

ورياضة نفسك لذلك تترتب على أحوال ثلاث وكل حالة منها تتشعب وهي لتسهيل ما يليها سبب فالحالة الاولى أن تصرف حب الدنيا عن قلبك فانها تلهيك عن آخرتك ولا تجعل سعيك لها فتمنعك حظك منها وتوق الركون اليها ولا تكن آمنا لها . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من أشرب قلبه حب الدنيا وركن اليها التاط منها بشغل لا يفرغ عناه وأمل لا يبلغ منتهاه وحرص لا يدرك مداه . وقال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام الدنيا لابليس

مزرعة وأهلها له حراث . وقال على بن أبى طالب مثل الدنيا مثل الحية لين مسها قاتل سمها فاعرض عما أعجبك منها لقلة ما يصحبك منها وضع عنك همومها لما أيقنت من فراقها وكن أحذر ما تكون لها وأنت آنس ما تكون بها فان صاحبها كلما اطمأن منها الى سرور أشخصه عنها مكروه وان سكن منها الى ايناس أزاله عنها ايحاش . وقال بعض البلغاء الدنيا لا تصفو لشارب ولا تبقى لصاحب ولا تخلو من فتنة ولا تخلى من محنة فأعرض عنها قبل أن تعرض عنك واستبدل بها قبل أن تستبدل بك فان نعيمها يتنقل وأحوالها تتبدل ولذاتها تفنى وتبعاتها تبقى . وقال بعض الحكماء انظر الى الدنيا نظر الزاهد المفارق لها ولا تتأملها تأمل العاشق الوامق بها . وقال بعض الشعراء

ألا انما الدنيا كاحلام نائم * وما خير عيش لا يكون بدائم
تأمل اذا ما نلت بالامس لذة * فافنيتها هل أنت الا كحالم
فكم غافل عنه وليس بغافل * وكم نائم عنه وليس بنائم

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من هوان الدنيا على الله أن لا يعصى الا فيها ولا ينال ما عنده الا بتركها . وروى سفيان أن الخضر قال لموسى عليهما السلام ياموسى اعرض عن الدنيا وانبذها وراءك فانها ليست لك بدار ولا فيها محل قرار وانما جعلت الدنيا للعباد ليتزودوا منها للمعاد . وقال عيسى بن مريم عليه السلام الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وقال على كرم الله وجهه يصف الدنيا أولها عناء وآخرها فناء حلالها حساب وحرامها عقاب من صح فيها أمن ومن مرض فيها ندم ومن استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن ومن ساعاها فاتته ومن قعد عنها أتته ومن نظر اليها أعمته ومن نظر بها بصرته . وقال بعض البلغاء ان الدنيا تقبل اقبال الطالب وتدبر ادبار الهارب وتصل وصال الملول وتفارق فراق العجول فخيرها يسير وعيشها قصير واقبالها خديعة وادبارها فجيعة ولذاتها فانية وتبعاتها باقية فاغتنم غفوة الزمان وانتهز فرصة الامكان وخذ من نفسك لنفسك وتزود من يومك لغدك . وقال وهب بن منبه مثل الدنيا والآخرة مثل ضرتين ان أرضيت احداهما أسخطت الاخرى . وقال عبد الحميد الدنيا منازل فراحل ونازل . وقال بعض الحكماء الدنيا اما نقمة نازلة واما نعمة زائلة . وقيل فى منثور الحكم من الدنيا على الدنيا دليل وقال الشاعر

تمتع من الايام ان كنت حازما * فانك منها بين ناه وآمر
اذا أبقت الدنيا على المرء دينه * فما فاته منها فليس بضائر

فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة * ولا وزن ذر من جناح لطائر
فما رضى الدنيا ثوابا لمؤمن * ولا رضى الدنيا جزاء لكافر

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الدنيا يومان يوم فرح ويوم هم وكلاهما زائل عنك فدعوا ما يزول وأتعبوا نفوسكم في العمل لما لا يزول . وقال عيسى بن مريم عليهما السلام لا تنازعوا أهل الدنيا في دنياهم فينازعوكم في دينكم فلا دنياهم أصبتم ولا دينكم أبقيتم وقال علي بن أبي طالب لا تكن ممن يقول في الدنيا بقول الزاهدين ويعمل فيها عمل الراغبين فان أعطى منها لم يشبع وان منع منها لم يقنع يعجز عن شكر ما أوتي ويبتغي الزيادة فيما بقي وينهى الناس ولا ينتهي ويأمر بما لا يأتي يحب الصالحين ولا يعمل بعملهم ويبغض الظالمين وهو منهم . وقال الحسن البصري الدنيا كلها غم فما كان منها من سرور فهو ربح . وقال بعض العلماء ان الدنيا كثيرة التغيير سريعة التنكير شديدة المكر دائمة الغدر فاقطع أسباب الهوى عن قلبك واجعل أبعد أملك بقية يومك وكن كأنك ترى ثواب أعمالك . وقال بعض الحكماء الدنيا اما مصيبة موجعة واما منية مفجعة . وقال الشاعر

خل دنياك انها * يعقب الخير شرها
هي أم تعق من * نسلها من يبرها
كل نفس فانها * تبتغي ما يسرها
والمنايا تسوقها * والاماني تغرها
فاذا استحلت الجنى * أعقب الحلو مرها
يستوي في ضريحه * عبد أرض وحرها

فاذا رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتضت منها بثلاث خلال احداهن أن تكفى اشفاق المحب وحذر الوامق فليس لمشفق ثقة ولا لحاذر راحة والثانية أن تأمن الاغترار بملاهيها فتسلم من عادية دواهيها فان اللاهي بها مغرور والمغرور فيها مذعور والثالثة أن تستريح من تعب السعي لها ووصب الكد فيها فان من أحب شيأ طلبه ومن طلب شيأ كدّ له والمكدود فيها شقي ان ظفر ومحروم ان خاب . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لكعب يا كعب الناس غاديان فغاد بنفسه فمعتقها ومو بق نفسه فموثقها . وقال عيسى بن مريم عليهما السلام تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون بها الا بعمل . وقال بعض البلغاء من نكد الدنيا أن لا تبقى على حاله ولا تخلو من استحالة تصلح جانبا بافساد جانب وتسر صاحبا بمساءة صاحب فالركون اليها خطر

والثقة بها غرور . وقال بعض الحكماء الدنيا مرتجعة الهبة والدهر حسود لا يأتي على شئ الا غيره ولمن عاش حاجة لا تنقضى ولما بلغ مزيد من الدنيا أفضل ماسمت اليه نفسه نبذها وقال هذا سرور لولا أنه غرور ونعيم لولا أنه عديم وملك لولا أنه هالك وغناء لولا أنه فناء وجسيم لولا أنه ذميم ومحمود لولا أنه مفقود وغنى لولا أنه منى وارتفاع لولا أنه اتضاع وعلاء لولا أنه بلاء وحسن لولا أنه حزن وهو يوم لو وثق له بغد . وقال بعض الحكماء قد ملك الدنيا غير واحد من راغب وزاهد فلا الراغب فيها استبقت ولا عن الزاهد فيها كفت . وقال أبو العتاهية

هى الدار دار الاذى والقذى * ودار الفناء ودار الغير
فلو نلتها بحذافيرها * لمت ولم تقض منها الوطر
أيا من يؤمل طول الخلود * وطول الخلود عليه ضرر
اذا ما كبرت وبان الشباب * فلا خير فى العيش بعد الكبر

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع وقلب لا يخشع وعين لا تدمع هل يتوقع أحدكم الا غنى مطغيا أو فقرا منسيا أو مرضا مفسدا أو هرما مفيدا أو الدجال فهو شر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر . وحكى أن الله تعالى أوحى الى عيسى بن مريم عليه السلام أن هب لى من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع ومن عينك الدموع فانى قريب . وقال عيسى بن مريم عليه السلام أوحى الله الى الدنيا من خدمنى فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه . وقال بعض البلغاء زد من طول أملك فى قصير عملك فان الدنيا ظل الغمام وحلم النيام فمن عرفها ثم طلبها فقد أخطأ الطريق وحرم التوفيق . وقال بعض الحكماء لا يؤمننك اقبال الدنيا عليك من ادبارها عنك ولا من دولة لك من ادالة منك . وقال آخر مامضى من الدنيا كالم يكن ومابقى منها كما قد مضى . وقيل لزاهد قد خلعت الدنيا فكيف سخت نفسك عنها فقال أيقنت أنى أخرج منها كارها فرأيت أن أخرج منها طائعا . وقيل لحرقة بنت النعمان مالك تبكين فقالت رأيت لاهلى غضارة ولم تمتلئ دار فرحا الا امتلأت ترحا . وقال ابن السماك من جرعته الدنيا حلاوتها بميله اليها جرعته الآخرة مرارتها لتجافيه عنها . وقال صاحب كليلة ودمنة طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا وكان عمر بن عبد العزيز يتمثل بهذه الابيات

نهارك يامغرور سهو وغفلة * وليلك نوم والاسى لك لازم

تسر بما يفنى وتفرح بالمنى * كما سر باللذات فى النوم حالم
وشغلك فيما سوف تكره غبه * كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

وسمع رجل رجلا يقول لصاحبه لا أراك الله مكروها فقال كأنك دعوت على صاحبك بالموت ان صاحبك ما صاحب الدنيا فلابد أن يرى مكروها . وقال أبو العتاهية

ان الـزمان ولو يليـ * ـن لاهله لمخاشن
خطـواته المتحركا * ت كأنهن سواكن

والحال الثانية من أحوال رياضتك لها ان تصدق نفسك فيما منحتك من رغائبها وأنالتك من غرائبها فتعلم ان العطية فيها مرتجعة والمنحة فيها مستردة بعد أن تبقى عليك ما احتقبت من أوزار وصولها اليك وخسران خروجها عنك . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تزول قدما ابن آدم حتى يسئل عن ثلاث شبابه فيم أبلاه وعمره فيم أفناه وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه . وروى عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال فى المال ثلاث خصال قالوا وما هن يا روح الله قال يكسبه من غير حله قالوا فان كسبه من حله قال يضعه فى غير حقه قالوا فان وضعه فى حقه قال يشغله عن عبادة ربه . ودخل أبو حازم على بشر بن مروان فقال يا أبا حازم ما المخرج مما نحن فيه قال تنظر ما عندك فلا تضعه الا فى حقه وما ليس عندك فلا تأخذه الا بحقه قال ومن يطيق هذا يا أبا حازم قال فمن أجل ذلك ملئت جهنم من الجنة والناس أجمعين . وعيرت اليهود عيسى بن مريم عليه السلام بالفقر فقال من الغنى دهيتم . ودخل قوم منزل عابد فلم يجدوا شيأ يقعدون عليه فقال لو كانت الدنيا دار مقام لاتخذنا لها أثاثا . وقيل لبعض الزهاد ألا توصى قال بماذا أوصى والله ما لنا شئ ولا لنا عند أحد شئ ولا لاحد عندنا شئ انظر الى هذه لراحة كيف تعجلها والى السلامة كيف صار اليها ولذلك قيل الفقر ملك ليس فيه محاسبة . وقيل لعيسى بن مريم عليهما السلام ألا تتزوج فقال انما يحب التكاثر فى دار البقاء وقيل لو دعوت الله تعالى أن يرزقك حمارا فقال أنا أكرم على الله من أن يجعلنى خادم حمار . وقيل لابى حازم رضى الله عنه ما مالك قال شيئان الرضى عن الله والغنى عن الناس وقيل له انك لمسكين فقال كيف أكون مسكينا ومولاى له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى . وقال بعض الحكماء رب مغبوط بمسرة هى داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه . وقال بعض الادباء الناس أشتات ولكل جمع شتات . وقال بعض البلغاء الزهد بصحة اليقين وصحة اليقين بنور الدين فمن صح يقينه زهد فى الثراء ومن قوى دينه أيقن بالجزاء فلا تغرنك صحة

نفسك وسلامة أمسك فدة العمر قليلة وصحة النفس مستحيلة . وقال بعض الشعراء

رب مغـروس يعاش به * عدمته عين مغترسـه
وكذاك الدهر مأتمـه * أقرب الاشياء من عرسه

فاذا رضت نفسك من هذه الحال بما وصفت اعتضت منها ثلاث خلال احداهن نصح نفسك وقد استسلمت اليك والنظر لها وقد اعتمدت عليك فان غاش نفسه مغبون والمنحرف عنها مأفون والثانية الزهد فيما ليس لك لتكفى تكلف طلبه وتسلم من تبعات كسبه والثالثة انتهاز الفرصة فى مالك أن تضعه فى حقه وأن تؤتيه لمستحقه ليكون لك ذخرا ولا يكون عليك وزرا فقد روى أن رجلا قال يارسول الله انى أكره الموت قال ألك مال قال نعم قال قدم مالك فان قلب المؤمن عند ماله وقالت عائشة رضى الله عنها ذبحنا شاة فتصدقنا بها فقلت يارسول الله مابقى الا كتفها قال كلها بقى الا كتفها . وحكى أن عبد الله بن عبيد الله بن عتبة بن مسعود باع دارا بثمانين ألف درهم فقيل له اتخذ لولدك من هذا المال ذخرا فقال أنا أجعل هذا المال ذخرا لى عند الله عز وجل واجعل الله ذخرا لولدى وتصدق بها وعوتب سهل بن عبد الله المروزى فى كثرة الصدقة فقال لو أن رجلا أراد أن ينتقل من دار الى دار أكان يبقى فى الاولى شيأ . وقال سليمان بن عبد الملك لابى حازم مالنا نكره الموت قال لانكم أخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم أن تنتقلوا من العمران الى الخراب . وقيل لعبد الله بن عمر ترك زيد ابن خارجة مائة ألف درهم فقال لكنها لا تتركه . وقال الحسن البصرى رحمه الله ما أنعم الله على عبد نعمة الا وعليه فيها تبعة الا سليمان بن داود عليه السلام فان الله تعالى قال له هـذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وقال أبو حازم ان عوفينا من شر ما أعطينا لم يضرنا فقد ما زوى عنا . وقال بعض السلف قدموا كلا ليكون لكم ولا تخلفوا كلا فيكون عليكم . وقال ابراهيم نعم القوم السؤال يذقون أبوابكم يقولون أتوجهون للآخرة شيأ . وقال سعيد ابن المسيب مر بى صلة بن أشيم فما تمالكت أن نهضت اليه فقلت يا أبا الصهباء ادع لى فقال رغبك الله فيما يبقى وزهدك فيما يفنى ووهب لك اليقين الذى لا تسكن النفس الا اليـه ولا يعول فى الدين الا عليه ولما ثقل عبد الملك بن مروان رأى غسالا يلوى بيده ثوبا فقال وددت انى كنت غسالا لا أعيش الا بما أكتسبه يوما فيوما فبلغ ذلك أبا حازم فقال الحمد لله الذى جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ولا نتمنى نحن عنده ما هم فيه . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك يا ابن آدم من مالك الا ما أكلت فافنيت أو لبست فابليت أو أعطيت فامضيت . وقال خالد بن صفوان بت ليلتى أتمنى

فكسبت البحر الاخضر والذهب الاحمر فاذا يكفيني من ذلك رغيفان وكوزان وطمران وقال مورق العجلي يا ابن آدم تؤتى كل يوم برزقك وأنت تحزن وينقص عمرك وأنت لاتحزن تطلب ما يطغيك وعندك ما يكفيك . وقال أبو حازم انما بيننا وبين الملوك يوم واحد أما أمس فقد مضى فلا يجدون لذته وانا وهم من غد على وجل وانما هو اليوم فما عسى أن يكون . وقال بعض السلف تعز عن الشيء اذا منعته لقلة ما يصحبك اذا أعطيته . وقال بعض الحكماء من ترك نصيبه من الدنيا استوفى حظه من الآخرة . وقال آخر ترك التلبس بالدنيا قبل التشبث بها أهون من رفضها بعد ملابستها . وقال آخر ليكن طلبك للدنيا اضطرارا وتذكرك في الامور اعتبارا وسعيك لمعادك ابتدارا . وقال آخر الزاهد لا يطلب المفقود حتى يفقد الموجود . وقال آخر من آمن بالآخرة لم يحرص على الدنيا ومن أيقن بالمجازاة لم يؤثر على الحسنى . وقال آخر من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر . وقال أبو العتاهية

أرى الدنيا لمن هي في يديه * عذابا كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر * وتكرم كل من هانت عليه
اذا استغنيت عن شيء فدعه * وخذ ما أنت محتاج اليه

وحكى الاصمعي رحمه الله قال دخلت على الرشيد رحمة الله عليه يوما وهو ينظر في كتاب ودموعه تسيل على خده فلما أبصرني قال أرأيت ما كان مني قلت نعم يا أمير المؤمنين فقال أما انه لو كان لامر الدنيا ما كان هذا ثم رمى الي بالقرطاس فاذا فيه شعر أبي العتاهية رحمه الله تعالى

هل أنت معتبر بمن خربت * منه غداة قضى دساكره
وبمن أذل الدهر مصرعه * فتبرأت منه عساكره
وبمن خلت منه أسرته * وتعطلت منه منابره
أين الملوك وأين عزهم * صاروا مصيرا أنت صائره
يا مؤثر الدنيا للذته * والمستعد لمن يفاخره
نل ما بدا لك أن تنال من الـ * ـدنيا فان الموت آخره

فقال الرشيد رحمة الله عليه والله لكأني أخاطب بهذا الشعر دون الناس فلم يلبث بعد ذلك الا يسيرا حتى مات رحمه الله ثم الحالة الثالثة من أحوال رياضتك لها أن تكشف لنفسك حال أجلك وتصرفها عن غرور أملك حتى لا يطيل لك الامل أجلا قصيرا ولا ينسيك موتا ولا نشورا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في بعض خطبه أيها الناس ان الايام

تطوى والاعمار تفنى والابدان تبلى وان الليل والنهار يتراكضان كتراكض البريد يقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد وفى ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورغب فى الباقيات الصالحات . وقال مسعر كم من مستقبل يوما وليس يستكمله ومنتظر غدا وليس من أجله ولو رأيتم الاجل ومسيره لأبغضتم الامل وغروره . وقال رجل من الانصار للنبى صلى الله عليه وسلم من أكيس الناس قال أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له أولئك الاكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة . وقال عيسى بن مريم عليه السلام كما تنامون كذلك تموتون وكما تستيقظون كذلك تبعثون . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه أيها الناس اتقوا الله الذى ان قلتم سمع وان أضمرتم علم وبادروا الموت الذى ان هربتم أدرككم وان أقمتم أخذكم . وقال العلاء بن المسيب ليس قبل الموت شئ الا والموت أشد منه وليس بعد الموت شئ الا والموت أيسر منه . وقال بعض الحكماء ان للباقى بالماضى معتبرا وللآخر بالاول مزدجرا والسعيد لا يركن الى الخدع ولا يغتر بالطمع . وقال بعض الصلحاء ان بقاءك الى فناء وفناءك الى بقاء فخذ من فنائك الذى لا يبقى لبقائك الذى لا يفنى . وقال بعض العلماء أى عيش يطيب وليس للموت طبيب . وقال بعض البلغاء كل امرئ يجرى من عمره الى غاية تنتهى اليها مدة أجله وتنطوى عليها صحيفة عمله فخذ من نفسك لنفسك وقس يومك بامسك وكف عن سيئاتك وزد فى حسناتك قبل أن تستوفى مدة الاجل وتقصر عن الزيادة فى السعى والعمل . وقيل فى منثور الحكم من لم يتعرض للنوائب تعرضت له . وقال أبو العتاهية

ما للمقابر لا تجيـ * ـب اذا دعاهن الكئيب
حفر مسقفة عليـ * ـهن الجنادل والكثيب
فيهن ولدان وأطـ * ـفال وشبان وشيب
كم من حبيب لم تكن * نفسى بفرقته تطيب
غادرته فى بعضهن مجندلا وهو الحبيب
وسلوت عنه وانما * عهدى برؤيته قريب

ووعظ النبى صلى الله عليه وسلم رجلا فقال أقلل من الدنيا تعش حرا وأقلل من الذنوب يهن عليك الموت وانظر حيث تضع ولدك فان العرق دساس وقال الرشيد لابن السماك رحمهما الله تعالى عظنى وأوجز فقال اعلم انك أول خليفة يموت . وعزى أعرابى رجلا عن ابن صغير له فقال الحمد لله الذى نجاه مما ههنا من الكدر وخلصه مما بين يديه من الخطر . وقال بعض

السلف من عمل للآخرة أحرزها والدنيا ومن آثر الدنيا حرمها والآخرة . وقال بعض الصلحاء استغنم تنفس الاجل وامكان العمل واقطع ذكر المعاذير والعلل فانك في أجل محدود ونفس معدود وعمر غير ممدود . وقال بعض الحكماء الطبيب معذور اذا لم يقدر على دفع المحذور . وقال بعض البلغاء اعمل عمل المرتحل فان حادي الموت يحدوك ليوم ليس يعدوك

وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

غر جهولا أمله * يموت من جا أجله ومن دنا من حتفه * لم تغن عنه حيله
وما بقاء آخر * قد غاب عنه أوله والمرء لا يصحبه * في القبر الا عمله

(وقال أبو العتاهية)

لا تأمن الموت في لحظ ولا نفس * وان تمنعت بالحجاب والحرس
واعلم بان سهام الموت قاصدة * لكل مدرع منها ومترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * ان السفينة لا تجري على اليبس

فاذا رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتضت منها ثلاث خلال احداهن أن تكفى تسويف أمل يرديك وتسويل محال يؤذيك فان تسويف الامل غرار وتسويل المحال ضرار والثانية أن تستيقظ لعمل آخرتك وتغتنم بقية أجلك بخير عملك فان من قصر أمله واستقل أجله حسن عمله والثالثة أن يهون عليك نزول ما ليس عنه محيص ويسهل عليك حلول ما ليس الى دفعه سبيل فان من تحقق أمرا توطأ لحلوله فهان عليه عند نزوله . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لابي ذر نبه بالتفكر قلبك وجاف عن النوم جنبك واتق الله ربك . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابي ذر رضي الله عنه عظني فقال ارض بالقوت وخف من الفوت واجعل صومك الدنيا وفطرك الموت . وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ما رأيت يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من يقين نحن فيه فلئن كنا مقرين إنا لحمقى ولئن كنا جاحدين إنا لهلكى . وقال الحسن البصري رحمة الله عليه نهارك ضيفك فاحسن اليه فانك ان أحسنت اليه ارتحل بحمدك وان أسأت اليه ارتحل بذمك وكذلك ليلك . وقال الجاحظ في كتاب البيان وجد مكتوبا في حجر يا ابن آدم لو رأيت يسير ما بقي من أجلك لزهدت في طويل ما ترجو من أملك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك وانما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك وتبرأ منك القريب وانصرف عنك الحبيب . ولما حضر بشر بن منصور الموت فرح فقيل له أتفرح بالموت فقال أتجعلون قدومي على خالق أرجوه كمقامي مع مخلوق أخافه . وقيل لابي

بكر الصديق رضي الله عنه في مرضه الذي مات فيه لو أرسلت الى الطبيب فقال قد رآني قالوا فما قال لك قال قال انى فعال لما أريد . وقيل للربيع بن خيثم وقد اعتل ندعو لك بالطبيب قال قد أردت ذلك فذكرت عادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وعلمت أنه كان فيهم الداء والمداوى فهلكوا جميعا . وسئل أنوشروان متى يكون عيش الدنيا ألذ قال اذا كان الذي ينبغي أن يعمله في حياته معمولا . وقال بعض الحكماء من ذكر المنية نسي الامنية . وقال بعض الادباء عن الموت تسل وهو كريشة تسل . وقال بعض البلغاء الامل حجاب الاجل وأنشد بعض أهل الادب ماذكر أنه لعلي رضي الله عنه

فلو كنا اذا متنا تركنا * لكان الموت راحة كل حي
ولكنا اذا متنا بعثنا * ونسئل كلنا عن كل شيء

(وقال بعض الشعراء)

ألا انما الدنيا مقيل لراكب * قضى وطرا من منزل ثم هجرا
فراح ولايدري علام قدومه * ألا كل ماقدمت يبقى موفرا

وروى سعيد بن مسعود رضي الله عنه أن أبا الدرداء رضي الله عنه قال يارسول الله أوصني فقال صلى الله عليه وسلم اكسب طيبا واعمل صالحا واسأل الله تعالى رزق يوم بيوم واعدد نفسك من الموتى . وكتب الربيع بن خيثم الى أخ له قدم جهازك وافرغ من زادك وكن وصي نفسك والسلام . وقال بعض السلف أصاب الدنيا من حذرها وأصابت الدنيا من أمنها . ومر محمد بن راسع رحمة الله عليه بقوم فقيل هؤلاء زهاد فقال ماقدر الدنيا حتى يحمد من زهد فيها . وقال بعض الحكماء السعيد من اعتبر بامسه واستظهر لنفسه والشقي من جمع لغيره وبخل على نفسه . وقال بعض البلغاء لاتبت عن غير وصية وان كنت من جسمك في صحة ومن عمرك في فسحة فان الدهر خائن وكل ماهو كائن كائن . وقال بعض الشعراء

من كان يعلم أن الموت مدركه * والقبر مسكنه والبعث مخرجه
وأنه بين جنات ستبهجه * يوم القيامة أو نار ستنضجه
فكل شئ سوى التقوى به سمج * وما أقام عليه منه أسمجه
ترى الذي اتخذ الدنيا له وطنا * لم يدر أن المنايا سوف تزعجه

وروى جعفر بن محمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في بعض خطبه أيها الناس ان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم وان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم وان المؤمن بين مخافتين أجل قد مضى لايدري ماالله صانع فيه وأجل قد بقي

لايدرى ماالله قاض فيه فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الحياة قبل الموت فان الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة فوالذى نفس محمد بيده مابعد الموت من مستعتب ولابعد الدنيا دار الا الجنة أوالنار . وقال الحسن البصرى رحمة الله عليه أمس أجل واليوم عمل وغدا أمل . فأخذ أبوالعتاهية هذا المعنى فنظمه شعرا

ليس فيما مضى ولافى الذى لم * يأت من لذة لمستحليها
انما أنت طول عمرك ماعمـ * ـرت فى الساعة التى أنت فيها
قنع النفس بالكفاف والا * طلبت منك فوق مايكفيها

وقيل لزاهد مابالك تمشى على العصا ولست بكبير ولا مريض فقال انى أعلم أنى مسافر وأنها دار قلعة وأن العصا من آلة السفر . فأخذه بعض الشعراء فقال

حملت العصا لا الضعف أوجب حملها * على ولا أنى تحنيت من كبر
ولكننى ألزمت نفسى حملها * لاعلمها أنى مقيم على سفر

وقال بعض المتصوفة الدنيا ساعة فاجعلها طاعة . وقال ذوالقرنين عليه السلام رتعنا فى الدنيا جاهلين وعشنا فيها غافلين وأخرجنا منها كارهين . وقال عبد الحميد المرء أسير عمر يسير . وقيل فى بعض المواعظ عجبا لمن يخاف العقاب كيف لايكف عن المعاصى وعجبا لمن يرجو الثواب كيف لايعمل . وقال بعض الحكماء المسيء ميت وان كان فى دار الحياة والمحسن حى وان كان فى دار الاموات وكل بالاثر يومه أو غده . وقال بعض السلف الله المستعان على ألسنة تصف وقلوب تعرف وأعمال تخالف . وقال آخر الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما . وقال آخر اعملوا لآخرتكم فى هذه الايام التى تسير كأنها تطير . وقال آخر الموت قصاراك فخذ من دنياك لاخراك . وقال آخر عباد الله الحذر الحذر فوالله لقد ستر حتى كأنه قد غفر ولقد أمهل حتى كأنه قد أهمل . وقال آخر الايام صحائف أعمالكم فخلدوها أجل أفعالكم . وقيل فى منثور الحكم اقبل نصح المشيب وان عجل وقيل ماطلعت شمس الا وعظت بامس . وقال محمد بن بشير رحمه الله

مضى يومك الادنى شهيدا معدلا * ويومك هذا بالفعال شهيد
فان تك بالامس اقترفت اساءة * فثن باحسان وأنت حميد
ولا ترج فعل الخير منك الى غد * لعل غدا يأتى وأنت فقيد

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال مارأيت مثل الجنة نام طالبها ومارأيت مثل النار نام هاربها . وقال عيسى بن مريم عليهما السلام ألا ان أولياء الله الذين

لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين نظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس الى ظاهرها والى آجل الدنيا حين نظر الناس الى عاجلها فاماتوا منها ماخشوا أن يميت قلوبهم وتركوا منها ماعلموا أنه سيتركهم . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الناس طالبان يطلبان فطالب يطلب الدنيا فارفضوها فى نحره فانه ربما أدرك الذى يطلبه منها فهلك بما أصاب منها وطالب يطلب الآخرة فاذا رأيتم طالبا يطلب الآخرة فنافسوه فيها . ودخل أبو الدرداء رضى الله عنه الشام فقال يا أهل الشام اسمعوا قول أخ ناصح فاجتمعوا عليه فقال مالى أراكم تبنون مالاتسكنون وتجمعون مالاتأكلون ان الذين كانوا قبلكم بنوا مشيدا وأملوا بعيدا وجمعوا كثيرا فاصبح أملهم غرورا وجمعهم ثبورا ومساكنهم قبورا . وقال أبو حازم ان الدنيا غرت أقواما فعملوا فيها بغير الحق ففاجأهم الموت فخلفوا مالهم لمن لايحمدهم وصاروا لمن لايعذرهم وقد خلقنا بعدهم فينبغى أن ننظر الذى كرهناه منهم فنجتنبه والذى غبطناهم به فنستعمله . ومر بعض الزهاد بباب ملك فقال باب جديد وموت عتيد ونزع شديد وسفر بعيد . ومر بعض الزهاد برجل قد اجتمع عليه الناس فقال ماهذا قالوا مسكين سرق منه رجل جبة ومر به آخر فاعطاه جبة فقال صدق الله ان سعيكم لشتى . وقال بعض الحكماء ماأنصف من نفسه من أيقن بالحشر والحساب وزهد فى الاجر والثواب . وقال آخر بطول الامل تقسو القلوب وباخلاص النية تقل الذنوب . وقال آخر اياك والمنى فانها من بضائع النوكى وتثبط عن الآخرة والاولى . وقال آخر قصر أملك فان العمر قصير وأحسن سيرتك فالبر يسير . وقال عبد الله بن المعتز رحمه الله

نسير الى الآجال فى كل ساعة * وأيامنا تطوى وهن مراحل
ولم نر مثل الموت حقا كأنه * اذا ماتخطته الامانىّ باطل
وما أقبح التفريط فى زمن الصبا * فكيف به والشيب فى الرأس شامل
ترحل عن الدنيا بزاد من التقى * فعمرك أيام تعد قلائل

وكان عبد الملك بن مروان يتمثل بهذين البيتين

فاعمل على مهل فانك ميت * واكدح لنفسك أيها الانسان
فكأن ماقد كان لم يك اذ مضى * وكأن ماهو كائن قد كان

ونظر سليمان بن عبد الملك يوما فى المرآة فقال أنا الملك الشاب فقالت له جارية له

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى * غير أن لابقاء للانسان
ليس فيما بدا لنا منك عيب * كان فى الناس غير أنك فانى

وروى عبد العزيز بن عبد الصمد عن أبان عن أنس قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته الجدعاء فقال أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا كتب وكأن الحق فيها على غيرنا وجب وكأن الذين نشيع من الاموات سفر عما قليل الينا راجعون نبوئهم أجداثهم ونأكل تراثهم كأنا مخلدون بعدهم قد نسينا كل واعظة وأمنا كل جائحة طوبى لمن شغله عيبه عن عيب غيره وأنفق من مال كسبه من غير معصية ورحم أهل الذل والسكينه وخالط أهل الفقه والحكمة طوبى لمن أدب نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريرته طوبى لمن عمل بعلم وأنفق من فضل وأمسك من قوله ووسعته السنة ولم يعدها الى بدعة . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال زوروا القبور تذكروا بها الآخرة وغسلوا الموتى فان معالجة الاجساد الخاوية موعظة بليغة . وحفر الربيع بن خيثم فى داره قبرا فكان اذا وجد فى قلبه قسوة جاء فاضطجع فى القبر فمكث فيه ماشاء الله ثم يقول رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ثم يرد على نفسه فيقول قد أرجعتك فجد فمكث كذلك ماشاء الله . وقال أبو محرز الطفاوى كفتك القبور مواعظ الامم السالفة . وقيل لبعض الزهاد ما أبلغ العظات قال النظر الى محلة الاموات فأخذه أبو العتاهية فقال

وعظتك أجداث صمت * ونعتك أزمنة خفت
وتكلمت عن أوجه * تبلى وعن صور سبت
وأرتك قبرك فى الحيا * ة وأنت حى لم تمت
ياشامتا بمنيتى * ان المنية لم تفت
فلربما انقلب الشما * ت فحل بالقوم الشمت

ووجد على قبر مكتوب قهرنا من قهرنا فصرنا للناظرين عبرة . وعلى آخر من أمل البقاء وقد رأى مصارعنا فهو مغرور . وقيل فى منثور الحكم ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه . وقال بعض الحكماء من لم يمت لم يفت . وقال بعض الصلحاء لنا من كل ميت عظة بحاله وعبرة بماله . وقال بعض العلماء من لم يتعظ بموت ولد لم يتعظ بقول أحد . وقال بعض البلغاء ما انقصت ساعة من أمسك الا ببضعة من نفسك فاخذه أبو العتاهية فقال

ان مع الدهر فاعلمن غدا * فانظر بما ينقضى مجىء غده
ما ارتد طرف امرئ بلذته * الا وشئ يموت من جسده

ولما مات الاسكندر قال بعض الحكماء كان الملك أمس أنطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس فاخذ أبو العتاهية هذا المعنى فقال

كفى حزنا بدفنك ثم انى * نفضت تراب قبرك عن يديا

وكانت فى حياتك لى عظات * وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وقال بعض الحكماء لو كان للخطايا ريح لافتضح الناس ولم يتجالسوا فاخذ هذا المعنى أبو العتاهية فقال

أحسن الله بنا ان الخطايا لا تفوح

فاذا المستور منا * بين ثوبيه فضوح

وهذا جميعه مأخوذ من قول النبى صلى الله عليه وسلم لو تكاشفتم ماتدافنتم . وكتب رجل الى أبي العتاهية رحمه الله

يا أبا اسحق انى * واثق منك بودك

فأعنى بابى أنـ * ـت على عيبى برشدك

(فاجابه بقوله)

أطع الله بجهدك * راغبا أو دون جهدك

أعط مولاك الذى تطـ * ـلب من طاعة عبدك

وقال بعض الحكماء من سره بنوه ساءته نفسه فاخذ هذا المعنى أبو العتاهية فقال

ابن ذى الابن كلما زاد منه * مشرع زاد فى فناء أبيه

مابقاء الاب الملح عليه * بدبيب البلا شباب بنيه

وفى معناه ماحكى عن زر بن حبيش انه قال وقد حضرته الوفاه وكان قد عاش مائة وعشرين سنة

اذا الرجال ولدت أولادها * وارتعشت من كبر أجسادها

وجعلت أسقامها تعتادها * تلك زروع قد دنا حصادها

(وكتب رجل الى صالح بن عبد القدوس)

الموت باب وكل الناس داخله * فليت شعرى بعد الباب ماالدار

(فاجابه بقوله)

الدار جنة عدن ان عملت بما * يرضى الاله وان فرطت فالنار

هما محلان ماللناس غيرهما * فانظر لنفسك ماذا أنت مختار

باب ادب الدنيا

اعلم أن الله تعالى لنافذ قدرته وبالغ حكمته خلق الخلق بتدبيره وفطرهم بتقديره فكان من لطيف مادبر وبديع ماقدر أن خلقهم محتاجين وفطرهم عاجزين ليكون بالغنى منفردا وبالقدرة مختصا حتى يشعرنا بقدرته أنه خالق ويعلمنا بغناه أنه رازق فنذعن بطاعته رغبة ورهبة ونقر بنقصنا عجزا وحاجة ثم جعل الانسان أكثر حاجة من جميع الحيوان لان من الحيوان مايستقل بنفسه عن جنسه والانسان مطبوع على الافتقار الى جنسه واستعانته صفة لازمة لطبعه وخلقة قائمة فى جوهره ولذلك قال الله سبحانه وتعالى وخلق الانسان ضعيفا يعنى عن الصبر عما هو اليه مفتقر واحتمال ماهو عنه عاجز ولما كان الانسان أكثر حاجة من جميع الحيوان كان أظهر عجزا لان الحاجة الى الشئ افتقار اليه والمفتقر الى الشئ عاجز عنه . وقال بعض الحكماء المتقدمين (استغناؤك عن الشئ خير من استغنائك به) وانما خص الله تعالى الانسان بكثرة الحاجة وظهور العجز نعمة عليه ولطفا به ليكون ذل الحاجة ومهانة العجز يمنعانه من طغيان الغنى وبغى القدرة لان الطغيان مركوز فى طبعه اذا استغنى والبغى مستول عليه اذا قدر وقد أنبأ الله تعالى بذلك عنه فقال كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى ثم ليكون أقوى الامور شاهدا على نقصه وأوضحها دليلا على عجزه وأنشدنى بعض أهل الادب لابن الرومى رحمه الله

أعيرتنى بالنقص والنقص شامل * ومن ذا الذى يعطى الكمال فيكمل
وأشهد أنى ناقص غير أننى * اذا قيس بى قوم كثير تقللوا
تفاضل هذا الخلق بالفضل والحجا * ففى أيما هذين أنت فتفضل
ولو منح الله الكمال ابن آدم * لخلده والله ماشاء يفعل

ولما خلق الله الانسان ماس الحاجة ظاهر العجز جعل لنيل حاجته أسبابا ولدفع عجزه حيلا دله عليهما بالعقل وأرشده اليهما بالفطنة . قال الله تعالى والذى قدر فهدى . قال مجاهد قدر أحوال خلقه فهدى الى سبيل الخير والشر . وقال ابن مسعود فى قوله تعالى وهديناه النجدين يعنى الطريقين طريق الخير وطريق الشر ثم لما كان العقل دالا على أسباب ماتدعو اليه الحاجة جعل الله تعالى الادراك والظفر موقوفا على ماقسم وقدر كيلا يعتمدوا فى الارزاق على عقولهم وفى العجز على فطنهم لتدوم له الرغبة والرهبة ويظهر منه الغنى والقدرة وربما عزب هذا المعنى على من ساء ظنه بخالقه حتى صار سبيلا لضلاله كما قال الشاعر

سبحان من أنزل الايام منزلها * وصير الناس مرفوضا ومرموقا
فعاقل فطن أعيت مذاهبه * وجاهل خرق تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الالباب حائرة * وصير العاقل النحرير زنديقا

ولو حسن ظن العاقل فى صحة نظره لعلم من علل المصالح ماصار به صديقا لا زنديقا لان من علل المصالح ماهو ظاهر ومنها ماهو غامض ومنها ماهو مغيب حكمة استأثر الله بها . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم حسن الظن بالله من عبادة الله ثم ان الله تعالى جعل أسباب حاجاته وحيل عجزه فى الدنيا التى جعلها دار تكليف وعمل كما جعل الآخرة دار قرار وجزاء فلزم لذلك أن يصرف الانسان الى دنياه حظا من عنايته لانه لا غنى له عن التزود منها لآخرته ولا له بد من سد الخلة فيها عند حاجته وليس فى هذا القول نقض لما ذكرنا قبل من ترك فضولها وزجر النفس عن الرغبة فيها بل الراغب فيها ملوم وطالب فضولها مذموم والرغبة انما تختص بما جاوز قدر الحاجة والفضول انما ينطلق على مازاد على قدر الكفاية . وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب . قال أهل التأويل فاذا فرغت من أمور الدنيا فانصب فى عبادة ربك وليس هذا القول منه ترغيبا لنبيه صلى الله عليه وسلم فيها ولكن ندبه الى أخذ البلغة منها وعلى هذا المعنى قال صلى الله عليه وسلم ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة . وذم رجل الدنيا عند على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال رضى الله عنه الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها . وحكى مقاتل أن ابراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام قال يارب حتى متى أتردد فى طلب الدنيا فقيل له أمسك عن هذا فليس طلب المعاش من طلب الدنيا . وقال سفيان الثورى رحمة الله عليه مكتوب فى التوراة اذا كان فى البيت بر فتعبد واذا لم يكن فاطلب يا ابن آدم حرك يدك يسبب لك رزقك . وقال بعض الحكماء ليس من الرغبة فى الدنيا اكتساب مايصون العرض فيها . وقال بعض الادباء ليس من الحرص اجتلاب ما يقوت البدن . وقال محمود الوراق

لا تتبع الدنيا وأيامها * ذما وان دارت بك الدائره
من شرف الدنيا ومن فضلها * أن بها تستدرك الآخره

فاذا قد لزم بما بيناه النظر فى أمور الدنيا فواجب سبر أحوالها والكشف عن جهة انتظامها واختلالها لنعلم أسباب صلاحها وفسادها ومواد عمرانها وخرابها لتنتفى عن أهلها شبه الحيرة

وتنجلي لهم أسباب الخيرة فيقصدوا الامور من أبوابها ويعتمدوا اصلاح قواعدها وأسبابها . واعلم أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين أولهما ما ينتظم به أمور جملتها والثاني مايصلح به حال كل واحد من أهلها فهما شيئان لا صلاح لاحدهما الا بصاحبه لان من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال أمورها لن يعدم أن يتعدى اليه فسادها ويقدح فيه اختلالها لان منها يستمد ولها يستعد ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام أمورها لم يجد لصلاحها لذة ولا لاستقامتها أثرا لان الانسان دنيا نفسه فليس يرى الصلاح الا اذا صلحت له ولا يجد الفساد الا اذا فسدت عليه لان نفسه أخص وحاله أمس فصار نظره الى ما يخصه مصروفا وفكره على ما يمسه موقوفا واعلم أن الدنيا لم تكن قط لجميع أهلها مسعدة ولا عن كافة ذويها معرضة لان اعراضها عن جميعهم عطب واسعادها لكافتهم فساد لائتلافهم بالاختلاف والتباين واتفاقهم بالمساعدة والتعاون فاذا تساوى حينئذ جميعهم لم يجد أحدهم الى الاستعانة بغيره سبيلا وبهم من الحاجة والعجز ما وصفنا فيذهبوا ضيعة ويهلكوا عجزا وأما اذا تباينوا واختلفوا صاروا مؤتلفين بالمعونة متواصلين بالحاجة لان ذا الحاجة وصول والمحتاج اليه موصول . وقد قال الله تعالى ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم . قال الحسن مختلفين في الرزق فهذا غني وهذا فقير ولذلك خلقهم يعني للاختلاف بالغنى والفقر . وقال الله تعالى والله فضل بعضكم على بعض في الرزق غير أن الدنيا اذا صلحت كان اسعادها موفورا واعراضها ميسورا لأنها اذا منحت هنئت وأودعت واذا استردت رفقت وأبقت واذا فسدت الدنيا كان اسعادها مكرا واعراضها غدرا لانها اذا منحت كدت وأتعبت واذا استردت استأصلت وأجحفت ومع هذا فصلاح الدنيا مصلح لسائر أهلها لوفور أماناتهم وظهور دياناتهم وفسادها مفسد لسائر أهلها لقلة أماناتهم وضعف دياناتهم وقد وجد ذلك في مشاهد الحال تجربة وعرفا كما يقتضيه دليل الحال تعليلا وكشفا فلا شيء أنفع من صلاحها كما لا شيء أضر من فسادها لان ما تقوى به ديانات الناس وتتوفر أماناتهم فلا شيء أحق به نفعا كما أن ما به تضعف دياناتهم وتذهب أماناتهم فلا شيء أجدر به ضررا . وأنشدت لابي بكر بن دريد

الناس مثل زمانهم * قد الحذاء على مثاله
ورجال دهرك مثل دهرك في تقلبه وحاله
وكذا اذا فسد الزما * ن جرى الفساد على رجاله

واذقد بلغ بنا القول الى ذلك فسنبدأ بذكر ما تصلح به الدنيا ثم نتلوه بوصف ما يصلح به حال الانسان فيها . اعلم أن ما به تصلح الدنيا حتى تصير احوالها منتظمة وأمورها ملتئمة ستة أشياء هي قواعدها وان تفرعت وهي دين متبع وسلطان قاهر وعدل شامل وأمن عام وخصب دار وأمل فسيح . فاما القاعدة الاولى وهي الدين المتبع فلانه يصرف النفوس عن شهواتها ويعطف القلوب عن اراداتها حتى يصير قاهرا للسرائر زاجرا للضمائر رقيبا على النفوس في خلواتها نصوحا لها في ملماتها وهذه الامور لا يوصل بغير الدين اليها ولا يصلح الناس الا عليها فكان الدين أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها وأجدى الامور نفعا في انتظامها وسلامتها ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه مذ فطرهم عقلاء من تكليف شرع واعتقاد دين ينقادون لحكمه فلا تختلف بهم الآراء ويستسلمون لامره فلا تتصرف بهم الاهواء وانما اختلف العلماء رضي الله عنهم في العقل والشرع هل جاآ مجيئا واحدا أم سبق العقل ثم تعقبه الشرع فقالت طائفة جاء العقل والشرع معا مجيئا واحدا لم يسبق أحدهما صاحبه . وقالت طائفة أخرى بل سبق العقل ثم تعقبه الشرع لان بكمال العقل يستدل على صحة الشرع . وقد قال الله تعالى أيحسب الانسان أن يترك سدى وذلك لا يوجد منه الا عند كمال عقله فثبت أن الدين من أقوى القواعد في صلاح الدنيا وهو الفرد الاوحد في صلاح الآخرة وما كان به صلاح الدنيا والآخرة فحقيق بالعاقل أن يكون به متمسكا وعليه محافظا . وقال بعض الحكماء الادب أدبان أدب شريعة وأدب سياسة فادب الشريعة ما أدى الفرض وأدب السياسة ما عمر الارض وكلاهما يرجع الى العدل الذي به سلامة السلطان وعمارة البلدان لان من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ومن خرب الارض فقد ظلم غيره . وقال سعيد بن حميد ما صحة أبدا بنافعة حتى يصح الدين والخلق . وأما القاعدة الثانية فهي سلطان قاهر تتألف برهبته الاهواء المختلفة وتجتمع بهيبته القلوب المتفرقة وتنكف بسطوته الايدي المتغالبة وتنقمع من خوفه النفوس المتعادية لان في طباع الناس من حب المغالبة على ما آثروه والقهر لمن عاندوه ما لا ينكفون عنه الا بمانع قوي ورادع ملي . وقد أفصح المتنبي بذلك حيث يقول

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى * حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد * ذا عفة فلعلة لا يظلم

وهذه العلة المانعة من الظلم لا تخلو من أحد أربعة أشياء اما عقل زاجر أو دين حاجز أو سلطان رادع أو عجز صاد فاذا تأملتها لم تجد خامسا يقترن بها ورهبة السلطان أبلغها لان العقل

والدين ربما كانا مضعوفين أو بداعي الهوى مغلوبين فتكون رهبة السلطان أشد زجرا وأقوى ردعا . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان السلطان ظل الله في الارض يأوي اليه كل مظلوم . وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان لله حراسا في السماء وحراسا في الارض فحراسه في السماء الملائكة وحراسه في الارض الذين يقبضون أرزاقهم ويذبون عن الناس . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الامام الجائر خير من الفتنة وكل لاخير فيه وفي بعض الشر خيار . وقال عبد الله بن مسعود السلطان يفسد ومايصلح الله أكثر فان عدل فله الأجر وعليكم الشكر وان جار فعليه الوزر وعليكم الصبر . وقال أبو هريرة رضي الله عنه سبت العجم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى عن ذلك وقال لا تسبوها فانها عمرت بلاد الله تعالى فعاش فيها عباد الله تعالى . وقال بعض البلغاء السلطان في نفسه امام متبوع وفي سيرته دين مشروع فان ظلم لم يعدل أحد في حكم وان عدل لم يجسر أحد على ظلم . وقال بعض الادباء ان أقرب الدعوات من الاجابة دعوة السلطان الصالح وأولى الحسنات بالاجر والثواب أمره ونهيه في وجوه المصالح فهذه آثار السلطان في أحوال الدنيا وما ينتظم به أمورها ثم لما في السلطان من حراسة الدين والذب عنه ودفع الاهواء منه وحراسة التبديل فيه وزجر من شذ عنه بارتداد أو بغى فيه بعناد أو سعى فيه بفساد وهذه أمور ان لم تنحسم عن الدين بسلطان قوي ورعاية وافية أسرع فيه تبديل ذوي الاهواء وتحريف ذوي الآراء فليس دين زال سلطانه الا بدلت أحكامه وطمست أعلامه وكان لكل زعيم فيه بدعة ولكل عصر في وهيه أثر كما أن السلطان ان لم يكن على دين تجتمع به القلوب حتى يرى أهله الطاعة فيه فرضا والتناصر عليه حتما لم يكن للسلطان لبث ولا لايامه صفو وكان سلطان قهر ومفسد دهر ومن هذين الوجهين وجب اقامة امام يكون سلطان الوقت وزعيم الامة ليكون الدين محروسا بسلطانه والسلطان جاريا على سنن الدين وأحكامه . وقد قال عبد الله بن المعتز الملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى واختلف الناس هل وجب ذلك بالعقل أو بالشرع فقالت طائفة وجب بالعقل لانه معلوم من حال العقلاء على اختلافهم الفزع الى زعيم مندوب للنظر في مصالحهم وذهب آخرون الى وجوبه بالشرع لان المقصود بالامام القيام بامور شرعية كاقامة الحدود واستيفاء الحقوق وقد كان يجوز الاستغناء عنها بان لا يرد التعبد بها فبأن يجوز الاستغناء عما لا يراد الا لها أولى وعلى هذا اختلفوا في وجوب بعثة الانبياء فمن قال بوجوب ذلك بالعقل قال بوجوب بعثة الانبياء

ومن قال بوجوب ذلك بالشرع منع وجوب بعثة الانبياء لانه لما كان المقصود ببعثتهم تعريف المصالح الشرعية وكان يجوز من المكلفين أن لا تكون هذه الامور مصلحة لهم لم يجب بعثة الانبياء اليهم فاما اقامة امامين أو ثلاثة فى عصر واحد و بلد واحد فلا يجوز اجماعا فأما فى بلدان شتى وأمصار متباعدة فقد ذهبت طائفة شاذة الى جواز ذلك لان الامام مندوب للمصالح واذا كان اثنان فى بلدين أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما فى يديه وأضبط لما يليه ولانه لما جاز بعثة نبيين فى عصر واحد ولم يؤد ذلك الى ابطال النبوة كانت الامامة أولى ولا يؤدى ذلك الى ابطال الامامة وذهب الجمهور الى أن اقامة امامين فى عصر واحد لا يجوز شرعا لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا بويع أميران فوقتلوا أحدهما وروى فاقتلوا الأخير منهما. وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا وليتم أبا بكر تجدوه قويا فى دين الله عزوجل ضعيفا فى بدنه واذا وليتم عمر تجدوه قويا فى دين الله عزوجل قويا فى بدنه وان وليتم عليا تجدوه هاديا مهديا فبين بظاهر هذا الكلام أن اقامة جميعهم فى عصر واحد لا يصح ولو صح لاشار اليه ولنبه عليه والذى يلزم سلطان الامة من أمورها سبعة أشياء أحدها حفظ الدين من تبديل فيه والحث على العمل به من غير اهمال له والثانى حراسة البيضة والذب عن الامة من عدو فى الدين أو باغى نفس أو مال والثالث عمارة البلدان باعتماد مصالحها وتهذيب سبلها ومسالكها والرابع تقدير ما يتولاه من الاموال بسنن الدين من غير تحريف فى أخذها واعطائها والخامس معاناة المظالم والاحكام بالتسوية بين أهلها واعتماد النصفة فى فصلها والسادس اقامة الحدود على مستحقها من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها والسابع اختيار خلفائه فى الامور أن يكونوا من أهل الكفاية فيها والامانة عليها فاذا فعل من أفضى اليه سلطان الامة ما ذكرنا من هذه الاشياء السبعة كان مؤديا لحق الله تعالى فيهم مستوجبا لطاعتهم ومناصحتهم مستحقا لصدق ميلهم ومحبتهم وان قصر عنها ولم يقم بحقها وواجبها كان بها مؤاخذا وعليها معاقبا ثم هو من الرعية على استبطان معصية ومقت يتربصون الفرص لاظهارها ويتوقعون الدوائر لاعلانها . وقد قال الله تعالى قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا . وفى قوله تعالى عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم تأويلان أحدهما أن العذاب الذى هو من فوقهم أمراء السوء والذى من تحت أرجلهم عبيد السوء وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما والثانى أن العذاب الذى هو من فوقهم الرجم والذى من تحت أرجلهم الخسف وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير وفى قوله تعالى أو يلبسكم شيعا تأويلان أحدهما أنه

الاهواء المختلفة وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما والثانى أنه الفتن والاختلاط وهذا قول مجاهد . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال مامن أمير على عشيرة الا وهو يجىء يوم القيامة مغلولة يداه الى عنقه حتى يكون عدله هو الذى يطلقه أو يوبقه . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وشر أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم وهذا صحيح لانه اذا كان ذا خير أحبهم وأحبوه واذا كان ذا شر أبغضهم وأبغضوه . وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ان الله تعالى اذا أحب عبدا حببه الى خلقه فاعرف منزلتك من الله تعالى بمنزلتك من الناس واعلم أن مالك عند الله مثل مالله عندك فكان هذا موضح المعنى ماذكرنا وأصل هذا أن خشية الله تبعث على طاعته فى خلقه وطاعته فى خلقه تبعث على محبته فلذلك كانت محبتهم دليلا على خيره وخشيته وبغضهم دليلا على شره وقلة مراقبته . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لبعض خلفائه أوصيك أن تخشى الله فى الناس ولا تخشى الناس فى الله . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه انى أخاف الله فيما تقلدت فقال له لست أخاف عليك أن تخاف الله وانما أخاف عليك أن لا تخاف الله وهذا واضح لان الخائف من الله تعالى مأمون الحيف . كالذى روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لابى مريم السلولى وكان هو الذى قتل أخاه زيد بن الخطاب والله انى لا أحبك حتى تحب الارض الدم قال أفيمنعنى ذلك حقا قال لا قال فلاضير انما يأسى على الحب النساء . وروى عبد الرحمن بن محمد قال أصدق طلحة بن عبد الله أم كلثوم بنت أبى بكر مائة ألف درهم وهو أول من أصدق هذا القدر فمر بالمال على عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال ماهذا قالوا اصداق أم كلثوم ابنة أبى بكر فقال أدخلوه بيت المال فاخبر بذلك طلحة وقيل له كلمه فى ذلك فقال ما أنا بفاعل لئن كان عمر يرى له فيه حقا لا يرده لكلامى وان كان لا يرى فيه حقا ليردنه قال فلما أصبح عمر أمر بالمال فدفع الى أم كلثوم . وحكى أن الرشيد حبس أبا العتاهية فكتب على حائط الحبس

أما والله ان الظلم لؤم * ومازال المسىء هو الظلوم
الى ديان يوم الدين نمضى * وعند الله تجتمع الخصوم
ستعلم فى المعاد اذا التقينا * غدا عند المليك من الظلوم

فاخبر الرشيد بذلك فبكى بكاء شديدا ودعا أبا العتاهية فاستحله ووهب له ألف دينار وأطلقه وأما القاعدة الثالثة فهى عدل شامل يدعو الى الالفة ويبعث على الطاعة وتعمر به البلاد وتنمو به الاموال ويكثر معه النسل ويأمن به السلطان فقد قال الهرمزان لعمر حين رآه

وقد نام متبذلا عدلت فامنت فنمت وليس شئ أسرع فى خراب الارض ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور لانه ليس يقف على حد ولا ينتهى الى غاية ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بئس الزاد الى المعاد العدوان على العباد . وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث منجيات وثلاث مهلكات فاما المنجيات فالعدل فى الغضب والرضى وخشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر وأما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه . وحكى أن الاسكندر قال لحكماء الهند وقد رأى قلة الشرائع بها لم صارت سنن بلادكم قليلة قالوا الاعطائنا الحق من أنفسنا ولعدل ملوكنا فينا فقال لهم أيما أفضل العدل أم الشجاعة قالوا اذا استعمل العدل أغنى عن الشجاعة . وقال بعض الحكماء بالعدل والانصاف تكون مدة الائتلاف . وقال بعض البلغاء ان العدل ميزان الله الذى وضعه للخلق ونصبه للحق فلا تخالفه فى ميزانه ولا تعارضه فى سلطانه واستعن على العدل بخلتين قلة الطمع وكثرة الورع فاذا كان العدل من احدى قواعد الدنيا التى لا انتظام لها الا به ولا صلاح فيها الا معه وجب أن يبدأ بعدل الانسان فى نفسه ثم بعدله فى غيره فاما عدله فى نفسه فيكون بحملها على المصالح وكفها عن القبائح ثم بالوقوف فى أحوالها على أعدل الامرين من تجاوز أو تقصير فان التجاوز فيها جور والتقصير فيها ظلم ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم ومن جار عليها فهو على غيره أجور . وقد قال بعض الحكماء من توانى فى نفسه ضاع وأما عدله مع غيره فقد ينقسم حال الانسان مع غيره على ثلاثة أقسام فالقسم الاول عدل الانسان فيمن دونه كالسلطان فى رعيته والرئيس مع صحابته فعدله فيهم يكون بأربعة أشياء باتباع الميسور وحذف المعسور وترك التسلط بالقوة وابتغاء الحق فى السيرة فان اتباع الميسور أدوم وحذف المعسور أسلم وترك التسلط أعطف على المحبة وابتغاء الحق أبعث على النصرة وهذه أمور ان لم تسلم للزعيم المدبر كان الفساد بنظره أكثر والاختلاف بتدبيره أظهر . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أشد الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله فى سلطانه فجار فى حكمه . وقال بعض الحكماء الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم . وقال بعض الادباء ليس للجائر جار ولا تعمر له دار . وقال بعض البلغاء أقرب الاشياء صرعة الظلوم وأنفذ السهام دعوة المظلوم . وقال بعض حكماء الملوك العجب من ملك استفسد رعيته وهو يعلم أن عزه بطاعتهم . وقال أزدشير ابن بابك اذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن طاعته . وعوتب أنوشروان على ترك عقاب المذنبين فقال هم المرضى ونحن الاطباء فاذا لم نداوهم بالعفو فمن لهم . والقسم الثانى

عدل الانسان مع من فوقه كالرعية مع سلطانها والصحابة مع رئيسها فقد يكون بثلاثة أشياء باخلاص الطاعة وبذل النصرة وصدق الولاء فان اخلاص الطاعة أجمع للشمل وبذل النصرة أدفع للوهن وصدق الولاء أنفى لسوء الظن وهذه أمور ان لم تجتمع فى المرء تسلط عليه من كان يدفع عنه واضطر الى اتقاء من كان يتقيه كما قال البحترى

متى أحوجت ذا كرم تخطى * اليك ببعض أخلاق اللئام

وفى استمرار هذا حل نظام جامع وفساد صلاح شامل. وقال ابرويس أطع من فوقك يطعك من دونك . وقال بعض الحكماء الظلم مسلبة النعم والبغى مجلبة النقم . وقال بعض الحكماء ان الله تعالى لا يرضى عن خلقه الا بتأدية حقه وحقه شكر النعمة ونصح الامة وحسن الصنيعة ولزوم الشريعة. والقسم الثالث عدل الانسان مع اكفائه ويكون بثلاثة أشياء بترك الاستطالة ومجانبة الادلال وكف الاذى لان ترك الاستطالة آلف ومجانبة الادلال أعطف وكف الاذى أنصف وهذه أمور إن لم تخلص فى الاكفاء أسرع فيهم تقاطع الاعداء ففسدوا وأفسدوا . وقد روى عن عمر بن عبد العزيز عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أنبئكم بشرار الناس قالوا بلى يارسول الله قال من نزل وحده ومنع رفده وجلد عبده ثم قال أفلا أنبئكم بشر من ذلك قالوا بلى يارسول الله قال من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره ثم قال ألا أنبئكم بشر من ذلك قالوا بلى يارسول الله قال من يبغض الناس ويبغضونه . وروى أن عيسى بن مريم عليهما السلام قام خطيبا فى بنى اسرائيل فقال يا بنى اسرائيل لا تتكلموا بالحكمة عند الجهل فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ولا تكافئوا ظالما فيبطل فضلكم يا بنى اسرائيل الامور ثلاثة أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه وأمر اختلفتم فيه فردوه الى الله تعالى وهذا الحديث جامع لآداب العدل فى الاحوال كلها . وقال بعض الحكماء كل عقل لا يدارى به الكل فليس بعقل تام . وقال بعض الشعراء

مادمت حيا فدار الناس كلهم * فانما أنت فى دار المداراة

من يدر دارى ومن لم يدر سوف يرى * عما قليل نديما للندامات

وقد يتعلق بهذه الطبقات أمور خاصة يكون عدلهم فيها بالتوسط فى حالتى التقصير والسرف لان العدل مأخوذ من الاعتدال فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل . وقد قالت الحكماء الفضائل هيئات متوسطة بين حالتين ناقصتين وأفعال الخير تتوسط بين رذيلتين (فالحكمة) واسطة بين الشر والجهالة (والشجاعة) واسطة بين التهجم والجبن (والعفة) واسطة بين

الشره وضعف الشهوة (والسكينة) واسطة بين السخط وضعف الغضب (والغيرة) واسطة بين الحسد وسوء العادة (والظرف) واسطة بين الخلاعة والفدامة (والتواضع) واسطة بين الكبر ودناءة النفس (والسخاء) واسطة بين التبذير والتقتير (والحلم) واسطة بين افراط الغضب وعدمه (والمودة) واسطة بين الخلابة وحسن الخلق (والحياء) واسطة بين القحة والحصر (والوقار) واسطة بين الهزء والسخافة واذا كان ماخرج عن الاعتدال الى ماليس باعتدال خروجا عن العدل الى ماليس بعدل كان ماخرج عن الاولى الى ماليس بأولى خروجا عن العدل الى ماليس بعدل . وقد قال بعض البلغاء السلطان السوء يخيف البرىء ويصطنع الدنىء والبلد السوء يجمع السفل ويورث العلل والولد السوء يشين السلف ويهدم الشرف والجار السوء يفشى السر ويهتك الستر فجعل هذه الاشياء بخروجها عن الاولى الى ماليس باولى خروجا عن العدل الى ماليس بعدل واستجد فسادا الاوسبب نتيجته الخروج فيه عن حال العدل الى ماليس بعدل ومن حالتى الزيادة والنقصان فاذا لاشئ أنفع من العدل كما أنه لاشئ أضر مما ليس بعدل . وأما القاعدة الرابعة فهى أمن عام تطمئن اليه النفوس وتنتشر فيه الهمم ويسكن فيه البرىء ويأنس به الضعيف فليس لخائف راحة ولا لحاذر طمأنينة . وقد قال بعض الحكماء الامن أهنأ عيش والعدل أقوى جيش لان الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم عن تصرفهم ويكفهم عن أسباب المواد التى بها قوام أودهم وانتظام جملتهم ولئن كان الامن من نتائج العدل والجور من نتائج ماليس بعدل فقد يكون الجور تارة بمقاصد الآدميين الخارجة عن العدل وتارة يكون باسباب حادثة عن غير مقاصد الآدميين فلا تكون خارجة عن حال العدل فمن أجل ذلك لم يكن ماسبق من حال العدل مقنعا عن أن يكون الامن فى انتظام الدنيا قاعدة كالعدل فاذا كان ذلك كذلك فالامن المطلق ماعم والخوف قد يتنوع تارة ويعم فتنوعه بان يكون تارة على النفس وتارة على الاهل وتارة على المال وعمومه أن يستوجب جميع الاحوال ولكل واحد من أنواعه حظ من الوهن ونصيب من الحزن وقد يختلف باختلاف أسبابه ويتفاضل بتباين جهاته ويكون بحسب اختلاف الرغبة فيما خيف عليه فمن أجل ذلك لم يجز أن يصف حال كل واحد من أنواعه بمقدار من الوهن ونصيب من الحزن لاسيما والخائف على الشئ مختص الهم به منصرف الفكر عن غيره فهو يظن أن لاخوف له الا إياه فيغفل عن قدر النعمة بالأمن فيما سواه فصار كالمريض الذى هو بمرضه متشاغل وعما سواه غافل ولعل ماصرف عنه أعظم مما ابتلى به

على انها تعفوا الكلوم وانما * نوكل بالادنى وان جل ما يمضى

وحكى أن رجلا قال لاعرابى حاضر ما أشد وجع الضرس فقال الاعرابى كل داء أشد داء كذلك من عمه الامن كمن استولت عليه العافية فهو لا يعرف قدر النعمة بأمنه حتى يخاف كما لا يعرف المعافى قدر النعمة بعافيته حتى يصاب . وقال بعض الحكماء انما يعرف قدر النعمة بمقاساة ضدها فاخذ ذلك أبو تمام الطائى فقال

والحادثات وان أصابك بؤسها * فهو الذى أنباك كيف نعيمك

فالاولى بالعاقل أن يتذكر عند مرضه وخوفه قدر النعمة فيما سوى ذلك من عافيته وأمنه وما انصرف عنه مما هو أشد من مرضه وخوفه فيستبدل بالشكوى شكرا وبالجزع صبرا فيكون فرحا مسرورا . حكى أن يعقوب قال ليوسف عليهما السلام حين لقيه أى شئ كان خبرك بعدى قال لا تسأل عما فعله بى اخوتى سلنى عما صنعه بى ربى . وقال الشاعر

لا تنس فى الصحة أيام السقم * فان عقبى تارك الحزم ندم

وأما القاعدة الخامسة فهى خصب دار تتسع النفوس به فى الاحوال ويشترك فيه ذو الاكثار والاقلال فيقل فى الناس الحسد وينتفى عنهم تباغض العدم وتتسع النفوس فى التوسع وتكثر المواساة والتواصل وذلك من أقوى الدواعى لصلاح الدنيا وانتظام أحوالها ولان الخصب يؤول الى الغنى والغنى يورث الامانة والسخاء . وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أبى موسى الاشعرى لا تستقضين الا ذا حسب أو مال فان ذا الحسب يخاف العواقب وذا المال لا يرغب فى مال غيره . وقال بعض السلف انى وجدت خير الدنيا والآخرة فى التقى والغنى وشر الدنيا والآخرة فى الفجور والفقر . وقال بعض الشعراء

ولم أر بعد الدين خيرا من الغنى * ولم أر بعد الكفر شرا من الفقر

وبحسب الغنى يكون اقلال البخيل واعطاؤه واكثار الجواد وسخاؤه كما قال دعبل

لئن كنت لا تولى ندى دون إمرة * فلست بمول نائلا آخر الدهر

وأى إناء لم يفض عند ملئه * وأى بخيل لم ينل ساعة الوفر

واذا كان الخصب يحدث من أسباب الصلاح ما وصفت كان الجدب يحدث من أسباب الفساد ما ضادها وكما أن صلاح الخصب عام فكذلك فساد الجدب عام وما عم به الصلاح ان وجد عم به الفساد ان فقد فأحرى أن يكون من قواعد الصلاح ودواعى الاستقامة والخصب يكون من وجهين خصب فى المكاسب وخصب فى المواد فاما خصب المكاسب فقد يتفرع من خصب المواد وهو من نتائج الامن المقترن بها وأما خصب المواد فقد يتفرع عن أسباب

إلهية وهومن نتائج العدل المقترن بها . وأما القاعدة السادسة فهى أمل فسيح يبعث على اقتناء مايقصر العمر عن استيعابه ويبعث على اقتناء ماليس يؤمل فى دركه بحياة أربابه ولولا أن الثانى يرتفق بما أنشأه الاول حتى يصير به مستغنيا لافتقر أهل كل عصر الى انشاء مايحتاجون اليه من منازل السكنى وأراضى الحرث وفى ذلك من الاعواز وتعذر الامكان مالاخفاء به فلذلك ماأرفق الله تعالى خلقه من اتساع الآمال حتى عمر به الدنيا فتم صلاحها وصارت تنتقل بعمرانها الى قرن بعد قرن فيتم الثانى ماأبقاه الاول من عمارتها ويرم الثالث ماأحدثه الثانى من شعثها لتكون أحوالها على الأعصار ملتئمه وأمورها على ممر الدهور منتظمه ولوقصرت الآمال مانجاوز الواحد حاجة يومه ولاتعدى ضرورة وقته ولكانت تنتقل الى من بعده خرابا لايجد فيها بلغة ولايدرك منها حاجة ثم تنتقل الى من بعد بأسوأ من ذلك حالا حتى لاينمى بها نبت ولايمكن فيها لبث . وقدروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الامل رحمة من الله لأمتى ولولاه ماغرس غارس شجرا ولاأرضعت أم ولدا . وقال الشاعر

والنفوس وان كانت على وجل * من المنيـــة آمال تقويها
فالصبر يبسطها والدهر يقبضها * والنفس تنشرها والموت يطويها

وأما حال الامل فى أمر الآخرة فهو من أقوى الاسباب فى الغفلة عنها وقلة الاستعداد لها وقد أفصح لبيد بن ربيعة مع أعرابيته بما تبين به حال الامل فى الأمرين فقال

واكذب النفس اذا حدثتها * ان صدق النفس يزرى بالامل
غير أن لاتكذبنها فى التقى * واجزها بالبر لله الاجـــل

وفرق مابين الآمال والامانى ان الآمال ماتقيدت بأسباب والامانى ماتجردت عنها فهذه القواعد الست التى تصلح بها أحوال الدنيا وتنتظم أمور جملتها فان كملت فيها كمل صلاحها وبعيد أن يكون أمر الدنيا تاما كاملا وأن يكون صلاحها عاما شاملا لانها موضوعة على التغيير والفناء منشأة على التصرم والانقضاء . وسمع بعض الحكماء رجلا يقول قلب الله الدنيا قال فاذا تستوى لانها مقلوبة . وقال بعض الشعراء

ومن عادة الايام أن خطوبها * اذا سر منها جانب ساء جانب
وماأعرف الايام الاذميمـــة * ولاالدهر الاوهو للثار طالب

وبحسب مااختل من قواعدها يكون اختلالها وفسادها

﴿فصـــل﴾ وأما مايصلح به حال الانسان فيها فثلاثة أشياء هى قواعد أمره ونظام حاله وهى نفس مطيعة الى رشدها منتهية عن غيها وألفة جامعة تنعطف القلوب عليها ويندفع

المكروه بها ومادة كافية تسكن نفس الانسان اليها ويستقيم أوده بها . فاما القاعدة الاولى التي هي نفس مطيعة فلانها اذا أطاعته ملكها واذا عصته ملكته ولم يملكها ومن لم يملك نفسه فهو بأن لا يملك غيرها أحرى ومن عصته نفسه كان بمعصية غيرها أولى . وقال بعض الحكماء لا ينبغي للعاقل أن يطلب طاعة غيره ونفسه ممتنعة عليه . وقد قال الشاعر

أتطمع أن يطيعك قلب سعدى * وتزعم أن قلبك قد عصاك

وطاعة نفسه تكون من وجهين أحدهما النصح والثاني انقياد فأما النصح فهو أن ينظر الى الامور بحقائقها فيرى الرشد رشدا ويستحسنه ويرى الغي غيا ويستقبحه وهذا يكون من صدق النفس اذا سلمت من دواعي الهوى ولذلك قيل من تفكر أبصر فأما الانقياد فهو أن تسرع الى الرشد اذا أمرها وتنتهي عن الغي اذا زجرها وهذا يكون من قبول النفس اذا كفيت منازعة الشهوات . قال الله تعالى ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . وللنفس آداب هي تمام طاعتها وكمال مصلحتها وقد أفردنا لها من هذا الكتاب بابا واقتصرنا في هذا الموضع على ماقد اقتضاه الترتيب واستدعاه التقريب . وأما القاعدة الثانية التي هي الالفة الجامعة فلان الانسان مقصود بالاذية محسود بالنعمة فاذا لم يكن آلفا مألوفا تخطفته أيدي حاسديه وتحكمت فيه أهواء أعاديه فلم تسلم له نعمة ولم تصف له مدة فاذا كان آلفا مألوفا انتصر بالالفة على أعاديه وامتنع من حاسديه فسلمت نعمته منهم وصفت مدته عنهم وان كان صفو الزمان غرة وسلمه خطرا . وقد روى ابن جريج عن عطاء رحمهما الله عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس أنفعهم للناس . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله تعالى يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيأ وأن تعتصموا بحبله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الالفة والعرب تقول من قل ذل . وقال قيس بن عاصم

ان القداح اذا اجتمعن فرامها * بالكسر ذو حنق وبطش أيد
عزت فلم تكسر وان هي بددت * فالوهن والتكسير للمتبدد

واذا كانت الالفة بما أثبت تجمع الشمل وتمنع الذل اقتضت الحال ذكر أسبابها وأسباب الالفة خمسة وهي الدين والنسب والمصاهرة والمودة والبر فأما الدين وهو الاول من أسباب الالفة فلأنه يبعث على التناصر ويمنع من التقاطع والتدابر وبمثل ذلك وصى

رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فروى سفيان عن الزهرى عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتقاطعوا ولاتدابروا ولاتحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث . هذا وان كان اجتماعهم فى الدين يقتضيه فهو على وجه التحذير من تذكر ترات الجاهلية وإحن الضلالة فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب أشد تقاطعا وتعاديا وأكثر اختلافا وتماديا حتى ان بنى الاب الواحد كانوا يتفرقون أحزابا فتثير بينهم بالتحزب والافتراق أحقاد الاعداء وإحن البعداء وكانت الانصار أشدهم تقاطعا وتعاديا وكان بين الاوس والخزرج من الاختلاف والتباين أكثر من غيرهم الى أن أسلموا فذهبت إحنهم وانقطعت عداوتهم وصاروا بالاسلام اخوانا متواصلين وبألفة الدين أعوانا متناصرين . قال الله تعالى واذكروا اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا يعنى أعداء فى الجاهلية فألف بين قلوبكم بالاسلام . وقال تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا يعنى حبا وعلى حسب التألف على الدين تكون العداوة فيه اذا اختلف أهله فان الانسان قد يقطع فى الدين من كان به بارا وعليه مشفقا هذا أبو عبيدة بن الجراح وقد كانت له المنزلة العالية فى الفضل والاثر المشهور فى الاسلام قتل أباه يوم بدر وأتى برأسه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم طاعة لله عزوجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم حين بقى على ضلاله وانهمك فى طغيانه فلم تعطفه عليه رحمة ولا كفه عنه شفقة وهو من أبرّ الابناء تغليبا للدين على النسب ولطاعة الله تعالى على طاعة الاب . وفيه أنزل الله لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم . وقد يختلف أهل الدين على مذاهب شتى وآراء مختلفة فيحدث بين المختلفين فيه من العداوة والتباين مثل ما يحدث بين المختلفين فى الاديان وعلة ذلك أن الدين والاجتماع على العقد الواحد فيه لما كان أقوى أسباب الالفة كان الاختلاف فيه من أقوى أسباب الفرقة واذا تكافأ أهل الاديان المختلفة والمذاهب المتباينة ولم يكن أحد الفريقين أعلى يدا وأكثر عددا كانت العداوة بينهم أقوى والاحن فيهم أعظم لانه ينضم الى عداوة الاختلاف تحاسد الاكفاء وتنافس النظراء . وأما النسب وهو الثانى من أسباب الالفة فلأن تعاطف الارحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر والالفة ويمنعان من التخاذل والفرقة أنفة من استعلاء الاباعد على الاقارب وتوقيا من تسلط الغرباء الاجانب . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الرحم اذا تماست تعاطفت ولذلك حفظت العرب أنسابها لما امتنعت عن سلطان يقهرها ويكف الاذى عنها لتكون به متظافرة على من ناواها

متناصرة على من شاقها وعاداها حتى بلغت ألفة الانساب وتناصرها عز القوى الايد وتحكمت فيه تحكم المتسلط المتشطط . وقد أعذر نبي الله لوط عليه السلام نفسه حين عدم عشيرة تنصره فقال لمن بعث اليه لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد يعني عشيرة مانعة . وروى أبو سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رحم الله لوطا لقد كان يأوى الى ركن شديد يعني الله عز وجل . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مابعث الله تعالى من نبي بعده الا في ثروة من قومه . وقال وهب لقد وردت الرسل على لوط وقالوا ان ركنك لشديد . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يترك المرء مفرجا حتى يضمه الى قبيلة يكون فيها . قال الرياشي المفرج الذي لا ينتمي الى قبيلة يكون منها وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الالفة وكف عن الفرقة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من كثر سواد قوم فهو منهم وإذا كان النسب بهذه المنزلة من الالفة فقد تعرض له عوارض تمنع منها وتبعث على الفرقة المنافية لها فاذن قد لزم أن نصف حال الانساب ومايعرض لها من الاسباب فجملة الانساب أنها تنقسم ثلاثة أقسام قسم والدون وقسم مولودون وقسم مناسبون ولكل قسم منهم منزلة من البر والصلة وعارض يطرأ فيبعث على العقوق والقطيعة . فاما الوالدون فهم الآباء والامهات والاجداد والجدات وهم موسومون مع سلامة أحوالهم بخلقين أحدهما لازم بالطبع والثاني حادث باكتساب فأما ما كان لازما بالطبع فهو الحذر والاشفاق وذلك لا ينتقل عن الوالد بحال . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل شيء ثمرة وثمرة القلب الولد وروى عنه أنه قال الولد مبخلة مجهلة مجبنة محزنة فأخبر أن الحذر عليه يكسب هذه الاوصاف ويحدث هذه الاخلاق وقد كره قوم طلب الولد كراهة لهذه الحالة التي لا يقدر على دفعها عن نفسه للزومها طبعا وحدوثها حتما . وقيل ليحيى بن زكريا عليهما السلام ما بالك تكره الولد فقال مالي وللولد ان عاش كدني وان مات هدني . وقيل لعيسى بن مريم عليهما السلام ألا تتزوج فقال انما يحب التكاثر في دار البقاء وأما ما كان حادثا بالاكتساب فهي المحبة التي تنمى مع الاوقات وتتغير مع تغير الحالات . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الولد أنوط يعني أن حبه ملصق بنياط القلب . فان انصرف الوالد عن حب الولد فليس ذلك لبغض منه ولكن لسلوة حدثت من عقوق أو تقصير مع بقاء الحذر والاشفاق الذي لا يزول عنه ولا ينتقل منه . فقد قال محمد بن على رضى الله عنه ان الله تعالى رضي الآباء للابناء فحذرهم فتنتهم ولم يوصهم بهم ولم يرض الابناء للآباء فأوصاهم بهم وان شر الابناء من دعاه التقصير الى العقوق وشر الآباء من دعاه البر الى الافراط والامهات

أكثر اشفاقا وأوفر حبا لما باشرن من الولادة وعاين من التربية فانهن أرق قلوبا وألين نفوسا وبحسب ذلك وجب أن يكون التعطف عليهن أوفر جزاء لفعلهن وكفاء لحقهن وان كان الله تعالى قد أشرك بينهما فى البر وجمع بينهما فى الوصية فقال تعالى ووصينا الانسان بوالديه حسنا . وقد روى ان رجلا أتى الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال انلى أما أنا مطيتها أقعدها على ظهرى ولا أصرف عنها وجهى وأرد اليها كسبى فهل جزيتها قال لا ولا بزفرة واحدة قال ولم قال لانها كانت تخدمك وهى تحب حياتك وأنت تخدمها وتحب موتها . وقال الحسن البصرى حق الوالد أعظم وبر الوالدة ألزم . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أنها كم عن عقوق الامهات ووأد البنات ومنع وهات . وروى خالد بن معدان عن المقدام قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بآبائكم ثم يوصيكم بالاقرب فالاقرب وأما المولودون فهم الاولاد وأولاد الاولاد والعرب تسمى ولد الولد الصفوة وهم مختصون مع سلامة أحوالهم بخلقين أحدهما لازم والآخر منتقل فأما اللازم فهو الانفة للآباء من ضيم أو خمول والانفة فى الابناء فى مقابلة الاشفاق فى الآباء وقد لحظ أبو تمام الطائى هذا المعنى فى شعره فقال

فأصبحت يلقانى الزمان لاجله * باعظام مولود وإشفاق والد

فاما المنتقل فهو الادلال وهو أول حال الولد والادلال فى الابناء فى مقابلة المحبة فى الآباء لان المحبة بالآباء أخص والادلال بالابناء أمس . وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال قلت يارسول الله ما بالنا نرق على أولادنا ولا يرقون علينا قال لانا ولدناهم ولم يلدونا ثم الادلال فى الابناء قد ينتقل مع الكبر الى أحد أمرين إما الى البر والاعظام وإما الى الجفاء والعقوق فان كان الولد رشيدا أو كان الاب برا عطوفا صار الادلال برا وإعظاما . وقد روى الزهرى عن عامر بن شراحيل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لجرير بن عبد الله ان حق الوالد على الولد أن يخشع له عند الغضب ويؤثره على نفسه عند النصب والسغب فان المكافئ ليس بالواصل ولكن الواصل من اذا قطعت رحمه وصلها وان كان الولد غاويا أو كان الوالد جافيا صار الادلال قطيعة وعقوقا . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله امرأ أعان ولده على بره . وبشر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بمولود فقال ريحانة أشمها ثم هو عن قريب ولد بار أو عدو ضار . وقد قيل فى منثور الحكم العقوق ثكل من لم يثكل . وقال بعض الحكماء ابنك ريحانك سبعا وخادمك سبعا ووزيرك سبعا ثم هو صديق أو عدو . وأما المناسبون فهم من عدا الآباء

والابناء ممن يرجع بتعصيب أو رحم والذى يختصون به الحمية الباعثة على النصرة وهى أدنى رتبة الانفة لان الانفة تمنع من التهضم والخمول معا والحمية تمنع من التهضم وليس لها فى كراهة الخمول نصيب الا أن يقترن بها ما يبعث على الانفة وحمية المناسبين انما تدعو الى النصرة على البعداء والاجانب وهى معرضة لحسد الادانى والاقارب موكولة الى منافسة الصاحب بالصاحب فان حرست بالتواصل والتلاطف تأكدت أسبابها واقترن بحمية النسب مصافاة المودة وذلك أوكد أسباب الالفة . وقد قيل لبعض قريش أيما أحب اليك أخوك أو صديقك قال أخى اذا كان صديقا . وقال مسلمة بن عبد الملك العيش فى ثلاث سعة المنزل وكثرة الخدم وموافقة الاهل . وقال بعض الحكماء البعيد قريب بمودته والقريب بعيد بعداوته وان أهملت الحال بين المناسبين ثقة بلحمة النسب واعتمادا على حمية القرابة غلب عليها مقت الحسد أو منازعة التنافس فصارت المناسبة عداوة والقرابة بعدا . وقال الكندى فى بعض رسائله الاب رب والولد كمد والاخ فخ والعم غم والخال وبال والاقارب عقارب . وقال عبد الله بن المعتز

لحومهم لحمى وهم يأكلونه * وما داهيات المرء الا أقاربه

ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بصلة الارحام وأثنى على واصلها فقال تعالى والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب قال المفسرون هى الرحم التى أمر الله بوصلها ويخشون ربهم فى قطعها ويخافون سوء الحساب فى المعاقبة عليها . وروى عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل أنا الرحمن وهى الرحم اشتققت اسمها من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته . وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال صلة الرحم منماة للعدد مثراة للمال محبة فى الاهل منسأة فى الاجل . وقال بعض الحكماء بلوا أرحامكم بالحقوق ولا تجفوها بالعقوق . وقال بعض البلغاء صلوا أرحامكم فانها لا تبلى عليها أصولكم ولا تهضم عليها فروعكم . وقال بعض الادباء من لم يصلح لاهله لم يصلح لك ومن لم يذب عنهم لم يذب عنك . وقال بعض الفصحاء من وصل رحمه وصله الله ورحمه ومن أجار جاره أعانه الله وأجاره . وقال محمد بن عبد الله الازدى

وحسبك من ذل وسوء صنيعة * مناواة ذى القربى وان قيل قاطع
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه * لترجعه يوما الى الرواجع
ولا يستوى فى الحكم عبدان واصل * وعبد لأرحام القرابة قاطع

وأما المصاهرة وهى الثالث من أسباب الالفة فلانها استحداث مواصلة وتمازج مناسبة صدرا عن رغبة واختيار وانعقدا عن خبرة وايثار فاجتمع فيها أسباب الالفة ومواد المظاهرة. قال الله تعالى ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة يعني بالمودة المحبة وبالرحمة الحنو والشفقة وهما من أوكد أسباب الالفة وفيها تأويل آخر قاله الحسن البصرى رحمه الله ان المودة النكاح والرحمة الولد. وقال تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة اختلف المفسرون فى الحفدة فقال عبد الله بن مسعود هم أختان الرجل على بناته وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما هم ولد الرجل وولد ولده وروى عنه أنهم بنو امرأة الرجل من غيره وسموا حفدة لحفدهم فى الخدمة وسرعتهم فى العمل ومنه قولهم فى القنوت واليك نسعى ونحفد أى نسرع الى العمل بطاعتك ولم تزل العرب تجتذب البعداء وتتألف الاعداء بالمصاهرة حتى يرجع النافر مؤانسا ويصير العدو مواليا وقد يصير للصهر بين الاثنين ألفة بين القبيلتين وموالاة بين العشيرتين. حكى عن خالد بن يزيد بن معاوية انه قال كان أبغض خلق الله عز وجل الىّ آل الزبير حتى تزوجت منهم رملة فصاروا أحب خلق الله عز وجل الىّ. وفيها يقول

أحب بنى العوّام طرّا لاجلها * ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا

فان تسلمى نسلم وان تتنصرى * يخط رجال بين أعينهم صلبا

ولذلك قيل المرء على دين زوجته لما يستنزله الميل اليها من المتابعة ويجتذبه الحب لها من الموافقة فلا يجد الى المخالفة سبيلا ولا الى المباينة والمشاقة طريقا واذا كانت المصاهرة للنكاح بهذه المنزلة من الالفة فقد ينبغى لعقدها أحد خمسة أوجه وهى المال والجمال والدين والالفة والتعفف. وقد روى سعيد بن أبى سعيد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال تنكح المرأة لاربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فعليك بذات الدين تربت يداك فان كان عقد النكاح لاجل المال وكان أقوى الدواعى اليه فالمال اذا هو المنكوح فان اقترن بذلك أحد الاسباب الباعثة على الائتلاف جاز أن يلبث العقد وتدوم الالفة فان تجرد عن غيره من الاسباب وعرى عما سواه من المواد فأخلق بالعقد أن ينحل وبالالفة أن تزول لاسيما اذا غلب الطمع وقل الوفاء لان المال ان وصل اليه فقد ينقضى سبب الالفة به فقد قيل من ودك لشئ ولى مع انقضائه وان أعوز الوصول اليه وتعذرت القدرة عليه أعقب ذلك استهانة الآيس بعد شدة الامل فحدثت منه عداوة الخائب بعد استحكام الطمع فصارت الوصلة فرقة والالفة عداوة وقد قيل من ودك لطمع فيك أبغضك اذا أيس منك.

وقال عبد الحميد من عظمك لاكثارك استقلك عند اقلالك فان كان العقد رغبة فى الجمال فذلك أدوم للالفة من المال لان الجمال صفة لازمة والمال صفة زائلة . ولذلك قيل حسن الصورة أول السعادة . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أعظم النساء بركة أحسنهن وجها وأقلهن مهرا فان سلمت الحال من الادلال المفضى الى الملل استدامت الالفة واستحكمت الوصلة وقد كانوا يكرهون الجمال البارع إما لما يحدث عنه من شدة الادلال وقد قيل من بسطه الادلال قبضه الاذلال وإما لما يخاف من محنة الرغبة وبلوى المنازعة . وقد حكى أن رجلا شاور حكيما فى التزوج فقال له افعل واياك والجمال البارع فانه مرعى أنيق فقال الرجل وكيف ذلك قال كما قال الاول

ولن تصادف مرعى ممرعا أبدا * الا وجدت به آثار منتجع

وإما لما يخافه اللبيب من شدة الصبوة ويتوقاه الحازم من سوء عواقب الفتنة . وقد قال بعض الحكماء اياك ومخالطة النساء فان لحظ المرأة سهم ولفظها سم . ورأى بعض الحكماء صيادا يكلم امرأة فقال ياصياد احذر أن تصاد . وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه امش وراء الاسد ولا تمش وراء المرأة وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه امرأة تقول هذا البيت

ان النساء رياحين خلقن لكم * وكلكم يشتهى شم الرياحين

فقال رضى الله عنه

ان النساء شياطين خلقن لنا * نعوذ بالله من شر الشياطين

وان كان العقد رغبة فى الدين فهو أوثق العقود حالا وأدومها ألفة وأحمدها بدأ وعاقبة لان طالب الدين متبع له ومن اتبع الدين انقاد له فاستقامت له حاله وأمن زلله . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم فاظفر (لعل هذه رواية أخرى فان التى تقدمت فعليك) بذات الدين تربت يداك وفيه تأويلان أحدهما تربت يداك ان لم تظفر بذات الدين والثانى أنها كلمة تذكر للمبالغة ولا يراد بها سوء كقولهم ما أشجعه قاتله الله وان كان العقد رغبة فى الالفة فهذا يكون على أحد وجهين اما أن يقصد به المكاثرة باجتماع الفريقين والمظافرة بتناصر الفئتين وإما أن يقصد به تألف أعداء متسلطين استكفاء لعاديتهم وتسكينا لصولتهم وهذان الوجهان قد يكونان فى الاماثل وأهل المنازل وداعى الوجه الاول هو الرغبة وداعى الوجه الثانى هو الرهبة وهما سببان فى غير المتناكحين فان استدام السبب دامت الالفة وان زال السبب بزوال الرغبة والرهبة خيف زوال الالفة الا أن ينضم اليها أحد الاسباب الباعثة عليها والمقربة لها وان كان العقد رغبة فى التعفف فهو الوجه الحقيق المبتغى بعقد النكاح

وماسوى ذلك فاسباب معلقة عليه ومضافة اليه . وروى عطية بن بشر عن عكاف بن رفاعة الهلالى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له ياعكاف ألك زوجة قال لا قال فانت اذا من اخوان الشياطين ان كنت من رهبان النصارى فالحق بهم وان كنت منا فمن سنتنا النكاح فكان هذا القول منه حثا على التعفف عن الفساد وباعثا على التكاثر بالاولاد . ولهذا المعنى كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول للقفال من غزوهم اذا أفضيتم الى نسائكم فالكيس الكيس يعنى فى طلب الولد فلزم حينئذ فى عقد التعفف تحكيم الاختيار فيه والتماس الادوم من دواعيه وهى نوعان نوع يمكن حصر شروطه ونوع لايمكن لاختلاف أسبابه وتغاير شروطه فاما الشروط المحصورة فيه فثلاثة شروط أحدها الدين المفضى الى الستر والعفاف والمؤدى الى القناعة والكفاف . قال أبو هريرة رضى الله عنه لايعذل مؤمن مؤمنة ان كره منها خلقا رضى منها خلقا وخطب رجل من عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يتيمة كانت عنده فقال لا أرضاها لك قال ولم وفى دارك نشأت قال انها تتشرف قال لا أبالى فقال الآن أرضاك لها وفى معنى هذا قول بعض العلماء من رضى بصحبة من لاخير فيه لم يرض بصحبته من فيه خير والشرط الثانى العقل الباعث على حسن التقدير والامر بصواب التدبير فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال العقل حيث كان ألوف ومألوف . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم بالودود الولود ولا تنكحوا الحمقاء فان صحبتها بلاء وولدها ضياع والشرط الثالث الاكفاء الذين ينتفى بهم العار ويحصل بهم الاستكثار فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال تخيروا لنطفكم ولا تضعوها الا فى الاكفاء . وروى أن أكثم بن صيفى قال لولده يابنى لايحملنكم جمال النساء عن صراحة النسب فان المناكح الكريمة مدرجة للشرف . وقال أبو الاسود الدؤلى لبنيه قد أحسنت اليكم صغارا وكبارا وقبل أن تولدوا قالوا وكيف أحسنت الينا قبل أن نولد قال اخترت لكم من الأمهات من لاتسبون بها وأنشد الرياشى

فأول احسانى اليكم تخيرى * لماجدة الأعراق باد عفافها

ثم ان السبب الباعث على التزوج لايخلو من ثلاثة أحوال (أحدها) ان يكون لطلب الولد فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم بالابكار فانهن أعذب أفواها وأنتق أرحاما وأرضى باليسير ومعنى قوله أنتق أرحاما أى أكثر أولادا . وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه عليكم بالابكار فانهن أكثر حبا وأقل خبا وهذه الحال هى أولى الاحوال الثلاث لان النكاح موضوع لها والشرع وارد بها . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم

أنه قال سوداء ولود خير من حسناء عاقر والعرب تقول فى أمثالها من لا يلد لا ولد وقد كانوا يختارون لمثل هذه الحال نكاح البعداء الاجانب ويرون أن ذلك أنجب للولد وأبهى للخلقة ويجتنبون نكاح الاهل والاقارب ويرونه مضرا بخلق الولد بعيدا من نجابته . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أغربوا لا تضووا . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال يا بنى السائب قد ضويتم فانكحوا فى الغرائب . وقال الشاعر

تجاوزت بنت العم وهى حبيبة * مخافة أن يضوى على سليلى

وكانت حكماء المتقدمين يرون أن أنجب الاولاد خلقا وخلقا من كان سن أمه بين العشرين والثلاثين وسن أبيه ما بين الثلاثين والخمسين والعرب تقول ان ولدا لغيرى لا ينجب وان أنجب النساء الفروك وقالوا ان الرجل اذا أكره المرأة وهى مذعورة ثم أذكرت أنجبت (والحالة الثانية) أن يكون المقصود به القيام بما يتولاه النساء من تدبير المنازل فهذا وان كان مختصا بمعاناة النساء فليس بألزم حالتى الزوجات لانه قد يجوز أن يعانيه غيرهن من النساء ولذلك قيل المرأة ريحانة وليست بقهرمانة وليس فى هذا القصد تأثير فى دين ولا قدح فى مروءة والاحمد فى مثل هذا التماس ذوات الاسنان والحنكة ممن قد خبرن تدبير المنازل وعرفن عادات الرجال فانهن أقوم بهذه الحال (والحالة الثالثة) أن يكون المقصود به الاستمتاع وهى أذم الاحوال الثلاث وأوهنها للمروءة لانه ينقاد فيه لاخلاقه البهيمية ويتابع شهوته الذميمة . وقد قال الحارث بن النضر الازدى شر النكاح نكاح الغلمة الا أن يفعل ذلك لكسر الشهوة وقهرها بالاضعاف لها عند الغلبة أو تسكين النفس عند المنازعة حتى لا تطمح له عين لريبة ولا تنازعه نفس الى فجور ولا يلحقه فى ذلك ذم ولا يناله وصم وهو بالحمد أجدر وبالثناء أحق ولو تنزه فى مثل هذه الحال عن استبذال الحرائر الى الاماء كان أكمل لمروءته وأبلغ فى صيانته وهذه الحال تقف على شهوات النفوس لا يمكن أن يرجح فيها أولى الامور وهى أخطر الاحوال بالمنكوحة لان للشهوات غايات متناهية يزول بزوالها ما كان متعلقا بها فتصير الشهوة فى الابتداء كراهية فى الانتهاء ولذلك كرهت العرب البنات ووأدتهن اشفاقا عليهن وحمية لهن من أن يتبذلهن اللئام بهذه الحال وكان من تحوب من قتل البنات لرقة ومحبة كان موتهن أحب اليه وآثر عنده ولما خطب الى عقيل بن علقمة ابنته الجرباء قال انى وان سيق الى المهر ألف وعبدان وذود عشر أحب أصهارى الى القبر . وقال عبد الله بن طاهر

لكل أبى بنت يراعى شؤونها * ثلاثة أصهار اذا حمد الصهر

فبعل يراعيها وخدر يكنها * وقبر يواريها وأفضلها القبر

﴿فصـــل﴾ وأما المواخاة بالمودّة وهى الرابع من أسباب الالفة لانها تكسب بصادق الميل اخلاصا ومصافاة وتحدث بخلوص المصافاة وفاء ومحاماة وهـذا أعلى مراتب الالفة ولذلك آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه لتزيد ألفتهم ويقوى تظافرهم وتناصرهم . وروى عن النبى صـلى الله عليه وسـلم أنه قال عليكم باخوان الصـدق فانهم زينة فى الرخاء وعصمة فى البلاء . وروى أبو الزبير عن سهل بن سعد أن النبى صـلى الله عليه وسـلم قال المرء كثير بأخيـه ولا خير فى صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنـه لقاء الاخوان جلاء الاحزان . وقال خالد بن صفوان ان أعجز الناس من قصر فى طلب الاخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم . وقال على كرم الله وجهه لابنه الحسن يا بنى الغريب من ليس له حبيب . وقال ابن المعتز من اتخذ اخوانا كانوا له أعوانا . وقال بعض الادباء أفضل الذخائر أخ وفى . وقال بعض البلغاء صديق مساعد عضد وساعد . وقال بعض الشعراء

همـوم رجال فى أمور كثـيرة * وهمى من الدنيا صـديق مساعد
نكون كروح بين جسمين قسمت * فجسماهما جسمان والروح واحد

وقيل انما سمى الصديق صديقا لصدقه والعدوّ عدوا لعدوه عليك . وقال ثعلب انما سمى الخليل خليلا لان محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللا الا ملأته وأنشد الرياشى قول بشار

قد تخللت مسلك الروح منى * وبه سمى الخليـــل خليلا

والمواخاة فى الناس قد تكون على وجهين أحدهما اخوة مكتسبة بالاتفاق الجارى مجرى الاضطرار والثانية مكتسبة بالقصد والاختيار فاما المكتسبة بالاتفاق فهى أوكد حالا لانها تنعقد عن أسباب تعود اليها والمكتسبة بالقصد تعقد لها أسباب تنقاد اليها وما كان جاريا بالطبع فهو ألزم مما هو حادث بالقصد ونحن نبدأ بالوجه الاول المكتسب بالاتفاق ثم نعقبه بالوجه الثانى المكتسب بالقصد أما المكتسب بالاتفاق فله أسباب تبتدئ بها ثم تنتقل فى غاية أحواله المحدودة الى سبع مراتب ربما استكملتهن وربما وقفت على بعضهن ولكل مرتبة من ذلك حكم خاص وسبب موجب . قال الشاعر

ماهـوى الا له سبب * يبتدى منه وينشعب

فاول أسباب الاخاء التجانس فى حال يجتمعان فيها ويأتلفان بها فان قوى التجانس قوى الائتلاف به وان ضعف كان ضعيفا ما لم تحدث علة أخرى يقوى بها الائتلاف وانما كان كذلك لان الائتلاف بالتشاكل والتشاكل بالتجانس فاذا عدم التجانس من وجه انتفى

التشاكل من كل وجه ومع انتفاء التشاكل يعدم الائتلاف فثبت أن التجانس وان تنوع أصل الاخاء وقاعدة الائتلاف . وقد روى يحيى بن سعيد عن عمر عن عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وهذا واضح وهى بالتجانس متعارفة وبفقده متناكرة . وقيل فى منثور الحكم الاضداد لا تتفق والاشكال لا تفترق . وقال بعض الحكماء بحسن تشاكل الاخوان يلبث التواصل ولبعضهم

فلا تحتقر نفسى وأنت خليلها * فكل امرئ يصبو الى من يشاكل

وقال آخر

فقلت أخى قالوا أخ من قرابة * فقلت لهم ان الشكول أقارب

نسيبى فى رأيى وعزمى وهمتى * وان فرقتنا فى الاصول المناسب

ثم يحدث بالتجانس المواصلة بين المتجانسين وهى المرتبة الثانية من مراتب الاخاء وسبب المواصلة بينهما وجود الاتفاق منهما فصارت المواصلة نتيجة التجانس والسبب فيه وجود الاتفاق لان عدم الاتفاق منفر . وقد قال الشاعر

الناس ان وافقتهم عذبوا * أولا فان جناهم مر

كم من رياض لا أنيس بها * تركت لأن طريقها وعر

ثم يحدث عن المواصلة رتبة ثالثة وسببها الانبساط ثم يحدث عن المؤانسة رتبة رابعة وهى المصافاة وسببها خلوص النية ورتبة خامسة وهى المودة وسببها الثقة وهذه الرتبة هى أدنى الكمال فى أحوال الاخاء وما قبلها أسباب تعود اليها فان اقترن بها المعاضدة فهى الصداقة ثم يحدث عن المودة رتبة سادسة وهى المحبة وسببها الاستحسان فان كان الاستحسان لفضائل النفس حدثت رتبة سابعة وهى الاعظام وان كان الاستحسان للصورة والحركات حدثت رتبة ثامنة وهى العشق وسببه الطمع . وقد قال المأمون رحمه الله تعالى

أول العشق مزاح وولع * ثم يزداد اذا زاد الطمع

كل من يهوى وان غالت به * رتبة الملك لمن يهوى تبع

وهذه الرتبة آخر الرتب المحدودة وليس لما جاوزها رتبة مقدرة ولا حالة محدودة لانها قد تؤدى الى ممازجة النفوس وان تميزت ذواتها وتفضى الى مخالطة الارواح وان تفارقت أجسادها وهذه حالة لا يمكن حصر غايتها ولا الوقوف عند نهايتها . وقد قال الكندى الصديق انسان هو أنت لا أنه غيرك ومثل هذا القول المروى عن أبى بكر الصديق رضى الله

عنه حين أقطع طلحة بن عبيد الله أرضا وكتب له بها كتابا وأشهد فيه ناسا منهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأتى طلحة بكتابه الى عمر ليختمه فامتنع عليه فرجع طلحة مغضبا الى أبى بكر رضى الله عنه وقال والله ما أدرى أنت الخليفة أم عمر فقال بل عمر لكنه أنا وأما المكتسبة بالقصد فلا بدلها من داع يدعو اليها وباعث يبعث عليها وقد يكون الداعى اليها من وجهين رغبة وفاقة فأما الرغبة فهى أن يظهر من الانسان فضائل تبعث على إخائه ويتوسم بجميل يدعو الى اصطفائه وهذه الحالة أقوى من التى بعدها لظهور الصفات المطلوبة من غير تكلف لطلبها وانما يخاف عليها من الاغترار بالتصنع لها فليس كل من أظهر الخير كان من أهله ولا كل من تخلق بالحسنى كانت من طبعه والمتكلف للشئ منافله الا أن يدوم عليه مستحسناله فى العقل أو متدينابه فى الشرع فيصير متطبعا به لا مطبوعا عليه لانه قد تقدم من كلام الحكماء ليس فى الطبع أن يكون ماليس فى التطبع ثم نقول من المتعذر أن تكون أخلاق الفاضل كاملة بالطبع وانما الاغلب أن يكون بعض فضائله بالطبع وبعضها بالتطبع الجارى بالعادة مجرى الطبع حتى يصير ما تطبع به فى العادة أغلب عليه مما كان مطبوعا عليه اذا خالف العادة ولذلك قيل العادة طبع ثان . وقال ابن الرومى رحمه الله

واعلم بان الناس من طينة * يصدق فى الثلب لها الثالب

لولا علاج الناس أخلاقهم * اذا لفاح الحمأ اللازب

وأما الفاقة فهى أن يفتقر الانسان لوحشة انفراده ومهانة وحدته الى اصطفاء من يأنس بمواخاته ويثق بنصرته وموالاته . وقد قالت الحكماء من لم يرغب فى ثلاث بلى بست من لم يرغب فى الاخوان بلى بالعداوة والخذلان ومن لم يرغب فى السلامة بلى بالشدائد والامتهان ومن لم يرغب فى المعروف بلى بالندامة والخسران ولعمرى ان اخوان الصدق من أنفس الذخائر وأفضل العدد لانهم سهماء النفوس وأولياء النوائب . وقد قالت الحكماء رب صديق أود من شقيق وقيل لمعاوية أيما أحب اليك قال صديق يحببنى الى الناس . وقال ابن المعتز القريب بعداوته بعيد والبعيد بمودته قريب وقال الشاعر

لمودة ممن يحبك مخلصا * خير من الرحم القريب الكاشح

وقال آخر يخونك ذو القربى مرارا وربما * وفى لك عند العهد من لا تناسبه

فاذا عزم على اصطفاء الاخوان سبر أحوالهم قبل إخائهم وكشف عن أخلاقهم قبل اصطفائهم لما تقدم من قول الحكماء أسبر تخبر ولا تبعثه الوحدة على الاقدام قبل الخبرة ولاحسن الظن على الاغترار بالتصنع فان الملق مصائد العقول والنفاق تدليس الفطن

وهما سجيتا التصنع وليس فيمن يكون النفاق والملق بعض سجاياه خير يرجى ولا صلاح يؤمل ولاجل ذلك قالت الحكماء اعرف الرجل من فعله لا من كلامه واعرف محبته من عينه لا من لسانه . وقال خالد بن صفوان انما نفقت عند اخوانى لانى لم أستعمل معهم النفاق ولا قصرت بهم عن الاستحقاق

وقال حماد

كم من أخ لك ليس تنكره * مادمت فى دنياك فى يسر
متصنع لك فى مودته * يلقاك بالترحيب والبشر
فاذا عدا والدهر ذو غير * دهر عليك عدا مع الدهر
فارفض باجمال مودة من * يقلى المقل ويعشق المثرى
وعليك من حالاه واحدة * فى العسر إما كنت واليسر

على أن الانسان موسوم بسيماء من قارب ومنسوب اليه أفاعيل من صاحب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه الصاحب مناسب . وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ما من شئ أدل على شئ ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب . وقال بعض الحكماء اعرف أخاك باخيه قبلك . وقال بعض الادباء يظن بالمرء ما يظن بقرينه . وقال عدى بن زيد

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدى
اذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم * ولا تصحب الاردى فتردى مع الردى

فلزم من هذا الوجه أيضا أن يحترز من دخلاء أهل السوء ويجانب أهل الريب ليكون موفور العرض سليم الغيب فلا يلام بملامة غيره ولهذا قيل التثبت والارتياء ومداومة الاختبار والابتلاء متعذر بل مفقود وقد ضرب ذو الرمة مثلا بالماء فيمن حسن ظاهره وخبث باطنه فقال

ألم تر أن الماء يخبث طعمه * وان كان لون الماء أبيض صافيا

ونظر بعض الحكماء الى رجل سوء حسن الوجه فقال أما البيت فحسن وأما الساكن فردىء فأخذ جحظة هذا المعنى فقال

رب ما أبين التباين فيه * منزل عامر وعقل خراب

وأنشدنى بعض أهل العلم

لا تركنن الى ذى منظر حسن * فرب رائقة قد ساء مخبرها
ما كل أصفر دينار لصفرته * صفر العقارب أرداها وأنكرها

ثم قد تقدم من قول الحكماء من لم يقدم الامتحان قبل الثقه والثقة قبل الانس أثمرت مودته ندما . وقال بعض البلغاء مصارمة قبل اختبار أفضل من مواخاة على اغترار . وقال بعض الادباء لا تثق بالصديق قبل الخبرة ولا تقع بالعدو قبل القدرة . وقال بعض الشعراء

لا تحمدن امرأ حتى تجربه * ولا تذمنه من غير تجريب
فحمدك المرء مالم تبله خطأ * وذمك المرء بعد الحمد تكذيب

فاذا قد لزم من هذين الوجهين سبر الاخوان قبل اخائهم وخبرة أخلاقهم قبل اصطفائهم فالخصال المعتبرة فى اخائهم بعد المجانسة التى هى أصل الاتفاق أربع خصال

(فالخصلة الاولى) عقل موفور يهدى الى مراشد الامور فان الحمق لا تثبت معه مودة ولا تدوم لصاحبه استقامة . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال البذاء لؤم وصحبة الاحمق شؤم . وقال بعض الحكماء عداوة العاقل أقل ضررا من مودة الاحمق لان الاحمق ربما ضر وهو يقدر أن ينفع والعاقل لا يتجاوز الحد فى مضرته فضرته لها حد يقف عليه العقل ومضرة الجاهل ليست بذات حد والمحدود أقل ضررا مما هو غير محدود . وقال المنصور للمسيب بن زهير ما مادة العقل فقال مجالسة العقلاء . وقال بعض البلغاء من الجهل صحبة ذوى الجهل ومن المحال مجادلة ذوى المحال . وقال بعض الادباء من أشار عليك باصطناع جاهل أو عاجز لم يخل أن يكون صديقا جاهلا أو عدوا عاقلا لانه يشير بما يضرك ويحتال فيما يضع منك . وقال بعض الشعراء

اذا ما كنت متخذا خليلا * فلا تثقن بكل أخى إخاء
فان خيرت بينهم فألصق * بأهل العقل منهم والحياء
فان العقل ليس له اذا ما * تفاضلت الفضائل من كفاء

(والخصلة الثانية) الدين الواقف بصاحبه على الخيرات فان تارك الدين عدو لنفسه فكيف يرجى منه مودة غيره . وقال بعض الحكماء اصطف من الاخوان ذا الدين والحسب والرأى والادب فانه رده لك عند حاجتك ويد عند نائبتك وأنس عند وحشتك وزين عند عافيتك . وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه

أخلاء الرخاء هم كثير * ولكن فى البلاء هم قليل
فلا يغررك خلة من تواخى * فمالك عند نائبة خليل

وكل أخ يقول أنا وفيّ * ولكن ليس يفعل ما يقول
سوى خل له حسب ودين * فذاك لما يقول هو الفعول

وقال آخر

من لم تكن في الله خلته * فخليله منه على خطر

(والخصلة الثالثة) أن يكون محمود الاخلاق مرضي الفعال مؤثراً للخير آمراً به كارهاً للشر ناهياً عنه فان مودة الشرير تكسب الاعداء وتفسد الاخلاق ولا خير في مودة تجلب عداوة وتورث مذمة وملامة فان المتبوع تابع صاحبه . وقال عبيد الله بن المعتز اخوان الشر كشجر النارنج يحرق بعضه بعضا . وقال بعض الحكماء مخالطة الاشرار على خطر والصبر على صحبتهم كركوب البحر الذي من سلم منه ببدنه من التلاف فيه لم يسلم بقلبه من الحذر منه . وقال بعض البلغاء صحبة الاشرار تورث سوء الظن بالاخيار . وقال بعض البلغاء من خير الاختيار صحبة الاخيار ومن شر الاختيار صحبة الاشرار . وقال بعض الشعراء

مجالسة السفيه سفاه رأى * ومن عقل مجالسة الحكيم
فانك والقرين معا سواء * كما قدّ الاديم من الاديم

(والخصلة الرابعة) أن يكون من كل واحد منهما ميل الى صاحبه ورغبة في مواخاته فان ذلك أوكد لحال المواخاة وأمدّ لاسباب المصافاة اذ ليس كل مطلوب اليه طالب ولا كل مرغوب اليه راغب ومن طلب مودة ممتنع عليه ورغب الى زاهد فيه كان معنى خائبا كما قال البحتري

وطلبت منك مودة لم أعطها * ان المعنى طالب لا يظفر

وقال العباس بن الاحنف

فان كان لا يدنيك الا شفاعة * فلا خير في ودّ يكون بشافع
وأقسم ما تركي عتابك عن قلى * ولكن لعلمي أنه غير نافع
واني اذا لم ألزم الصبر طائعا * فلابد منه مكرها غير طائع

فاذا استكملت هذه الخصال في انسان وجب اخاؤه وتعين اصطفاؤه وبحسب وفورها فيه يجب أن يكون الميل اليه والثقة به وبحسب ما يرى من غلبة احداها عليه يجعل مستعملا في الخلق الغالب عليه فان الاخوان على طبقات مختلفة وانحاء متشعبة ولكل واحد منهم حال يختص بها في المشاركة وثلمة يسدها في الموازرة والمظافرة وليس تتفق أحوال جميعهم على حدّ واحد لان التباين في الناس غالب واختلافهم في الشيم ظاهر . وقال بعض الحكماء

الرجال كالشجر شرابه واحد وثمره مختلف فأخذ هذا المعنى منصور بن اسماعيل فقال

بنـــو آدم كالنبت * ونبت الارض ألوان
فنهم شجر الصنـد * ل والكافور والبان
ومنهم شجر أفضـــ * ـل ما يحمل قطران

ومن رام اخوانا تتفق أحوال جميعهم رام متعذرا بل لو اتفقوا لكان ربما وقع به خلل فى نظامه اذ ليس الواحد من الاخوان يمكن الاستعانة به فى كل حال ولا المجبولون على الخلق الواحد يمكن أن يتصرفوا فى جميع الاعمال وانما بالاختلاف يكون الائتلاف . وقد قال بعض الحكماء ليس بلبيب من لم يعاشر بالمعروف من لم يجد من معاشرته بدا . وقال المأمون الاخوان ثلاث طبقات طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه وطبقة كالدواء يحتاج اليه أحيانا وطبقة كالداء لا يحتاج اليه أبدا ولعمرى ان الناس على ما وصفهم ولكن ليس من كان منهم كالداء من الاخوان المعدودين بل هم من الاعداء المحذورين وانما يداجون المودة استكفافا لشرهم وتحرزا من مكاشفتهم فدخلوا فى عداد الاخوان بالمظاهرة والمساترة وفى الاعداء عند المكاشفة والمجاهرة . قال بعض الحكماء مثل العدو الضاحك اليك كالحنظلة الخضراء أوراقها القاتل مذاقها . وقد قيل فى منثور الحكم لا تغترر بمقاربة العدو فانه كالماء الذى ان أطيل اسخانه بالنار لم يمنع من اطفائها . وقال يزيد بن الحكم الثقفى

تكاشرنى ضحكا كأنك ناصح * وعينك تبدى أن صدرك لى دوى
لسانك معسول ونفسك علقم * وشرك مبسوط وخيرك ملتوى
فليت كفافا كان خيرك كله * وشرك عنى ما ارتوى الماء مرتوى

فاذا خرج من كان كالداء من عداد الاخوان فالاخوان هم الصنفان الآخران من كان منهم كالغذاء أو كالدواء لان الغذاء قوام للنفس وحياتها والدواء علاجها وصلاحها وأفضلهما من كان كالغذاء لان الحاجة اليه أعم واذا تميز الاخوان وجب أن ينزل كل منهم حيث نزلت به أحواله اليه واستقرت خصاله وخلاله عليه فمن قويت أسبابه قويت الثقة به وبحسب الثقة به يكون الركون اليه والتعويل عليه . وقال الشاعر

ماأنت بالسبب الضعيف وانما * نجح الامور بقوة الاسباب
فاليوم حاجتنا اليـــك وانما * يدعى الطبيب لشدة الاوصاب

وقد اختلفت مذاهب الناس فى اتخاذ الاخوان فمنهم من يرى أن الاستكثار منهم أولى ليكونوا أقوى منعة ويدا وأوفر تحببا وتوددا وأكثر تعاونا وتفقدا . وقيل لبعض الحكماء

ما العيش قال اقبال الزمان وعز السلطان وكثرة الاخوان . وقيل حلية المرء كثرة اخوانه ومنهم من يرى أن الاقلال منهم أولى لانه أخف أثقالا وكلفا وأقل تنازعا وخلفا . وقال الاسكندر المستكثر من الاخوان من غير اختيار كالمستوقر من الحجارة والمقل من الاخوان المتخير لهم كالذى يتخير الجوهر . وقال عمرو بن العاص من كثر اخوانه كثر غرماؤه . وقال ابراهيم بن العباس مثل الاخوان كالنار قليلها متاع وكثيرها بوار . ولقد أحسن ابن الرومى فى هذا المعنى ونبه على العلة حيث يقول

عدوك من صديقك مستفاد * فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء أكثر ما تراه * يكون من الطعام أو الشراب
ودع عنك الكثير فكم كثير * يعاف وكم قليل مستطاب
فما اللجج الملاح بمرويات * وتلقى الرى فى النطف العذاب

وقال بعض البلغاء ليكن غرضك فى اتخاذ الاخوان واصطناع النصحاء تكثير العدة لا تكثير العدد وتحصيل النفع لا تحصيل الجمع فواحد يحصل به المراد خير من ألف تكثر الاعداد واذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الاخوة وأسباب المودة كان وفور العقل وظهور الفضل يقتضى من حال صاحبه قلة اخوانه لانه يروم مثله ويطلب شكله وأمثاله من ذوى العقل والفضل أقل من أضداده من ذوى الحمق والنقص لان الخيار فى كل جنس هو الأقل فلذلك قل وفور العقل والفضل . وقد قال الله تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون فقل بهذا التعليل اخوان أهل الفضل لقلتهم وكثر اخوان ذوى النقص والجهل لكثرتهم . وقد قال فى ذلك الشاعر

لكل امرئ شكل من الناس مثله * فأكثرهم شكلا أقلهم عقلا
وكل اناس آلفون لشكلهم * فأكثرهم عقلا أقلهم شكلا
لان كثير العقل لست بواجد * له فى طريق حين يسلكه مثلا
وكل سفيه طائش ان فقدته * وجدت له فى كل ناحية عدلا

واذا كان الامر على ما وصفنا فقد تنقسم أحوال من دخل فى عدد الاخوان أربعة أقسام منهم من يعين ويستعين ومنهم من لا يعين ولا يستعين ومنهم من يستعين ولا يعين ومنهم من يعين ولا يستعين فاما المعين والمستعين فهو معاوض منصف يؤدى ما عليه ويستوفى ماله فهو كالمقرض يسعف عند الحاجة ويسترد عند الاستغناء وهو مشكور فى معونته ومعذور فى استعانته فهذا أعدل الاخوان وأما من لا يعين ولا يستعين فهو متروك قد منع

خيره وقمع شره فهو لاصديق يرجى ولاعدوّ يخشى . وقد قال المغيرة بن شعبة رضى الله عنه التارك للاخوان متروك واذا كان كذلك فهو كالصورة الممثلة يروقك حسنها ويخونك نفعها فلا هو مذموم لقمع شره ولا هو مشكور لمنع خيره وان كان بالذم أجدر . وقد قال الشاعر

وأسوأ أيام الفتى يوم لا يرى * له أحد يزرى عليه وينكر

غير أن فساد الوقت وتغير أهله يوجب شكر من كان شره مقطوعا وان كان خيره ممنوعا كما قال المتنبى

انا لفى زمن ترك القبيح به * من أكثر الناس احسان واجمال

وأما من يستعين ولا يعين فهو لئيم كل ومهين مستذل قد قطع عنه الرغبة وبسط فيه الرهبة فلا خيره يرجى ولا شره يؤمن وحسبك مهانة من رجل مستثقل عند اقلاله ويستقل عند استقلاله فليس لمثله فى الاخاء حظ ولا فى الوداد نصيب وهو ممن جعله المأمون من داء الاخوان لا من دوائهم ومن سمهم لا من غذائهم . وقال بعض الحكماء شر ما فى الكريم أن يمنعك خيره وخير ما فى اللئيم أن يكف عنك شره . وقال ابن الرومى

عذرنا النخل فى ابداء شوك * يرد به الانامل عن جناه

فما للعوسج الملعون أبدى * لنا شوكا بلا ثمر نراه

وأما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع مشكور الصنع وقد حاز فضيلتى الابتداء والاكتفاء فلا يرى ثقيلا فى نائبة ولا يقعد عن نهضة فى معونة فهذا أشرف الاخوان نفسا وأكرمهم طبعا فينبغى لمن أوجد له الزمان مثله وقل أن يكون له مثل لانه البر الكريم والدر اليتيم أن يثنى عليه خنصره ويعض عليه ناجذه ويكون به أشد ضنا منه بنفائس أمواله وأسنى ذخائره لان نفع الاخوان عام ونفع المال خاص ومن كان أعم نفعا فهو بالادخار أحق . وقال الفرزدق

مضى أخوك فلا تلقى له خلفا * والمال بعد ذهاب المال مكتسب

وقال آخر

لكل شئ عدمته عوض * وما لفقد الصديق من عوض

ثم لا ينبغى أن يزهد فيه لخلق أو خلقين ينكرهما منه اذا رضى سائر أخلاقه وحمد أكثر شيمه لان اليسير مغفور والكمال معوز . وقد قال الكندى كيف تريد من صديقك خلقا واحدا وهو ذو طبائع أربع مع أن نفس الانسان التى هى أخص النفوس به ومدبرة باختياره وارادته

لا تعطيه قيادها في كل ما يريد ولا تجيبه الى طاعته في كل ما يحب فكيف بنفس غيره وحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره . وقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه معاتبة الاخ خير من فقده ومن لك بأخيك كله فأخذ الشعراء هذا المعنى فقال أبو العتاهية

أأخي من لك من بني الدنيا بكل أخيك من لك
فاستبق بعضك لا يملك كل من أعطيت كلك

وقال أبو تمام الطائي

ما غبن المغبون مثل عقله * من لك يوما بأخيك كله

وقال بعض الحكماء طلب الانصاف من قلة الانصاف . وقال بعض البلغاء لا يزهدنك في رجل حمدت سيرته وارتضيت وتيرته وعرفت فضله وبطنت عقله عيب خفي تحيط به كثرة فضائله أو ذنب صغير تستغفر له قوة وسائله فانك لن تجد ما بقيت مهذبا لا يكون فيه عيب ولا يقع منه ذنب فاعتبر بنفسك بعد أن لا تراها بعين الرضا ولا تجري فيها على حكم الهوى فان في اعتبارك بها واختبارك لها ما يؤيسك مما تطلب ويعطفك على من يذنب . وقد قال الشاعر

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها * كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وقال النابغة الذبياني

ولست بمستبق أخا لا تلمه * على شعث أي الرجال المهذب

وليس ينقض هذا القول ما وصفنا من اختباره واختبار الخصال الاربع فيه لان ما أعوز فيه معفو عنه وهذا لا ينبغي أن توحشك فترة تجدها منه ولا أن تسيء الظن في كبوة تكون منه مالم تحقق تغيره وتتيقن تنكره وليصرف ذلك الى فترات النفوس واستراحات الخواطر فان الانسان قد يتغير عن مراعاة نفسه التي هي أخص النفوس به ولا يكون ذلك من عداوة لها ولا ملل منها . وقد قيل في منثور الحكم لا يفسدنك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له . وقال جعفر بن محمد لابنه يا بني من غضب من اخوانك ثلاث مرات فلم يقل فيك سوأ فاتخذه لنفسك خلا . وقال الحسن بن وهب من حقوق المودة أخذ عفو الاخوان والاغضاء عن تقصير ان كان . وقد روى على رضي الله عنه في قوله تعالى فاصفح الصفح الجميل قال الرضا بغير عتاب . وقال ابن الرومي

هم الناس والدنيا ولا بد من قذى * يلم بعين أو يكدر مشربا
ومن قلة الانصاف أنك تبتغي الـ * ـمهذب في الدنيا ولست المهذبا

وقال بعض الشعراء

تواصلنا على الايام باق * ولكن هجرنا مطر الربيع
يروعك صوبه لكن تراه * على علاته دانى النزوع
معاذ الله أن نلقى غضابا * سوى دل المطاع على المطيع

وأنشدنى الازدى

لا يؤيسنك من صديق نبوة * ينبو الفتى وهو الجواد الخضرم
فاذا نبا فاستبقه وتأنه * حتى تفىء به وطبعك أكرم

وأما الملول وهو السريع التغير الوشيك التنكر فوداده خطر واخاؤه غرر لانه لا يبقى على حالة ولا يخلو من استحالة . وقد قال ابن الرومى

اذا أنت عاتبت الملول فانما * تخط على صحف من الماء أحرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب ألم تكن * مودته طبعا فصارت تكلفا

وهم نوعان منهم من يكون ملله استراحة ثم يعود الى المعهود من اخائه فهذا أسلم المللين وأقرب الرجلين يسامح فى وقت استراحته وحين فترته ليرجع الى الحسنى و يؤوب الى الاخاء وان تقدم المثل بما نظمه الشاعر حيث قال

وقالوا يعود الماء فى النهر بعدما * عفت منه آثار وجفت مشارعه
فقلت الى أن يرجع الماء عائدا * ويعشب شطاه تموت ضفادعه

لكن لا يطرح حقه بالتوهم ولا يسقط حرمته بالظنون . وقال الشاعر

اذا ما حال عهد أخيك يوما * وحاد عن الطريق المستقيم
فلا تعجل بلومك واستدمه * فان أخا الحفاظ المستديم
فان تك زلة منه والا * فلا تبعد عن الخلق الكريم

ومنهم من يكون ملله تركا واطراحا ولا يراجع اخاء ولا ودا ولا يتذكر حفاظا ولا عهدا كما قال أشجع بن عمرو السلمى

انى رأيت لها مواصلة * كالسم تفرغه على الشهد
فاذا أخذت بعهد ذمتها * لعب الصدود بذلك العهد

وهذا أذم الرجلين حالا لأن مودته من وساوس الخطرات وعوارض الشهوات وليس الا استدراك الحال معه بالاقلاع قبل المخالطة وحسن المتاركة بعد الورطة كما قال العباس ابن الاحنف

تداركت نفسي فعزيتها * وبغضتها فيك آمالها
وماطابت النفس عن سلوة * ولكن حملت عليها لها

ومامثل من هذه حاله الا كما قد قال ابراهيم بن حرمة

فانك واطراحك وصل سلمى * لأخرى في مودتها نكوب
كثاقبة لحلى مستعار * لاذنيها فشانهما الثقوب
فأدت حلى جارتها اليها * وقد بقيت باذنيها ندوب

واذا وصفت له أخلاق من سبره وتعهدت لديه أحوال من خبره وأقدم على اصطفائه أخا وعلى اتخاذه خدنا لزمته حينئذ حقوقه ووجبت عليه حرماته . وقال عمر بن مسعدة العبودية عبودية الاخاء لاعبودية الرق . وقال بعض الحكماء من جاد لك بمودته فقد جعلك عديل نفسه فأول حقوقه اعتقاد مودته ثم ايناسه بالانبساط اليه في غير محرم ثم نصحه في السر والعلانية ثم تخفيف الاثقال عنه ثم معاونته فيما ينوبه من حادثة أو يناله من نكبة فان مراقبته في الظاهر نفاق وتركه في الشدة لؤم . وقد قيل يارسول الله أي الاصحاب خير قال الذي اذا ذكرت أعانك وواساك وخير منه من اذا نسيت ذكرك . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه خير اخوانك من واساك وخير منه من كفاك وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول اللهم اني أعوذ بك ممن لايلتمس خالص مودتي الا بموافقة شهوتي وممن ساعدني على سرور ساعتي ولا يفكر في حوادث غدي . وقال بعض البلغاء عقود الغادر محلوله وعهوده مدخوله . وقال بعض البلغاء ماودك من أهمل ودك ولا أحبك من أبغض حبك . وقال بعض الشعراء

وكل أخ عند الهوينا ملاطف * ولكنما الاخوان عند الشدائد

وقال صالح بن عبد القدوس شر الاخوان من كانت مودته مع الزمان اذا أقبل فاذا أدبر الزمان أدبر عنك فاخذ هذا المعنى الشاعر فقال

شر الاخلاء من كانت مودته * مع الزمان اذا ماخاف أو رغبا
اذا وترت امرأ فاحذر عداوته * من يزرع الشوك لايحصد به عنبا
ان العدو وان أبدى مسالمة * اذا رأى منك يوما فرصة وثبا

وينبغي أن يتوقى الافراط في محبته فان الافراط داع الى التقصير ولان تكون الحال بينهما نامية أولى من أن تكون متناهية . وقد روى ابن سيرين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما وأبغض بغيضك هونا ما

عسى أن يكون حبيبك يوماما . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا . وقال أبو الاسود الدؤلى

وكن معدنا للخير واصفح عن الاذى * فانك راء ما عملت وسامع
وأحبب اذا أحببت حبا مقاربا * فانك لا تدرى متى أنت نازع
وابغض اذا أبغضت غير مباين * فانك لا تدرى متى أنت راجع

وقال عدى بن زيد

لا تأمنن من مبغض قرب داره * ولا من محب أن يمل فيبعدا

وانما يلزم من حق الاخاء بذل المجهود فى النصح والتناهى فى رعاية ما بينهما من الحق فليس فى ذلك افراط وان تناهى ولا مجاوزة حد وان أكثر وأوفى فتستوى حالتاهما فى المغيب والمشهد ولا يكون مغيبهما أفضل عن مشهدهما وأولى فان فضل المشهد على المغيب لؤم وفضل المغيب على المشهد كرم واستواؤهما حفاظ . وقال بعض الشعراء

علىّ لاخوانى رقيب من الصفا * تبيد الليالى وهو ليس يبيد
يذكرنيهم فى مغيبى ومشهدى * فسيان منهم غائب وشهيد
وانى لاستحيى أخى أن أبره * قريبا وأن أجفوه وهو بعيد

وهكذا يقصد التوسط فى زيارته وغشيانه غير مقلل ولا مكثر فان تقليل الزيارة داعية الهجران وكثرتها سبب الملال . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لابى هريرة رضى الله عنه يا أبا هريرة زر غبا تزدد حبا . وقال لبيد

توقف عن زيارة كل يوم * اذا أكثرت ملك من تزور

وقال اخر

أقلل زيارتك الصديق ولا تطل * هجرانه فيلج فى هجرانه
ان الصديق يلج فى غشيانه * لصديقه فيمل من غشيانه
حتى تراه بعد طول سروره * بمكانه متثاقلا بمكانه
واذا توانى عن صيانة نفسه * رجل تنقص واستخف بشانه

وبحسب ذلك فليكن فى عتابه فان كثرة العتاب سبب للقطيعة واطراح جميعه دليل على قلة الاكتراث بأمر الصديق . وقد قيل علة المعاداة قلة المبالاة بل تتوسط حالتا تركه وعتابه فيسامح بالمتاركة ويستصلح بالمعاتبة فان المسامحة والاستصلاح اذا اجتمعا لم يلبث معهما

نفور ولم يبق معهما وجد . وقد قال بعض الحكماء لا تكثرن معاتبة اخوانك فيهون عليهم سخطك . وقال منصور النمرى

أقلل عتاب من استربت بوده * ليست تنال مودة بعتاب

وقال بشار بن برد

اذا كنت فى كل الامور معاتبا * صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
وان أنت لم تشرب مرارا على القذى * ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه
فعش واحدا أو صل أخاك فانه * مقارف ذنب مرة ومجانبه

ثم من حق الاخوان أن تغفر هفوتهم وتستر زلتهم لان من رام بريئا من الهفوات سليما من الزلات رام أمرا معوزا واقترح وصفا معجزا . وقد قالت الحكماء أى عالم لا يهفو وأى صارم لا ينبو وأى جواد لا يكبو وقالوا من حاول صديقا يأمن زلته ويدوم اغتباطه به كان كضال الطريق الذى لا يزداد لنفسه اتعابا الا ازداد من غايته بعدا . وقيل لخالد بن صفوان أى اخوانك أحب اليك قال من غفر زللى وقطع عللى وبلغنى أملى . وقال بعض الشعراء

ما كدت أفحص عن أخى ثقة * الا ندمت عواقب الفحص

وأنشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه

أحب من الاخوان كل مواتى * وكل غضيض الطرف عن عثراتى
يوافقنى فى كل أمر أريده * ويحفظنى حيا وبعد وفاتى
فمن لى بهذا ليت أنى أصبته * فقاسمته مالى من الحسنات .
تصفحت اخوانى وكان أقلهم * على كثرة الاخوان أهل ثقاتى

وأنشد ثعلب

اذا أنت لم تستقبل الامر لم تجد * بكفيك فى ادباره متعلقا
اذا أنت لم تترك أخاك وزلة * اذا زلها أوشكتما أن تفرقا

وحكى الاصمعى عن بعض الاعراب أنه قال تناس مساوى الاخوان يدم لك ودهم . ووصى بعض الادباء أخاه فقال كن للود حافظا وان لم تجد محافظا وللخل واصلا وان لم تجد مواصلا وقال رجل من اياد ليزيد بن المهلب

اذا لم تجاوز عن أخ عند زلة * فلست غدا عن عثرتى متجاوزا
وكيف يرجيك البعيد لنفعه * اذا كان عن مولاك خيرك عاجزا
ظلمت أخا كلفته فوق وسعه * وهل كانت الاخلاق الا غرائزا

وقال أبو مسعود كاتب الرضى كنا فى مجلس الرضى فشكا رجل من أخيه فانشد الرضى

اعـــذر أخاك على ذنوبه * واستر وغض على عيوبه
واصبر على بهت السفيـ * ـه وللـــزمان على خطوبه
ودع الجواب تفضـــلا * وكل الظلـوم الى حسيبه
واعـــلم بان الحـــلم عنـــد الغيظ أحسن من ركوبه

وحكى عن بنت عبد الله بن مطيع أنها قالت لزوجها طلحة بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى وكان أجود قريش فى زمانه ما رأيت قوما ألأم من اخوانك قال مه ولم ذلك قالت أراهـم اذا أيسرت لزموك واذا أعسرت تركوك قال هذا والله من كرمهم يأتوننا فى حال القوة بنا عليهم ويتركوننا فى حال الضعف منا عنهم فانظر كيف تأوّل بكرمه هـذا التأويل حتى جعل قبيح فعلهم حسنا وظاهر غدرهم وفاء وهذا محض الكرم ولباب الفضـل وبمثل هذا يلزم ذوى الفضل أن يتأوّلوا الهفوات من اخوانهم . وقد قال بعض الشعراء

اذا ما بدت من صاحب لك زلة * فكن أنت محتالا لزلتـــه عذرا
أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه * كأن به عن كل فاحشـــة وقرا
سليم دواعى الصـدر لا باسط أذى * ولا مانع خـــيرا ولا قائل هجرا

والداعى الى هـذا التأويل شيآن التغافل الحادث عن الفطنة والتألف الصادر عن الوفاء . وقال بعض الحكماء وجدت أكثر أمور الدنيا لا تجوز الا بالتغافل . وقال أكثم بن صيفى من شدّد نفر ومن تراخى تألف والشرف فى التغافل . وقال شبيب بن شيبة الاريب العاقل هو الفطن المتغافل . وقال الطائى

ليس الغبى بسيد فى قومه * لكنّ سيد قومه المتغابى

وقال أبو العتاهية

ان فى صحـــة الاخاء من النا * س وفى خـــلة الوفاء لقـــله
فالبس الناس ما استطعت على النقـ * ـص والا لم تســـتقم لك خـــله
عش وحيدا ان كنت لا تقبل العذ * ر وان كـــنت لا تجاوز زله
من أب واحـــــد وأم خلقنا * غـــير أنا فى المال أولاد عـــله

ومما يتبع هذا الفصـل تألف الاعداء بما يثنيهم عن البغضاء ويعطفهم على المحبـة وذلك قد يكون بصنوف من البر ويختلف بسبب اختلاف الاحوال فان ذلك من سمات الفضـل

وشروط السودد فانه ما أحد يعدم عدوا ولا يفقد حاسدا وبحسب قدر النعمة تكثر الاعداء والحسدة كما قال البحترى

ولن تستبين الدهر موضع نعمة * اذا أنت لم تدلل عليها بحاسد

فان أغفل تألف الاعداء مع وفور النعمة وظهور الحسدة توالى عليه من مكر حليمهم وبادرة سفيههم ما تصير به النعمة غراما والزعامة ملاما . وروى ابن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس العقل بعد الايمان بالله تعالى التودد الى الناس . وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه لا تستكثر أن يكون لك ألف صديق فالالف قليل ولا تستقل أن يكون لك عدو واحد فالواحد كثير فنظم ابن الرومى هذا المعنى فقال

فكثر من الاخوان ما اسطعت انهم * بطون اذا استنجدتهم وظهور
وليس كثيرا ألف خل وصاحب * وان عدوا واحدا لكثير

وقيل لعبد الملك بن مروان ما أفدت فى ملكك هذا قال مودة الرجال . وقال بعض الحكماء من علامة الاقبال اصطناع الرجال . وقال بعض البلغاء من استصلح عدوه زاد فى عدده ومن استفسد صديقه نقص من عدده . وقال بعض الادباء العجب ممن يطرح عاقلا كافيا لما يضمره من عداوته ويصطنع عاجزا جاهلا لما يظهره من محبته وهو قادر على استصلاح من يعاديه بحسن صنائعه وأياديه وأنشد عبد الله بن الزبير ثلاثة أبيات جامعة لكل ما قالته العرب وهى للافوه واسمه صلة بن عمرو حيث يقول

بلوت الناس قرنا بعد قرن * فلم أر غير ختال وقال
وذقت مرارة الاشياء جمعا * فما طعم أمر من السؤال
ولم أر فى الخطوب أشد هولا * وأصعب من معاداة الرجال

وقال القاضى التنوخى

الق العدو بوجه لا قطوب به * يكاد يقطر من ماء البشاشات
فأحزم الناس من يلقى أعاديه * فى جسم حقد وثوب من مودات
الرفق يمن وخير القول أصدقه * وكثرة المزح مفتاح العداوات

وأنشدت عن الربيع للشافعى رضى الله تعالى عنه

لما عفوت ولم أحقد على أحد * أرحت نفسى من هم العداوات
انى أحيى عدوى عند رؤيته * لأدفع الشر عنى بالتحيات

وأظهر البشر للانسان أبغضه * كأنما قد حشى قلبي محبات
الناس داء دواء الناس قربهم * وفي اعتزالهم قطع المودّات

وليس وان كان بتألف الاعداء مأمورا والى مقاربتهم مندوبا ينبغي أن يكون لهم راكنا وبهم واثقا بل يكون منهم على حذر ومن مكرهم على تحرز فان العداوة اذا استحكمت في الطباع صارت طبعا لا يستحيل وجبلة لا تزول وانما يستكفي بالتألف اظهارها ويستدفع به اضرارها كالنار يستدفع بالماء احراقها ويستفاد به انضاجها وان كانت محرقة بطبع لا يزول وجوهر لا يتغير . وقال الشاعر

واذا عجزت عن العدوّ فداره * وامزح له ان المزاح وفاق
فالنار بالماء الذي هو ضدّها * تعطى النضاج وطبعها الاحراق

﴿فصل﴾ وأما البر وهو الخامس من أسباب الالفة فلأنه يوصل الى القلوب ألطافا ويثنيها محبة وانعطافا ولذلك ندب الله تعالى الى التعاون به وقرنه بالتقوى له فقال وتعاونوا على البر والتقوى لان في التقوى رضا الله تعالى وفي البر رضا الناس ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته . وروى الاعمش عن خيثمة عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جبلت القلوب على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها . وحكى أن الله تعالى أوحى الى داود على نبينا وعليه السلام ذكر عبادي احساني اليهم ليحبوني فانهم لا يحبون الا من أحسن اليهم . وأنشدني أبو الحسن الهاشمي

الناس كلهم عيا * ل الله تحت ظلاله فأحبهم طرا اليـ * ـه أبرهم لعياله

والبرّ نوعان صلة ومعروف فأما الصلة فهي التبرع ببذل المال في الجهات المحمودة لغير عوض مطلوب وهذا يبعث عليه سماحة النفس وسخاؤها ويمنع منه شحها وإباؤها قال الله تعالى ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . وروى محمد بن ابراهيم التيمي عن عروة بن الزبير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال السخي قريب من الله عزوجل قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله عزوجل بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار . وقال صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم رفع الله عن أبيك العذاب الشديد لسخائه وبلغه صلى الله عليه وسلم عن الزبير امساك فجذب عمامته اليه وقال يازبير أنا رسول الله اليك والى غيرك يقول أنفق أنفق عليك ولا توك فأوك عليك . وروى أبو الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم غربت فيه شمسه الا وملكان يناديان اللهم أعط منفقا خلفا وممسكا تلفا وأنزل في ذلك القرآن فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى

وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى . قال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى من أعطى فيما أمر واتقى فيما حظر وصدق بالحسنى يعنى بالخلف من عطائه فعند هذا قال ابن عباس رضى الله عنهما لسادات الناس فى الدنيا الاسخياء وفى الآخرة الاتقياء . وقيل فى منثور الحكم الجود عن موجود وقيل فى المثل سودد بلا جود كملك بلا جنود . وقال بعض الحكماء الجود حارس الاعراض . وقال بعض الادباء من جاد ساد ومن أضعف ازداد . وقال بعض الفصحاء جود الرجل يحببه الى أضداده وبخله يبغضه الى أولاده . وقال بعض الفصحاء خير الاموال ما استرق حرا وخير الاعمال ما استحق شكرا وقال صالح ابن عبد القدوس

ويظهر عيب المرء فى الناس بخله * ويستره عنهم جميعا سخاؤه
تغط بأثواب السخاء فانني * أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

وحد السخاء بذل ما يحتاج اليه عند الحاجة وأن يوصل الى مستحقه بقدر الطاقة وتدبير ذلك مستصعب ولعل بعض من يحب أن ينسب الى الكرم ينكر حد السخاء ويجعل تقدير العطية فيه نوعا من البخل وان الجود بذل الموجود وهذا تكلف يفضى الى الجهل بحدود الفضائل ولو كان الجود بذل الموجود لما كان للسرف موضعا ولا للتبذير موقعا وقد ورد الكتاب بذمهما وجاءت السنة بالنهى عنهما واذا كان السخاء محدودا فمن وقف على حده سمى كريما وكان للحمد مستحقا ومن قصر عنه كان بخيلا وكان للذم مستوجبا . وقد قال الله تعالى ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أقسم الله تعالى بعزته لا يجاوره بخيل وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يقول الشحيح أعذر من الظالم فقال لعن الله الشحيح ولعن الظالم . وقال بعض الحكماء البخل جلباب المسكنة . وقال بعض الادباء البخيل ليس له خليل . وقال بعض البلغاء البخيل حارس نعمته وخازن ورثته . وقال بعض الشعراء

اذا كنت جامعا لمالك ممسكا * فانت عليه خازن وأمين
تؤديه مذموما الى غير حامد * فيأكله عفوا وأنت دفين

وتظاهر بعض ذوى النباهة بحب الثناء مع امساك فيه فقال بعض الشعراء

أرالك تؤمل حسن الثنا * ولم يرزق الله ذاك البخيلا
وكيف يسود أخو بطنة * يمن كثيرا ويعطى قليلا

وقد يتناحب الثناء وحب المال لان الثناء يبعث على البذل وحب المال يمنع منه فان ظهرا كان حب الثناء كاذبا . وقد قال بعض الشعراء

جمعت أمرين ضاع الحزم بينهما * تيه الملوك وأخلاق المماليك
أردت شكرا بلا بر ولا صلة * لقد سلكت طريقا غير مسلوك
ظننت عرضك لم يقرع بقارعة * وما أراك على حال بمتروك
لئن سبقت الى مال حظيت به * فما سبقت الى شئ سوى النوك

وقد يحدث عن البخل من الاخلاق المذمومة وان كان ذريعة الى كل مذمة أربعة أخلاق ناهيك بها ذما وهى الحرص والشره وسوء الظن ومنع الحقوق فأما الحرص فهو شدة الكدح والاسراف فى الطلب وأما الشره فهو استقلال الكفاية والاستكثار لغير حاجة وهذا فرق ما بين الحرص والشره . وقد روى العلاء بن جرير عن أبيه عن سالم بن مسروق قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يجزيه من العيش ما يكفيه لم يجد ما عاش ما يغنيه . وقال بعض الحكماء الشره من غرائز اللؤم وأما سوء الظن فهو عدم الثقة بمن هو لها أهل فان كان بالخالق كان شكا يؤول الى ضلال وان كان بالمخلوق كان استخانة يصير بها مختانا وخوانا لان ظن الانسان بغيره بحسب ما يراه من نفسه فان وجد فيها خيرا ظنه فى غيره وان رأى فيها سوأ اعتقده فى الناس . وقد قيل فى المثل كل اناء ينضح بما فيه فان قيل قد تقدم من قول الحكماء ان الحزم سوء الظن قيل تأويله قلة الاسترسال اليهم لا اعتقاد السوء فيهم وأما منع الحقوق فان نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها ولا تنقاد الى ترك مطلوبها فلا تذعن لحق ولا تجيب الى انصاف واذا آل البخيل الى ما وصفنا من هذه الاخلاق المذمومة والشيم اللئيمة لم يبق معه خير مرجو ولا صلاح مأمول . وأما السرف والتبذير فان من زاد على حد السخاء فهو مسرف ومبذر وهو بالذم جدير . وقد قال الله تعالى ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما عال من اقتصد . وقد قال المأمون رحمه الله لا خير فى السرف ولا سرف فى الخير . وقال بعض الحكماء صديق الرجل قصده وسرفه عدوه . وقال بعض البلغاء لا كثير مع اسراف ولا قليل مع احتراف واعلم أن السرف والتبذير قد يفترق معناهما فالسرف هو الجهل بمقادير الحقوق والتبذير هو الجهل بمواقع الحقوق وكلاهما مذموم وذم التبذير أعظم لان المسرف يخطئ فى الزيادة والمبذر يخطئ فى الجهل ومن جهل مواقع الحقوق ومقاديرها بماله وأخطاها فهو كمن جهلها بفعاله فتعداها وكما أنه بتبذيره قد يضع الشئ فى غير موضعه

فهكذا قد يعدل به عن موضعه لان المال أقل من أن يوضع فى كل موضع من حق وغير حق . وقد قال معاوية رضى الله عنه كل سرف فبازائه حق مضيع . وقال بعض الحكماء الخطأ فى اعطاء مالا ينبغى ومنع ما ينبغى واحد . وقال سفيان الثورى رضى الله عنه الحلال لا يحتمل السرف وليس يتم السخاء ببذل ما فى يده حتى تسخو نفسه عما بيد غيره فلا يميل الى طلب ولا يكف عن بذل . وقد حكى أن الله تعالى أوحى الى ابراهيم الخليل على نبينا وعليه السلام أتدرى لما اتخذتك خليلا قال لا يارب قال لانى رأيتك تحب أن تعطى ولا تحب أن تأخذ . وروى سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال أتى رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله مرنى بعمل يحبنى الله عليه ويحبنى الناس فقال ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس . وقال أيوب السجستانى لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان العفة عن أموال الناس والتجاوز عنهم . وقيل لسفيان ما الزهد فى الدنيا قال الزهد فى الناس وكتب كسرى الى ابنه هرمز يابنى استقل الكثير مما تعطى واستكثر القليل مما تأخذ فان قرة عيون الكرام فى الاعطاء وسرور اللئام فى الاخذ ولا تعد الشحيح أمينا ولا الكذاب حرا فانه لاعفة مع الشح ولا مروءة مع الكذب . وقال بعض الحكماء السخاء سخاآن أشرفهما سخاؤك عما بيد غيرك . وقال بعض البلغاء السخاء أن تكون بمالك متبرعا وعن مال غيرك متورعا . وقال بعض الصلحاء الجود غاية الزهد والزهد غاية الجود . وقال بعض الشعراء

اذا لم تكن نفس الشريف شريفة * وان كان ذا قدر فليس له شرف

والبذل على وجهين أحدهما ما ابتدأ به الانسان من غير سؤال والثانى ما كان عن طلب وسؤال فاما المبتدأ به فهو أطبعهما سخاء وأشرفهما اعطاء . وسئل على كرم الله وجهه عن السخاء فقال ما كان منه ابتداء فأما ما كان عن مسألة فحياء وتكرم . وقال بعض الحكماء أجل النوال ماوصل قبل السؤال . وقال بعض الشعراء

وفتى خلا من ماله * ومن المروءة غير خال
أعطاك قبل سؤاله * فكفاك مكروه السؤال

وهذا النوع من البذل قد يكون لتسعة أسباب

فالسبب الاول أن يرى خلة يقدر على سدها وفاقة يتمكن من ازالتها فلا يدعه الكرم والتدين الا أن يكون زعيم صلاحها وكفيل نجاحها رغبة فى الاجر إن تدين وفى الشكر ان تكرم . وقال أبو العتاهية

ما الناس الا آلة معتلة * للخير والشر جميعا فعله

والسبب الثانى أن يرى فى ماله فضلا عن حاجته وفى يده زيادة عن كفايته فيرى انتهاز الفرصة بها فيضعها حيث تكون له ذخرا معدا وغنما مستجدا . وقد قال الحسن البصرى رحمه الله ما أنصفك من كلفك اجلاله ومنعك ماله . وقيل لهند بنت الحسن من أعظم الناس فى عينك قالت من كان لى اليه حاجة . وقال الشاعر

وما ضاع مال ورث الحمد أهله * ولكن أموال البخيل تضيع

والسبب الثالث أن يكون لتعريض يتنبه عليه لفطنته واشارة يستدل عليها بكرمه فلا يدعه الكرم أن يغفل ولا الحياء أن يكف . وقد حكى أن رجلا ساير بعض الولاة فقال ما أهزل برذونك فقال يده مع أيدينا فوصله اكتفاء بهذا التعريض الذى بلغ ما لا يبلغه صريح السؤال ولذلك قال أكثم بن صيفى السخاء حسن الفطنة واللؤم سوء التغافل . وحكى أن عبيد الله ابن سليمان لما تقلد وزارة المعتضد كتب اليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر

أبى دهرنا اسعافنا فى نفوسنا * وأسعفنا فيمن نحب ونكرم

فقلت له نعماك فيهم أتمها * ودع أمرنا ان المهم مقدم

فقال عبيد الله ما أحسن ما شكا أمره بين اضعاف مدحه ثم قضى حاجته . وقال بعض الشعراء

ومن لا يرى من نفسه مذكرا لها * رأى طلب المستنجدين ثقيلا

والسبب الرابع أن يكون ذلك رعاية ليد أو جزاء على صنيعة فيرى تأدية الحق عليه طوعا اما أنفة واما شكرا ليكون من أسر الامتنان طليقا ومن رق الاحسان وعبوديته عتيقا . قال بعض الحكماء الاحسان رق والمكافأة عتق . وقال أبو العتاهية رحمه الله تعالى

وليست أيادى الناس عندى غنيمة * ورب يد عندى أشد من الاسر

والسبب الخامس أن يؤثر الاذعان بتقديمه والاقرار بتعظيمه توطيدا لرئاسة هو لها محب وعلى طلبها مكب . وقد قال الشاعر

حب الرئاسة داء لا دواء له * وقل ما تجد الراضين بالقسم

فتستصعب عليه اجابة النفوس له طوعا الا بالاستعطاف واذعانها الا بالرغبة والاسعاف . وقد قال بعض الادباء بالاحسان يرتبط الانسان . وقال بعض البلغاء من بذل ماله أدرك آماله . وقال بعض الشعراء

أترجو أن تسود بلا عناء * وكيف يسود ذو الدعة البخيل

والسبب السادس أن يدفع به سطوة أعدائه ويستكف به نفار خصمائه ليصيروا له بعد

الخصومة أعوانا وبعد العداوة اخوانا إما الصيانة عرض وإما الحراسة مجد . وقد قال أبو تمام الطائى

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد * ولا المجد فى كف امرئ والدراهم
ولم أر كالمعروف تدعى حقوقه * مغارم فى الاقوام وهى مغانم

وقال بعض الادباء من عظمت مرافقه أعظمه مرافقه

والسبب السابع أن يرب به سالف صنيعة أولاها ويراعى به قديم نعمة أسداها كيلا ينسى ما أولاه أو يضاع ما أسداه فان مقطوع البر ضائع ومهمل الاحسان ضال . وقد قال الشاعر

وسمت امرأ بالبر ثم اطرحته * ومن أفضل الاشياء رب الصنائع

وقال محمد بن داود الاصبهانى

بدأت بنعمى أوجبت لى حرمة * عليك فعد بالفضل فالعود أحمد

والسبب الثامن المحبة يؤثر بها المحبوب على ماله فلا يضن عليه بمرغوب ولا ينفس عليه بمطلوب للذة التى هى عنده أحظى والى نفسه أشهى لان النفس الى محبوبها أشوق والى ممايلته أسبق . وقد قال الشاعر

فازرتكم عمدا ولكن ذا الهوى * الى حيث يهوى القلب تهوى به الرجل

وهذا وان دخل فى أقسام العطاء فخارج عن حد السخاء وهكذا الخامس والسادس من هذه الاسباب وانما ذكرناها لدخولها تحت أقسام العطاء

والسبب التاسع ليس بسبب أن يفعل ذلك لغير سبب وانما هى منه سجية قد فطر عليها وشيمة قد طبع بها فلا يميز بين مستحق ومحروم ولا يفرق بين محمود ومذموم كما قال بشار

ليس يعطيك للرجاء ولا للـ * ـخوف لكن يلذ طعم العطاء

وقد اختلف الناس فى مثل هذا هل يكون منسوبا الى السخاء فيحمد أو خارجا عنه فيذم وقال قوم هذا هو السخى طبعا والجواد كرما وهو أحق من كان به ممدوحا واليه منسوبا . وقال أبو تمام

من غير ما سبب يدنى كفى سببا * للحر أن يجتدى حرا بلا سبب

وقال الحسن بن سهل اذا لم أعط الا مستحقا فكأنى أعطيت غريما وقال الشرف فى السرف فقيل له لا خير فى السرف فقال ولا سرف فى الخير . وقال الفضل بن سهل العجب لمن يرجو من فوقه كيف يحرم من دونه . وقال بشار

وما الناس الا صاحبان فمنهم * سخي ومغلول اليدين من البخل
فسامح يدا ما أمكنتك فانها * تقل وتثرى والعواذل فى شغل

وقال آخرون هذا خارج من السخاء المحمود الى السرف والتبذير المذموم لان العطاء اذا كان لغير سبب كان المنع لغير سبب لان المال يقل عن الحقوق ويقصر عن الواجبات فاذا أعطى غير المستحق فقد يمنع مستحقا وما يناله من الذم بمنع المستحق أكثر مما يناله من الحمد لاعطاء غير المستحق وحسبك ذما بمن كانت أفعاله تصدر عن غير تمييز وتوجد لغير علة وقد قال الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا فنهى عن بسطها سرفا كما نهى عن قبضها بخلا فدل على استواء الامرين ذما وعلى اتفاقهما لوما .

وقال الشاعر وكان المال يأتينا فكنا * نبذره وليس لنا عقول
فلما أن تولى المال عنا * عقلنا حين ليس لنا فضول

قالوا ولان العطاء والمنع اذا كانا لغير علة أفضيا الى ذم الممنوع وقلة شكر المعطى أما الممنوع فلأنه قد فضل عليه من سواه وأما المعطى فانه وجد ذلك اتفاقا وربما أمل بالاتفاق اضعافا فصار ذلك مفضيا الى اجتلاب الذم واحباط الشكر وليس فيما أفضى الى واحد منهما خير يرجى وهو جدير أن يكون شرا يبقى ولمثل هذا كان منع الجميع ارضاء للجميع وعطاء يكون المنع أرضى منه خسران مبين فأما اذا كان البذل والعطاء عن سؤال وطلب فشروطه معتبرة من وجهين أحدهما فى السائل والثانى فى المسؤل فأما ما كان معتبرا فى السائل فثلاثة شروط الشرط الاول أن يكون السؤال لسبب والطلب لموجب فان كان لضرورة ارتفع عنه الحرج وسقط عنه اللوم . وقد قال بعض الحكماء الضرورة توقح الصورة .

وقال بعض الشعراء

ألا قبح الله الضرورة انها * تكلف أعلى الخلق أدنى الخلائق
ولله در الانساع فانه * يبين فضل السبق من غير سابق

وقال الكميت

اذا لم تكن الا الأسنة مركبا * فلا رأى للمضطر الا ركوبها

فان ارتفعت الضرورة ودعت الحاجة فيما هو أولى الامرين أن يكون وان جاز أن لا يكون فالنفس المسامحة تغلب الحاجة وتسمح فى الطلب وتراعى ما استقام به الحال وان ناله ذل ولحقه وهن فيتأول صاحبها قول البحترى

وربما كان مكروه الأمور الى * محبوبها سببا ما مثله سبب

والنفس الشريفة تطلب الصيانة وتراعي النزاهة وتحتمل من الضر ما احتملت ومن الشدة ما أطاقت فيبقى تحملها ويدوم تصونها فتكون كما قال الشاعر

وقد يكتسى المرء خز الثياب * ومن دونها حالة مضنيه
كما يكتسى خده حمرة * وعلته ورم فى الريه

فلا يرى أن يتدنس بمطالب الشؤم ومطالع اللؤم فان البهائم الوحشية تأبى ذلك وتأنف منه قال الشاعر

وليس الليث من جوع بغاد * على جيف تطيف بها الكلاب

فكيف بالانسان الفاضل الذى هو أكرم الحيوان جنسا وأشرفه نفسا هل يحسن به أن يرى لوحش البهائم عليه فضلا . وقد قال الشاعر

على كل حال يأكل المرء زاده * على البؤس والضراء والحدثان

وقد قيل لبعض الزهاد لو سألت جارك أعطاك فقال والله ما أسأل الدنيا من يملكها فكيف ممن لا يملكها ووصف بعض الشعراء قوما فقال

اذا افتقروا أغضوا على الضر حسبة * وان أيسروا عادوا سراعا الى الفقر

فأما من يسأل من غير ضرورة مست ولا حاجة دعت فذلك صريح اللؤم ومحض الدناءة وقلما تجد مثله ملحوظا أو مولا محفوظا لان الحرمان قاده الى أضيق الارزاق واللؤم ساقه الى أخبث المطاعم فلم يبق لوجهه ماء الاأراقه ولا ذل الا ذاقه كما قال عبد الصمد بن المعذل لابى تمام الطائى

أنت بين اثنتين تبرز للنا * س وكلتاهما بوجه مذال
لست تنفك طالبا لوصال * من حبيب أو طالبا لنوال
أى ماء لحر وجهك يبقى * بين ذل الهوى وذل السؤال

ولو استقبح العار وأنف من الذل لوجد غير السؤال مكسبا يعونه ولقدر على ما يصونه وقد قال الشاعر

لا تطلبن معيشة بتذلل * فلياتينك رزقك المقدور
واعلم بانك آخذ كل الذى * لك فى الكتاب مقدر مسطور

والشرط الثانى من شروط السؤال أن يضيق الزمان عن ارجائه و يقصر الوقت عن ابطائه فلا يجد لنفسه فى التأخير فسحة ولا فى التمادى مهلة فيصير من المعذورين وداخلا فى عداد المضطرين فأما اذا كان الوقت متسعا والزمان ممتدا فتعجيل السؤال لؤم وقنوط .

وقال الشاعر

أبى لى اغضاء الجفون على القذى * يقينى أن لا عسر الا مفرج

ألا ربما ضاق الفضاء بأهله * وأمكن من بين الأسنة مخرج

والشرط الثالث اختيار المسؤل أن يكون مرجو الاجابة مأمول النجح إما لحرمة السائل أو كرم المسؤل فان سأل لئيما لا يرعى حرمة ولا يولى مكرمة فهو فى اختياره ملوم وفى سؤاله محروم. وقد قال بعض البلغاء المخذول من كانت له الى اللئام حاجة. وقد قال بعض البلغاء أذل من اللئيم سائله وأقل من البخيل نائله. وقال بعض الشعراء

من كان يأمل أن يرى * من ساقط نبلا سنيا

فلقد رجى أن يجتنى * من عوسج رطبا جنيا

وأما الشروط المعتبرة فى المسئول فثلاثة

الشرط الاول أن يكتفى بالتعريض ولا يلجئ الى السؤال الصريح ليصون السائل عن ذل الطلب فان الحال ناطقة والتعريض كاف. وقد قال الشاعر

أقول وستر الدجى مسبل * كما قال حين شكى الضفدع

كلامى ان قلته ضائع * وفى الصمت حتفى فما أصنع

وربما فهم المسؤل الاشارة فألجأ الى التصريح بالعبارة تهجينا للسائل ليخجل فيمسك ويستحيى فيكف فيكون كما قال أبو تمام

من كان مفقود الحياء فوجهه * من غير بواب له بواب

والشرط الثانى أن يلقى بالبشر والترحيب ويقابل بالطلاقة والتقريب ليكون مشكورا ان أعطى ومعذورا ان منع. وقد قال بعض الحكماء الق صاحب الحاجة بالبشر فان عدمت شكره لم تعدم عذره. وقال ابن السكيت ان أبا بكر بن دريد قصد بعض الوزراء فى حاجة فلم يقضها له وظهر له منه ضجر فقال

لا تدخلنك ضجرة من سائل * فلخير دهرك أن ترى مسئولا

لا تجبهن بالرد وجه مؤمل * فبقاء عزك أن ترى مأمولا

تلقى الكريم فتستدل ببشره * وترى العبوس على اللئيم دليلا

واعلم بأنك عن قليل صائر * خبرا فكن خبرا يروق جميلا

والشرط الثالث تصديق الامل فيه وتحقيق الظن به ثم اعتبار حاله وحال سائله فانهما لا يخلوان من أربع أحوال فالحال الاولى أن يكون السائل مستوجبا والمسؤل متمكنا

فالاجابة ههنا تستحق كرما وتستلزم مروءة وليس للرد سبيل الا لمن استولى عليه البخل وهان عليه الذم فيكون كما قال فيه عبد الرحمن بن حسان

انى رأيت من المكارم حسبكم * أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا
فاذا تذوكرت المكارم مرّة * فى مجلس أنتم به فتقنعوا

فنعوذ بالله ممن حرم ثروة ماله ومنع حسن حاله أن يكون مستودعا فى صنيع مشكور وبرّ مذخور وقد قيل لبخيل لم حبست مالك قال للنوائب فقيل له قد نزلت بك . وقال بعض الشعراء

مالك من مالك الا الذى * قدمت فابذل طائعا مالكا
تقول أعمالى ولو فتشوا * رأيت أعمالك أعمى لكا

وقد أسقط حق نفسه ورفع أسباب شكره فصار بأن لاحق له مذموما كمشكور ومأثوما كمأجور . وقال أبو العتاهية

خزن البخيل علىّ صالحه * اذ لم يثقل برّه ظهرى
مافاتنى خير امرئ وضعت * عنى يداه مؤونة الشكر

فاذا لم يكن للرد فى مثل هذه الحال سبيل تطر فان كان التأخير مضرا عجل بذله وقطع مطله وكانت اجابته فعلا وقوله عملا . وقد قالت الحكماء من مروءة المطلوب منه أن لا يلجئ الى الحاح عليه . وقال محمد بن حازم

ومنتظر سؤالك بالعطايا * وأشرف من عطاياه السؤال
اذا لم يأتك المعروف طوعا * فدعه فالتنزه عنه مال

وان كان فى الوقت مهلة وفى التأخير فسحة فقد اختلفت مذاهب الفضلاء فيه فذهب بعضهم الى أن الاولى تعجيل الوعد قولا ثم يعقبه الانجاز فعلا ليكون السائل مسرورا بتعجيل الوعد ثم بآجل الانجاز ويكون المسؤل موصوفا بالكرم ملحوظا بالوفاء . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال العدة عطية . وقال الفضل بن سهل لرجل سأله حاجة أعدك اليوم وأحبوك غدا بالانجاز لتذوق حلاوة الامل وأتزين بثوب الوفاء ووعد يحيى بن خالد رجلا بحاجة سأله اياها فقيل له تعد وأنت قادر فقال ان الحاجة اذا لم يتقدمها وعد ينتظر صاحبه نجحه لم يجد سرورها لان الوعد طعم والانجاز طعام وليس من فاجأه الطعام كمن يجد ريحه ويطعمه فدع الحاجة تختمر بالوعد ليكون لها طعم عند المصطنع اليه . وقال بعض البلغاء اذا أحسنت القول فأحسن الفعل ليجتمع لك ثمرة اللسان وثمرة الاحسان ولا تقل

مالاتفعل فانك لاتخلو فى ذلك من ذنب تكتسبه أو عجز تلتزمه ومنهم من ذهب الى أن تعجيل البذل فعلا من غير وعد أولى وتقديمه من غير ترقب ولا انتظار أحرى وانما يقدم الوعد أحد رجلين إما معوز ينتظر جده واما شحيح يروض نفسه توطئه وليس للوعد فى غيرها تين الحالتين وجه يصح ولا رأى يتضح مع مايغيره الليل والنهار وتتقلب به الحال من يسار واعسار وقال بعض الشعراء

يا أيها الملك المقـــــدم أمره شــــرقا وغربا
أمنن بختم صحيفـتى * مادام هذا الطين رطبا
واعـــلم بأن جفافه * مما يعيد السهل صعبا

قالوا ولان فى الرجوع عنه من الانكسار وفى توقع الوعد من مرارة الانتظار وفى العود اليه من بذلة الاقتضاء وذلة الاجتداء مايكدر برّه ويوهن شكره . وقال الشاعر

ان الحوائج ربما أزرى بها * عنـــد الذى تقضى له تطويلها
فاذا ضمنت لصاحب لك حاجة * فاعـــلم بان تمامها تعجيلها

والحال الثانية أن يكون السائل غير مستوجب والمسؤل غير متمكن ففى الردّ فسحة وفى المنع عذر غير أنه يلين عند الرد لينا يقيه الذم ويظهر عذرا يدفع عنه اللوم فليس كل مقل يعرف ولا معذور ينصف . وقد قال أبو العتاهية يصف الناس

يارب ان النـاس لاينصفوننى * فكيف وان أنصفتهـــم ظلمونى
فان كان لى شئ تصدوا لاخذه * وان جئت أبغى شيأ هم منعونى
وان نالهم بذلى فلا شكر عندهم * وان أنا لم أبذل لهـــم شـتمونى
وان طرقتنى نكبة فكهوا بها * وان صحبتنى نعـــة حســـدونى
سأمنع قلبى أن يحنّ اليهـــم * وأغمض عنهم ناظرى وجفونى
وأقطـــع أيامى بيوم سهولة * أقضى بها عمــرى ويوم حزون
ألا ان أصفى العيش ماطاب غبه * ومانلتـــه فى لذة وســكون

والحال الثالثة أن يكون السائل مســتوجبا والمسؤل غير متمكن فيأتى بالحمل على النفس ماأمكن من يسير يسدّ به خلة أو يدفع به مذمة أو يوضح من أعذار المعوزين وتوجع المتألمين مايجعله فى المنع معذورا وبالتوجع مشكورا . وقد قال أبو النصر العتبى رحمه الله تعالى

الله يعلم أنى لست ذا بخـــل * ولست ملتمسا فى البخل لى عللا
لكنّ طاقة مثلى غير خافية * والنمل يعذر فى القدر الذى حملا

وربما تحسر بحدوث العجز بعد تقدم القدرة على فوت الصنيعة وزوال العادة حتى صار أضنى جسدا وأزيد كمدا كما قال الشاعر

وكنت كماز السوء قص جناحه * يرى حسرات كلما طار طائر
يرى طائرات الجو تخفق حوله * فيذكر اذ ريش الجناحين وافر

والحال الرابعة أن يكون السائل غير مستوجب والمسؤل متمكنا وعلى البذل قادرا فينظر فان خاف بالرد قدح عرض أو قبح هجاء ممض كان البذل اليه مندوبا صيانة لا جودا . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ماوقى به المرء عرضه فهو له صدقة وان أمن من ذلك وسلم منه فمن الناس من غلب المسألة وأمر بالبذل لئلا يقابل الرجاء بالخيبة والامل بالاياس ولما فيه من اعتياد الرد واستسهال المنع المفضى الى الشح وأنشد الاصمعى عن الكسائى

كأنك فى الكتاب وجدت لاء * محرمة عليك فلا تحل
فما تدرى اذا أعطيت مالا * أيكثر من سماحك أم يقل
اذا حضر الشتاء فأنت شمس * وان حضر المصيف فأنت ظل

ومن الناس من اعتبر الاسباب وغلب حال السائل وندب الى المنع اذا كان العطاء فى غير حق ليقوى على الحقوق اذا عرضت ولا يعجز عنها اذا لزمت وتعينت . وقد قال بعض الشعراء

لا تجد بالعطاء فى غير حق * ليس فى منع غير ذى الحق بخل
انما الجود أن تجود على من * هو للجود والندى منك أهل

فأما من أجاب السؤال ووعد بالبذل والنوال فقد صار بوعده مرهونا وصار وفاؤه بالوعد مقرونا فالاعتبار بحق السائل بعد الوعد ولا سبيل الى مراجعة نفسه فى الرد فيستوجب مع ذم المنع لؤم البخل ومقت القادر وهجنة الكذوب ثم لا سبيل لمطله بعد الوعد لما فى المطل من تكدير الصنيع وتمحيق الشكر والعرب تقول فى أمثالها المطل أحد المنعين واليأس أحد النجحين . وقال بشار بن برد

أظلت علينا منك يوما غمامة * أضاءت لنا برقا وأبطا رشاشها
فلا غيمها يجلى فييأس طامع * ولا غيثها يأتى فيروى عطاشها

ثم اذا أنجز وعده وأوفى عهده لم يتبع نفسه ما أعطى ويسر أن كانت يده العليا فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اليد العليا خير من اليد السفلى . وقال الشاعر

فانك لا تدرى اذا جاء سائل * أأنت بما تعطيه أم هو أسعد
عسى سائل ذو حاجة ان منعته * من اليوم سؤلا أن يكون له غد

وليكن من سروره اذا كانت الارزاق مقدرة أن تكون على يده جارية ومن جهته واصلة لا تنتقل عنه بمنع ولا تحول عنه باياس . وحكى أن رجلا شكى كثرة عياله الى بعض الزهاد فقال انظر من كان منهم ليس رزقه على الله عز وجل فحوّله الى منزلي . وقال ابن سيرين لرجل كان يأتيه على دابة ففقد الدابة مافعل برذونك قال اشتدت عليّ مؤنته فبعته قال أفتراه خلف رزقه عندك . وقال ابن الرومي رحمه الله

ان لله غير مرعاك مرعى * نرتعيه وغير مائك ماء
ان لله بالبرية لطفا * سبق الامهات والآباء

ثم ليكن غالب عطائه لله تعالى وأكثر قصده ابتغاء ما عند الله عز وجل كالذي حكاه أبو بكرة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن اعرابيا أتاه فقال

ياعمر الخير جزيت الجنه * اكس بنياتي وأمهنه
وكن لنا من الزمان جنه * أقسم بالله لتفعلنه

فقال عمر رضي الله عنه فان لم أفعل يكون ماذا فقال

* اذا أبا حفص لاذهبنه *

فقال فاذا ذهبت يكون ماذا فقال

يكون عن حالي لتسألنه * يوم تكون الاعطيات هنه
وموقف المسؤل بينهنه * إما الى نار وإما جنه

فبكى عمر رضي الله عنه حتى اخضلت لحيته ثم قال ياغلام أعطه قميصي هذا لذلك اليوم لا لشعره أما والله لا أملك غيره واذا كان العطاء على هذا الوجه خلا من طلب جزاء وشكر وعرا عن امتنان ونشر فكان ذلك أشرف للباذل وأهنأ للقابل وأما المعطي اذا التمس بعطائه الجزاء وطلب به الشكر والثناء فهو خارج بعطائه عن حكم السخاء لانه ان طلب به الشكر والثناء كان صاحب سمعة ورياء وفي هذين من الذم والسمعة ما ينافي السخاء وان طلب به الجزاء كان تاجرا متربحا لا يستحق حمدا ولا مدحا . وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في تأويل قوله تعالى ولا تمنن تستكثر انه الذي يعطي عطية يلتمس بها أفضل منها . وكان الحسن البصري رضي الله عنه يقول في تأويل ذلك لا تمنن بعملك تستكثر على ربك . وقال أبو العتاهية

وليست يد أوليتها بغنيمة * اذا كنت ترجو أن تعدّ لها شكرا
غنى المرء ما يكفيه من سدّ حاجة * فان زاد شيأ عاد ذاك الغنى فقرا

واعلم أن الكريم يجتدى بالكرامة واللطف واللئيم يجتدى بالمهانة والعنف فلا يجود الا خوفا ولا يجيب الاعنفا كما قد قال الشاعر

رأيتك مثل الجوز يمنع لبه * صحيحا ويعطى خيره حين يكسر

فاحذر أن تكون المهانة طريقا الى اجتدائك والخوف سبيلا الى اعطائك فيجرى عليك سفه الطغام وامتهان اللئام وليكن جودك كرما ورغبة لا لؤما ورهبة كيلا يكون مع الوصمة كما قال العباس بن الاحنف

صرت كأنى ذبالة نصبت * تضىء للناس وهى تحترق

وأما النوع الثانى من البر فهو المعروف ويتنوع أيضا نوعين قولا وعملا فأما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودد بجميل القول وهذا يبعث عليه حسن الخلق ورقة الطبع ويجب أن يكون محدودا كالسخاء فانه ان أسرف فيه كان ملقا مذموما وان توسط واقتصد فيه كان معروفا وبرا محمودا وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تأويل قوله تعالى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا انها الكلام الطيب . وكان سعيد بن جبير يتأول أنها الصلوات الخمس . وروى سعيد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط الوجوه وحسن الخلق . وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم أنشد عنده قول الاعرابى هذا

وحى ذوى الاضغان تسب قلوبهم * تحيتك الحسنى فقد ترفع النغل

فان دحسوا بالمكر فاعف تكرما * وان خنسوا عنك الحديث فلا تسل

فان الذى يؤذيك منه سماعه * وان الذى قالوا وراءك لم يقل

فقال النبى صلى الله عليه وسلم ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا وقيل للعتابى انك تلقى العامة ببشر وتقريب قال دفع ضغينة بأيسر مؤنة واكتساب اخوان بأيسر مبذول وقيل فى منثور الحكم من قل حياؤه قل أحباؤه . وقال بعض الشعراء

بنى ان البشر شىء هين * وجه طليق وكلام لين

وقال بعضهم

المرء لا يعرف مقداره * مالم تبن للناس أفعاله

وكل من يمنعنى بشره * فقل ما ينفعنى ماله

وأما العمل فهو بذل الجاه والمساعدة بالنفس والمعونة فى النائبة وهذا يبعث عليه حب الخير للناس وايثار الصلاح لهم وليس فى هذه الامور سرف ولا لغايتها حد بخلاف النوع الاول

لانها وان كثرت فهى أفعال خير تعود بنفعين نفع على فاعلها فى اكتساب الاجر وجميل الذكر ونفع على المعان بها فى التخفيف عنه والمساعدة له . وقد روى محمد بن المنكدر عن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال كل معروف صدقة . وقال النبى صلى الله عليه وسلم صنائع المعروف تقى مصارع السوء وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال المعروف كاسمه وأول من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف وأهله . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه لا يزهدنك فى المعروف كفر من كفره فقد يشكر الشاكر بأضعاف جحود الكافر . وقال الحطيئة

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه * لا يذهب العرف بين الله والناس

وأنشد الرياشى

يد المعروف غنم حيث كانت * تحملها كفور أم شكور

فقى شكر الشكور لها جزاء * وعند الله ما كفر الكفور

فينبغى لمن يقدر على ابتداء المعروف أن يعجله حذر فواته ويبادر به خيفة عجزه وليعلم أنه من فرص زمانه وغنائم امكانه ولا يهمله ثقة بقدرته عليه فكم واثق بقدرة فاتت فاعقبت ندما ومعوّل على مكنة زالت فأورثت خجلا . وقد قال الشاعر

مازلت أسمع كم من واثق خجل * حتى ابتليت فكنت الواثق الخجلا

ولو فطن لنوائب دهره وتحفظ من عواقب مكره لكانت مغانمه مذخورة ومغارمه مجبورة فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من فتح عليه باب من الخير فلينتهزه فانه لا يدرى متى يغلق عليه وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل شئ ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح . وقيل لأنوشروان ما أعظم المصائب عندكم فقال أن تقدر على المعروف ولا تصطنعه حتى يفوت وقال عبد الحميد من أخر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها . وقال بعض الشعراء

اذا هبت رياحك فاغتنمها * فان لكل خافقة سكون

ولا تغفل عن الاحسان فيها * فما تدرى السكون متى يكون

وان درّت نياقك فاحتلبها * فما تدرى الفصيل لمن يكون

وروى أن بعض وزراء بنى العباس مطل راغبا اليه فى عمل يستكفيه اياه فكتب اليه بعد طول المطل به

أما يدعوك طول الصبر منى * على استئناف منفعتى وشغلى

وعلمك أن ذا السلطان غاد * على خطرين من موت وعزل

وأنك ان تركت قضاء حقى * الى وقت التفرغ والتخلى

ستصبح نادما أسفا مغزى * على فوت الصنيعة عند مثلى

وكتب بعض ذى الحرمات الى وال قد قصر فى رعاية حرمته يقول

أعلى الصراط تريد رعية حرمتى * أم فى الحساب تمن بالانعـام
للنفع فى الدنيا أردتك فانتبه * لحوائجى من رقدة النـوام

وكتب أبو على البصير الى بعض الوزراء وقد اعتذر اليه بكثرة الاشغال يقول

لنا كل يوم نوبة قـد تنوبها * وليس لنا رزق ولا عندنا فضـل
فان تعتذر بالشغل عنا فانما * تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

واعلم أن للمعروف شروطا لا يتم الا بها ولا يكمل الا معها فمن ذلك ستره عن اذاعة يستطيل لها واخفاؤه عن اشاعة يستدل بها . قال بعض الحكماء اذا اصطنعت المعروف فاستره واذا صنع اليك فانشره ولقد قال دعبل الخزاعى

اذا انتقموا أعلنوا أمرهم * وان أنعموا أنعموا باكتتام
يقوم القعود اذا أقبلوا * وتقعد هيبتهم بالقيام

على أن ستر المعروف من أقوى أسباب ظهوره وأبلغ دواعى نشره لما جبلت عليه النفوس من اظهار ما خفى واعلان ما كتم . وقال سهل بن هارون

خـل اذا جئتـه يوما لتسأله * أعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا
يخفى صنائعـه والله يظهرها * ان الجميـل اذا أخفيته ظهرا

ومن شروط المعروف تصغيره عن ان يراه مستكبرا وتقليله عن أن يكون مستكثرا لئلا يصير به مدلا بطرا ومستطيلا أشرا . وقال العباس بن عبد المطلب رضى الله عنـه لا يتم المعروف الا بثلاث خصال تعجيله وتصغيره وستره فاذا عجلته هنأته واذا صغرته عظمته واذا سترته أتممته . وقال بعض الشعراء

زاد معروفك عندى عظما * انه عنـدك مستور حقير
وتناسيت كأن لم تأته * وهو عند الناس مشهور خطير

ومن شروط المعروف مجانبة الامتنان به وترك الاعجاب بفعله لما فيهما من اسقاط الشكر واحباط الاجر . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اياكم والامتنان بالمعروف فانه يبطل الشكر ويمحق الاجر ثم تلا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى . وسمع ابن سيرين رجلا يقول لرجل فعلت اليك وفعلت فقال ابن سيرين اسكت فلا خير فى المعروف اذا أحصى . وقال بعض الحكماء المن مفسدة الصنيعة . وقال بعض الادباء كدر معروفا امتنان وضيع حسبا امتهان . وقال بعض البلغاء من من بمعروفه سقط شكره ومن أعجب بعمله حبط أجره

وقال بعض الفصحاء قوة المن من ضعف المن . وقال بعض الشعراء

أفسدت بالمن ما أسديت من حسن * ليس الكريم اذا أسدى بمنان

وقال أبو نواس

فامض لا تمنن على يدا * منك المعروف من كدره

وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه

لا تحملن لمن يمـن من الانام عليك منـه

واختر لنفسك حظها * واصبر فان الصبر جنه

منن الرجال على القلو * ب أشد من وقع الاسنه

ومن شروط المعروف أن لا يحتقر منه شيأ وان كان قليلا نزرا اذا كان الكثير معوزا وكنت عنه عاجزا فان من حقر يسيره فمنع منه أعجزه كثيره فامتنع عنه وفعل قليل الخير أفضل من تركه فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يمنعكم من المعروف صغيره . وقال عبد الله ابن جعفر لا تستحي من القليل فان البخل أقل منه ولا تجبن عن الكثير فانك أكثر منه . وقال الشاعر

اعمل الخير ما استطعت وان كا * ن قليلا فلن تحيط بكله

ومتى تفعل الكثير من الخيـ * ـر اذا كنت تاركا لأقله

على أن من المعروف مالا كلفة على موليه ولا مشقة على مسديه وانما هو جاه يستظل به الأدنى ويرتفق به التابع . وقال الشاعر

ظل الفتى ينفع من دونه * وما له في ظـله حظ

واعلم أنك لن تستطيع أن توسع جميع الناس معروفك ولا أن توليهم احسانك فاعتمد بذلك أهل الفضل منهم والحفاظ واقصد به ذوى الرعاية والوداد ليكون معروفك فيهم ناميا وصنيعك عندهم زاكيا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تنفع الصنيعة الا عند ذى حسب ودين . وقال النبي صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله بعبد خيرا جعل صنائعه في أهل الحفاظ وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه

ان الصنيعة لا تكون صنيعة * حتى يصاب بها طريق المصنع

فاذا صنعت صنيعة فاعمل بها * لله أو لذوى القرابة أو دع

وقيل في منثور الحكم لا خير في معروف الى غير عروف وقد ضرب الشاعر به مثلا فقال

كحمار السوء ان أشبعته * رمح الناس وان جاع نهق

وقال بعض الحكماء على قدر المغارس يكون اجتناء الغارس فأخذه بعض الشعراء فقال

لعمرك ما المعروف فى غير أهله * وفى أهله الا كبعض الودائع
فمستودع ضاع الذى كان عنده * ومستودع ما عنده غير ضائع
وما الناس فى شكر الصنيعة عندهم * وفى كفرها الا كبعض المزارع
فمزرعة طابت وأضعف نبتها * ومزرعة أكدت على كل زارع

وأما من أسدى اليه المعروف واصطنع اليه الاحسان فقد صار بأسر المعروف موثوقا وفى ملك الاحسان مرموقا ولزمه ان كان من أهل المكافأة أن يكافئ عليه وان لم يكن من أهلها أن يقابل المعروف بنشره و يقابل الفاعل بشكره . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من أودع معروفا فلينشره فان نشره فقد شكره وان كتمه فقد كفره . وروى الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أتمثل بهذين البيتين

ارفع ضعيفك لا يحدبك ضعفه * يوما فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثنى عليك وان من * أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال النبى صلى الله عليه وسلم ردى على قول اليهودى قاتله الله لقد أتانى جبرائيل برسالة من ربى تعالى أيما رجل صنع الى أخيه صنيعة فلم يجد لها جزاء الا الدعاء والثناء فقد كافأه . وقيل فى منثور الحكم الشكر قيد النعم . وقال عبد الحميد من لم يشكر الانعام فاعدده من الأنعام وقيل فى منثور الحكم قيمة كل نعمة شكرها . وقال بعض الحكماء كفر النعم من أمارات البطر وأسباب الغير . وقال بعض الفصحاء الكريم شكور أو مشكور واللئيم كفور أو مكفور . وقال بعض البلغاء لا زوال للنعمة مع الشكر ولا بقاء لها مع الكفر . وقال بعض الادباء

شكر الاله بطول الثناء * وشكر الولاة بصدق الولاء
وشكر النظير بحسن الجزاء * وشكر الدنى بحسن العطاء

وقال بعض الشعراء

فلو كان يستغنى عن الشكر ماجد * لعزة ملك أو علو مكان
لما أمر الله العباد بشكره * فقال اشكروا لى أيها الثقلان

فان من شكر معروف من أحسن اليه ونشر افضال من أنعم عليه فقد أدى حق النعمة وقضى موجب الصنيعة ولم يبق عليه الا استدامة ذلك اتماما لشكره ليكون للمزيد مستحقا ولمتابعة الاحسان مستوجبا . حكى أن الحجاج أتى اليه بقوم من الخوارج وكان فيهم صديق له

فأمر بقتلهم الاذلك الصديق فانه عفا عنه وأطلقه ووصله فرجع الرجل الى قطرى بن الفجاءة وكان من أصحابه فقال له عد الى قتال الحجاج عدو الله فقال هيهات غل يدا مطلقها واسترق رقبة معتقها وأنشأ يقول

أأقاتل الحجاج عن سلطانه * بيد تقر بأنها مولاته
انى اذا لأخو الدناءة والذى * شهدت بأقبح فعله غدراته
ماذا أقول اذا وقفت ازاءه * فى الصف واحتجت له فعلاته
أأقول جار على لا انى اذا * لأحق من جارت عليه ولاته
وتحدث الاقوام ان صنائعا * غرست لدى فحنظلت نخلاته

وقيل فى منثور الحكم المعروف رق والمكافأة عتق ومن أشكر الناس الذى يقول

لأشكرنك معروفا هممت به * ان اهتمامك بالمعروف معروف
ولا ألومك ان لم يمضه قدر * فالشئ بالقدر المحتوم مصروف

وهذا النوع من الشكر الذى يتعجل المعروف ويتقدم البر قد يكون على وجوه فيكون تارة من حسن الثقة بالمشكور فى وصول بره واسداء عرفه ولا رأى لمن يحسن به ظن شاكر أن يخلف حسن ظنه فيه فيكون كما قال العتابى

قد أورقت فيك آمالى بوعدك لى * وليس فى ورق الآمال لى ثمر

وقد يكون تارة من فرط شكر الراجى وحسن مكافأة الآمل فلا يرضى لنفسه الا بتعجيل الحق واسلاف الشكر وليس لمن صادف لمعروفه معدنا زاكيا ومغرسا ناميا أن يفوت نفسه غنما ولا يحرم مهاربحا فهذا وجهان وقد يكون تارة ارتهانا للمأمول وحثا للمسؤل وبحسب ما أسلف من الشكر يكون الذم عند الاياس . وقال بعض الادباء من حكماء المتقدمين من شكرك على معروف لم تسده اليه فعاجله بالبر والا انعكس فصار ذما . وقال ابن الرومى

وما الحقد الا توأم الشكر فى الفتى * وبعض السجايا ينتسبن الى بعض
فحيث ترى حقدا على ذى اساءة * فثم ترى شكرا على حسن القرض
اذا الارض أدت ريع ما أنت زارع * من البذر فيها فهى ناهيك من أرض

وأما من ستر معروف المنعم ولم يشكره على ما أولاه من نعمه فقد كفر النعمة وجحد الصنيعة وان من أذم الخلائق وأسوأ الطرائق ما يستوجب به قبح الرد وسوء المنع . فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يشكر الله من لا يشكر الناس . وقال بعض الادباء من لم يشكر لمنعمه استحق قطع النعمة . وقال بعض الفصحاء من كفر نعمة

المفسد استوجب حرمان المزيد . وقال بعض البلغاء من أنكر الصنيعة استوجب قبح القطيعة وأنشدني بعض الادباء ماذكر أنه لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه

من جاور النعمة بالشكر لم * يخش على النعمة مغتالها
لو شكروا النعمة زادتهم * مقالة الله التي قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم * لكنما كفرهم غالها
والكفر بالنعمة يدعو الى * زوالها والشكر أبقى لها

وهذا آخر ما يتعلق بالقاعدة الثانية من أسباب الالفة الجامعة . فأما القاعدة الثالثة فهي المادة الكافية لان حاجة الانسان لازمة لا يعرى منها بشر . قال الله تعالى وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين فاذا عدم المادة التي هي قوام نفسه لم تدم له حياة ولم يستقم له دين واذا تعذر شئ منها عليه لحقه من الوهن في نفسه والاختلال في دنياه بقدر ما تعذر من المادة عليه لان الشئ القائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله ثم لما كانت المواد مطلوبة لحاجة الكافة اليها أعوزت بغير طلب وعدمت لغير سبب وأسباب المودة مختلفة وجهات المكاسب متشعبة ليكون اختلاف أسبابها علة الائتلاف بها وتشعب جهاتها توسعة لطلابها كيلا يجتمعوا على سبب واحد فلا يلتئمون أو يشتركوا في جهة واحدة فلا يكتفون ثم هداهم اليها بعقولهم وأرشدهم اليها بطباعهم حتى لا يتكلفوا ائتلافهم في المعايش المختلفة فيعجزوا ولا يعانوا بتقدير موادهم بالمكاسب المتشعبة فيختلوا حكمة منه سبحانه وتعالى اطلع بها على عواقب الامور وقد أنبأ الله تعالى في كتابه العزيز اخبارا واذكارا فقال سبحانه وتعالى قال ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى اختلف المفسرون في تأويل ذلك فقال قتادة أعطى كل شئ ما يصلحه ثم هداه وقال مجاهد أعطى كل شئ صورته ثم هداه لمعيشته وقال تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون يعني معايشهم متى يزرعون ومتى يغرسون . وقال تعالى وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين قال عكرمة قدر في كل بلدة منها ما لم يجعله في الاخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد الى بلد . وقال الحسن البصري وعبد الرحمن بن زيد قدر أرزاق أهلها سواء للسائلين الزيادة في أرزاقهم ثم ان الله تعالى جعل لهم مع ما هداهم اليه من مكاسبهم وأرشدهم اليه من معايشهم دينا يكون عليهم حكما وشرعا يكون لهم قيما ليصلوا الى موادهم بتقديره ويطلبوا أسباب مكاسبهم بتدبيره حتى لا ينفردوا بارادتهم فيتغالبوا وتستولي عليهم أهواؤهم فيتقاطعوا قال الله تعالى ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض . قال المفسرون

فى هـذا الموضع هو الله جل جلاله فلاجل ذلك لم يجعل المواد مطلوبة بالالهام حتى جعل العقل هاديا اليها والدين قاضيا عليها لتتم السعادة وتعم المصلحة ثم انه جلت قدرته جعل سد حاجتهم وتوصلهم الى منافعهم من وجهين بمادة وكسب فأما المادة فهى حادثة عن اقتناء أصول نامية بذواتها وهى شيئان نبت نام وحيوان متناسل . قال الله تعالى وأنه هو أغنى وأقنى قال أبو صالح أغنى خلقه بالمال وأقنى جعل لهم قنية وهى أصول الاموال وأما الكسب فيكون بالافعال الموصلة الى المادة والتصرف المؤدى الى الحاجة وذلك من وجهين أحدهما تقلب فى تجارة والثانى تصرف فى صناعة وهذان هما فرع لوجهى المادة فصارت أسباب المواد المألوفة وجهات المكاسب المعروفة من أربعة أوجه نماء زراعة ونتاج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة . وحكى الحسن بن رجاء مثل ذلك عن المأمون قال سمعته يقول معايش الناس على أربعة أقسام زراعة وصناعة وتجارة وامارة فمن خرج عنها كان كلا عليها واذ قد تقررت أسباب المواد بما ذكرناه فسنصف حال كل واحد منها بقول موجز . أما الاول من أسبابها وهى الزراعة فهى مادة أهل الحضر وسكان الامصار والمدن والاستمداد بها أعم نفعا وأوفى فرعا ولذلك ضرب الله تعالى بها المثل فقال مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال خير المال عين ساهرة لعين نائمة . وقال صلى الله عليه وسلم نعمت الكم النخلة تشرب من عين خرارة وتغرس فى أرض خوارة . وقال صلى الله عليه وسلم فى النخل هى الراسخات فى الوحل المطعمات فى المحل . وقال بعض السلف خير المال عين خرارة فى أرض خوارة تسهر اذا نمت وتشهد اذا غبت وتكون عقبا اذا امت . وروى هشام بن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التمسوا الرزق فى خبايا الارض يعنى الزرع . وحكى عن المعتضد أنه قال رأيت على بن أبى طالب رضى الله عنه فى المنام يناولنى المسحاة وقال خذها فانها مفاتيح خزائن الارض . وقال كسرى للموبذ ماقيمة تاجى هـذا فأطرق ساعة ثم قال ما أعرف له قيمة الا أن تكون مطرة فى نيسان فانها تصلح من معايش الرعية ماتكون قيمته مثل تاج الملك . ولقى عبد الله بن عبد الملك بن شهاب الزهرى فقال له ادللنى على مال أعالجه فانشأ ابن شهاب يقول

تتبع خبايا الارض وادع مليكها * لعلك يوما أن تجاب فترزقا
فيؤتيك مالا واسعا ذا متانة * اذا ماميا الارض غارت تدفقا

وقد اختلف الناس فى تفضيل الزرع والشجر بما ليس يتسع كتابنا هذا لبسط القول فيه غير أن

من فضل الزرع فلقرب مداه ووفور جداه ومن فضل الشجر فلثبوت أصله وتوالي ثمره . وأما الثاني من أسبابها وهو نتاج الحيوان فهو مادة أهل الفلوات وسكان الخيام لانهم لما لم تستقر بهم دار ولم تضمهم أمصار افتقروا الى الاموال المنتقلة معهم وما لا ينقطع نماؤه بالظعن والرحلة فاقتنوا الحيوان لانه يستقل في النقلة بنفسه ويستغني عن العلوفة برعيه ثم هو مركوب ومحلوب فكان اقتناؤه على أهل الخيام أيسر لقلة مؤنته وتسهيل الكلفة به وكانت جدواه عليهم أكثر لوفور نسله واقتيات رسله الهاما من الله لخلقه في تعديل المصالح فيهم وارشادا لعباده في قسم المنافع بينهم . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم مهرة مأمورة أي كثيرة النسل ومنه ما تأول الحسن وقتادة قوله تعالى أمرنا مترفيها أي كثرنا عددهم وأما السكة المأبورة فهي النخلة المؤبرة الحمل . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الغنم سمنها معاش وصوفها رياش . وروى عن أبي ظبيان أنه قال قال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما مالك يا أبا ظبيان قال قلت عطائي ألفان قال اتخذ من هذا الحرث والسائبات قبل أن تليك غلمة من قريش لا تعد العطاء معهم مالا والسائبات النتاج . وحكى أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله اني اتخذت غنما أبتغي نسلها ورسلها وانها لا تنمي فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم ما ألوانها قالت سود فقال لها عفرى وهذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم في مناكح الآدميين أغربوا لا تضووا . وأما الثالث من أسبابها وهي التجارة فهي فرع لمادتي الزرع والنتاج فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال تسعة أعشار الرزق في التجارة والجزء الباقي في السائبات وهي نوعان تقلب في الحضر من غير نقلة ولا سفر وهذا تربص واحتكار وقد رغب عنه ذوو الاقتدار وزهد فيه ذوو الاخطار والثاني تقلب بالمال بالاسفار ونقلة الى الامصار فهذا أليق بأهل المروءة وأعم جدوى ومنفعة غير أنه أكثر خطرا وأعظم غررا فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان المسافر وماله لعلى قلت الا ما وقى الله يعني على خطر وفي التوراة يا ابن آدم أحدث سفرا أحدث لك رزقا . وأما الرابع من أسبابها وهو الصناعة فقد يتعلق بما مضى من الاسباب الثلاثة وتنقسم أقساما ثلاثة صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين فكر وعمل لان الناس آلات للصناعات فأشرفهم نفسا متهيئ لاشرفها جنسا كما أن أرذلهم نفسا متهيئ لأرذلها جنسا لان الطبع يبعث على ما يلائمه ويدعو الى ما يجانسه . وحكى أن الاسكندر لما أراد الخروج الى أقاصي الارض قال لارسطاطاليس اخرج معي قال قد نحل جسمي وضعفت عن الحركة فلا تزعجني قال فما أصنع

فى عمالى خاصة قال انظر الى من كان له عبيد فأحسن سياستهم فوله الجنود ومن كانت له ضيعة فأحسن تدبيرها فوله الخراج فنبه باعتبار الطباع على ما أغناه عن كلفة التجربة وأشرف الصناعات صناعة الفكر وأرذلها صناعة العمل لان العمل نتيجة الفكر وتدبيره فأما صناعة الفكر فقد تنقسم قسمين أحدهما ما وقف على التدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدبير البلاد وقد أفردنا للسياسة كتابا خصصنا فيه من جملها ما ليس يحتمل هذا الكتاب زيادة عليها والثانى ما أدت الى المعلومات الحادثة عن الافكار النظرية وقد مضى فى فضل العلم من كتابنا هذا باب أغنى ما فيه عن زيادة قول فيه وأما صناعة العمل فقد تنقسم قسمين عمل صناعى وعمل بهيمى فالعمل الصناعى أعلاهما رتبة لانه يحتاج الى معاطاة فى تعلمه ومعاناة فى تصوره فصار بهذه النسبة من المعلومات الفكرية والآخر انما هو صناعة كد وآلة مهنة وهى الصناعة التى تقتصر عليها النفوس الرذلة وتقف عليها الطباع الخاسئة كما قال أكثم بن صيفى لكل ساقطة لاقطة وكما قال المتلمس

ولا يقيم على ضيم يسام به * الا الاذلان عير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته * وذا يشج فلا يرثى له أحد

وأما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فقد تنقسم قسمين أحدهما أن تكون صناعة الفكر أغلب والعمل تبعا كالكتابة والثانى أن تكون صناعة العمل أغلب والفكر تبعا كالبناء وأعلاهما رتبة ما كانت صناعة الفكر أغلب عليها والعمل تبعا لها فهذه أحوال الخلق التى ركبهم الله عز وجل عليها فى ارتياد موادهم ووكلهم الى نظرهم فى طلب مكاسبهم وفرق بين هممهم فى التماسها ليكون ذلك سببا لألفتهم فسبحان من تفرد فينا بلطف حكمته وأظهر لفطنتنا عزائم قدرته واذ قد وضح القول فى أسباب المواد وجهات الكسب فليس يخلو حال الانسان فيهما من ثلاثة أمور أحدها أن يطلب منها قدر كفايته ويلتمس وفق حاجته من غير أن يتعدى الى زيادة عليها أو يقتصر على نقصان منها فهذه أحمد أحوال الطالبين وأعدل مراتب المقتصدين . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أوحى الله تعالى الى كلمات فدخلن فى اذنى ووقرن فى قلبى من أعطى فضل ماله فهو خير له ومن أمسك فهو شر له ولا يلم الله على كفاف . وروى حميد عن معاوية بن جندة قال قلت يا رسول الله ما يكفينى من الدنيا قال ما يسد جوعتك ويستر عورتك فان كان دار افذاك وان كان حمار افبخ بخ فلق من خبز وجر من ماء وأنت مسؤل عما فوق الازار . وقد روى عن ابن عباس ومجاهد فى قوله تعالى اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا أن كل من ملك بيتا وزوجة وخادما فهو ملك .

وروى زيد بن أسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان له بيت وخادم فهو ملك وهو في المعنى صحيح لانه بالزوجة والخادم مطاع في أمره وفي الدار محجوب الاعن اذنه وليس على من طلب قدر الكفاية ولم يجاوز تبعات الزيادة الا توخي الحلال منه واجمال الطلب فيه ومجانبة الشبهة الممازجة له . وقد روى نافع عن ابن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات فدع ما يريبك الى ما لا يريبك فلن تجد فقد شيء تركته لله . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزهد فقال أما انه ليس باضاعة المال ولا بتحريم الحلال ولكن أن تكون بما بيد الله أوثق منك بما في يديك وأن يكون ثواب المصيبة أرجح عندك من بقائها . وحكى عبد الله بن المبارك قال كتب عمر بن عبد العزيز الى الجراح بن عبد الله الحكمي ان استطعت أن تدع مما أحل الله لك ما يكون حاجزا بينك وبين الحرام فافعل فانه من استوعب الحلال تاقت نفسه الى الحرام وقد اختلف أهل التأويل في قوله تعالى فان له معيشة ضنكا فقال عكرمة يعني كسبا حراما وقال ابن عباس هو انفاق من لا يوقن بالخلف وقال يحيى بن معاذ الدرهم عقرب فاذا أحسنت رقيتها والا فلا تأخذها وقيل من قل توقيه كثرت مساويه . وقال بعض البلغاء خير الاموال ما أخذته من الحلال وصرفته في النوال وشر الاموال ما أخذته من الحرام وصرفته في الآثام وكان الاوزاعي الفقيه كثيرا ما يتمثل بهذه الابيات

المال ينفد حله وحرامه * يوما ويبقى بعده آثامه
ليس التقي بمتق لالهه * حتى يطيب شرابه وطعامه
ويطيب ما يجني ويكسب أهله * ويطيب من لفظ الحديث كلامه
نطق النبي لنا به عن ربه * فعلى النبي صلاته وسلامه

وحكي عن ابن المعتمر السلمي قال الناس ثلاثة أصناف أغنياء وفقراء وأوساط فالفقراء موتى الا من أغناه الله بعز القناعة والاغنياء سكارى الا من عصمه الله تعالى بتوقع الغير وأكثر الخير مع أكثر الاوساط وأكثر الشر مع أكثر الفقراء والاغنياء لسخف الفقر وبطر الغنى والامر الثاني أن يقصر عن طلب كفايته ويزهد في التماس مادته وهذا التقصير قد يكون على ثلاثة أوجه فيكون تارة كسلا وتارة توكلا وتارة زهدا وتقنعا فان كان تقصيره لكسل فقد حرم ثروة النشاط ومرح الاغتباط فلن يعدم أن يكون كلا قصيا أو ضائعا شقيا . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كاد الحسد يغلب القدر وكاد الفقر أن يكون كفرا وقال بزرجمهر ان كان شيء فوق الحياة فالصحة وان كان شيء مثلها فالغنى وان كان شيء

فوق الموت فالمرض وان كان شئ مثله فالفقر . وقيل فى منثور الحكم القبر خير من الفقر ووجد فى نيل مصر مكتوب على حجر

عقب الصبر نجاح وغنى * ورداء الفقر من نسج الكسل

وقال بعض الشعراء

أعوذ بك اللهم من بطر الغنى * ومن نهكة البلوى ومن ذلة الفقر

ومن أمل يمتد فى كل شارق * يرجعنى منه بحظ يد صفر

اذا لم تدنسنى الذنوب بعارها * فلست أبالى ماتشعث من أمرى

واذا كان تقصيره لتوكل فذلك عجز قد أعذر به نفسه وترك حزم قد غير اسمه لان الله تعالى انما أمر بالتوكل عند انقطاع الحيل والتسليم الى القضاء بعد الاعواز . وقد روى معمر عن أيوب عن أبى قلابة قال ذكر عند النبى صلى الله عليه وسلم رجل فذكر فيه خير فقالوا يارسول الله خرج معنا حاجا فاذا نزلنا منزلا لم يزل يصلى حتى نرحل فاذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله عز وجل حتى ننزل فقال صلى الله عليه وسلم فمن كان يكفيه علف ناقته وصنع طعامه قالوا كلنا يارسول الله قال كلكم خير منه . وقال بعض الحكماء ليس من توكل المرء اضاعته للحزم ولا من الحزم اضاعة نصيبه من التوكل . وان كان تقصيره لزهد وتقنع فهذه حال من علم بمحاسبة نفسه بتبعات الغنى والثروة وخاف عليها بوائق الهوى والقدرة فآثر الفقر على الغنى وزجر النفس عن ركوب الهوى فقد روى أبو الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن يوم طلعت فيه شمسه الا وعلى جنبتيها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم الا الثقلين ياأيها الناس هلموا الى ربكم ان ماقل وكفى خير مما كثر وألهى . وروى زيد بن على بن الحسين عن أبيه عن جده رضى الله عنهم أجمعين أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظار الفرج من الله بالصبر عبادة ومن رضى من الله عز وجل بالقليل من الرزق رضى الله عز وجل منه بالقليل من العمل . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال من بل الفقر أنك لاتجد أحدا يعصى الله ليفتقر فأخذه محمود الوراق فقال

ياعائب الفقر ألا تزدجر * عيب الغنى أكثر لو تعتبر

من شرف الفقر ومن فضله * على الغنى ان صح منك النظر

أنك تعصى لتنال الغنى * ولست تعصى الله كى تفتقر

وقال ابن المقفع

دليلك أن الفقر خير من الغنى * وأن قليل المال خير من المثرى

لقاؤك مخلوقا عصى الله بالغنى * ولم تر مخلوقا عصى الله بالفقر

وهذه الحال انما تصح لمن نصح نفسه فأطاعته وصدقها فأجابته حتى لان قيادها وهان عنادها وعلمت أن من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير كما كتب الحسن البصرى الى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما يا أخى من استغنى بالله اكتفى ومن انقطع الى غيره تعنى ومن كان من قليل الدنيا لا يشبع لم يغنه منها كثرة ما يجمع فعليك منها بالكفاف وألزم نفسك العفاف واياك وجمع الفضول فان حسابه يطول . وقال بعض الحكماء هيهات منك الغنى ان لم يقنعك ما حويت فأما من أعرضت نفسه عن قبول نصحه وجمحت به عن قناعة زهده فليس الى اكراهها سبيل ولا للحمل عليها وجه الا بالرياضة والمروءة وأن يستنزلها الى اليسير الذى لا تنفر منه فاذا استقرت عليه أنزلها الى ما هو أقل منه لتنتهى بالتدريج الى الغاية المطلوبة وتستقر بالرياضة والتمرين على الحال المحبوبة . وقد تقدم قول الحكماء ان المكروه يسهل بالتمرين فهذا حكمها فى الامر الثانى من التقصير عن طلب الكفاية وأما الامر الثالث فهو أن لا يقنع بالكفاية و يطلب الزيادة والكثرة فقد يدعو الى ذلك أربعة أسباب أحدها منازعة الشهوات التى لا تنال الا بزيادة المال وكثرة المادة فاذا نازعته الشهوة طلب من المال ما يوصله اليها وليس للشهوات حد متناه فيصير ذلك ذريعة الى أن ما يطلبه من الزيادة غير متناه ومن لم يتناه طلبه استدام كده وتعبه فلم يف التذاذه بنيل شهواته بما يعانيه من استدامة كده واتعابه مع ما قد لزمه من ذم الانقياد لمغالبة الشهوات والتعرض لاكتساب التبعات حتى يصير كالبهيمة التى قد انصرف طلبها الى ما تدعو اليه شهوتها فلا تنزجر عنه بعقل ولا تنكف عنه بقناعة . وقد روى عن على عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من أراد الله به خيرا حال بينه و بين شهوته وحال بينه وبين قلبه واذا أراد به شرا وكله الى نفسه . وقد قال الشاعر

وانك ان أعطيت بطنك همه * وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

والسبب الثانى أن يطلب الزيادة و يلتمس الكثرة ليصرفها فى وجوه الخير و يتقرب بها فى جهات البر و يصطنع بها المعروف ويغيث بها الملهوف فهذا أعذر وبالحمد أحرى وأجدر اذا انصرفت عنه تبعات المطالب وتوقى شبهات المكاسب وأحسن التقدير فى حالتى فائدته وافادته على قدر الزيادة و بقدر الامكان لان المال آلة للمكارم وعون على الدين ومتألف للاخوان ومن فقده من أهل الدنيا قلت الرغبة فيه والرهبة منه ومن لم يكن منهم بموضع رهبة ولا رغبة استهانوا به . وقد روى عبد الله بن بريدة عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان حساب أهل الدنيا هذا المال . وقال مجاهد الخير فى القرآن كله المال وانه لحب الخير لشديد يعنى المال وأحببت حب الخير عن ذكر ربى يعنى المال فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا يعنى مالا

وقال شعيب النبى عليه السلام انى أرا كم بخير يعنى المال وانما سمى الله تعالى المال خيرا اذا كان فى الخير مصروفا لان ما أدى الى الخير فهو فى نفسه خير وقد اختلف أهل التأويل فى قوله تعالى ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار فقال السدى وعبد الرحمن بن زيد الحسنة فى الدنيا المال وفى الآخرة الجنة وقال الحسن البصرى وسفيان الثورى الحسنة فى الدنيا العلم والعبادة وفى الآخرة الجنة وقال ابن عباس الدراهم والدنانير خواتم الله فى الارض لا تؤكل ولا تشرب حيث قصدت بها قضيت حاجتك . وقال قيس بن سعد اللهم ارزقنى حمدا ومجدا فانه لا حمد الا بفعال ولا مجد الا بمال . وقد قيل لابى الزناد لم تحب الدراهم وهى تدنيك من الدنيا فقال هى وان أدنتنى منها فقد صانتنى عنها وقال بعض الحكماء من أصلح ماله فقد صان الأكرمين الدين والعرض . وقيل فى منثور الحكم من استغنى كرم على أهله ومر رجل من أرباب الاموال ببعض العلماء فتحرك له وأكرمه فقيل له بعد ذلك أكانت لك الى هذا حاجة قال لا ولكنى رأيت ذا المال مهيبا وسأل رجل محمد بن عمير ابن عطارد وعتاب بن ورقاء فى عشر ديات فقال محمد على دية وقال عتاب الباقى على فقال محمد نعم العون اليسار على المجد وقال الاحنف بن قيس

فلو كنت مثر بمال كثير * لجدت وكنت له باذلا
فان المروءة لا تستطاع * اذا لم يكن مالها فاضلا

وكان يقال الدراهم مراهم لانها تداوى كل جرح ويطيب بها كل صلح . وقال ابن الجلال

رزقت مالا ولم ترزق مروءته * وما المروءة الا كثرة المال
اذا أردت رقى العلياء يقعدنى * عما ينوه باسمى رقة الحال

وقيل فى منثور الحكم الفقر مخذلة والغنى مجذلة والبؤس مرذلة والسؤال مبذلة .
وقال أوس بن حجر

أقيم بدار الحزم مادام حزمها * وأحرى اذا حالت بان أتحولا
فانى وجدت الناس الا أقلهم * خفاف عهود يكثرون التنقلا
بنى أم ذى المال الكثير يرونه * وان كان عبدا سيد الامر جحفلا
وهم لمقل المال أولاد علة * وان كان محضا فى العشيرة مخولا

وقال بشر الضرير

كفى حزنا انى أروح وأغتدى * ومالى من مال أصون به عرضى
وأكثر ما ألقى الصديق بمرحبا * وذلك لا يكفى الصديق ولا يرضى

وقال آخر

أجلك قوم حين صرت الى الغنى * وكل غنىّ فى العيون جليـــل
وليس الغنى الا غنى زين الفتى * عشيـة يقرى أوغداة ينيـــل

وقد اختلف الناس فى تفضيـل الغنى والفقر مع اتفاقهـم على أن ما أحوج من الفقر مكروه وما أبطر من الغنى مذموم فذهب قوم الى تفضيل الغنى عن الفقر لان الغنىّ مقتدر والفقير عاجز والقدرة أفضـل من العجز وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة وذهب آخرون الى تفضيل الفقر على الغنى لان الفقير تارك والغنى ملابس وترك الدنيا أفضل من ملابستها وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة وذهب آخرون الى تفضيل التوسط بين الامرين بان يخرج عن حدّ الفقر الى أدنى مراتب الغنى ليصل الى فضيلة الامرين ويسلم من مذمة الحالين وهذا مذهب من يرى تفضيـل الاعتدال وأن خيار الامور أوساطها وقد مضى شواهد كل فريق فى موضعه بما أغنى عن اعادته . والسبب الثالث أن يطلب الزيادة و يقتنى الاموال ليـدّخرها لولده ويخلفها لورثته مع شدة ضـنه على نفســه وكفه عن صرف ذلك فى حقه اشـفاقا عليهم من كدح الطالب وسوء المنقلب وهذا شقىّ بجمعها مأخوذ بوزرها قد استحق اللوم من وجوه لاتخفى على ذى لب منها سوء ظنه بخالقه أنه لا يرزقهم الا من جهته وقد قيل قتل القنوط صاحبه وفى حسن الظن بالله راحة القلوب . وقال عبد الحميد كيف تبقى على حالتك والدهر فى احالتك ومنها الثقة ببقاء ذلك على ولده مع نوائب الزمان ومصائبه وقد قيل الدهر حسود لا يأتى على شئ الا غيره . وقيل فى منثور الحكم المال ملول . وقال بعض الحكماء الدنيا ان بقيت لك لاتبقى لها ومنها ما حرم من منافع ماله وسلب من وفور حاله وقد قيل انما مالك لك أو للوارث أو للجائحة فلا تكن أشقى الثلاثة . وقال عبـد الحميد اطرح كواذب آمالك وكن وارث مالك ومنها ما لحقه من شقاء جمعه وناله من عناء كدّه حتى صار ساعيا محروما وجاهدا مذموما وقد قيل رب مغبوط بمسرّة هى داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه وقال الشاعر

ومن كلفته النفس فوق كفافها * فما ينقضى حتى الممات عناؤه

ومنها ما يؤاخذ به من وزره وآثامه ويحاسب عليه من تبعاته واجرامه . وقد حكى أن هشام بن عبد الملك لما ثقل بكى ولده عليه فقال لهم جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء وترك لكم ما كسب وتركتم عليه ما اكتسب ما أسوأ حال هشام ان لم يغفر الله له فأخذ هذا المعنى محمود الوراق فقال

تمتع بمالك قبل الممات * والا فلامال ان أنت متنا
شقيت به ثم خلفته * لغيرك بعدا وسحقا ومقتا
فجادوا عليك بزور البكاء * وجدت عليهم بما قد جمعتا
وأرهنتهم كل مافى يديك * وخلوك رهنا بما قد كسبتا

وروى أن العباس بن عبد المطلب جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ولنى فقال النبى صلى الله عليه وسلم ياعباس ياعم النبى صلى الله عليه وسلم قليل يكفيك خير من كثير برديك ياعباس ياعم النبى نفس تحييها خير من امارة لاتحصيها ياعباس ياعم النبى صلى الله عليه وسلم ان الامارة أولها ندامة وأوسطها ملامة وآخرها جزاء يوم القيامة فقال يارسول الله الامن عدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تعدلون مع الاقارب . وقال رجل للحسن البصرى رحمه الله انى أخاف الموت وأكرهه فقال انك خلفت مالك ولوقدمته اسرك اللحاق به . وقيل فى منثور الحكم كثرة مال الميت تعزى ورثته عنه فأخذ هذا المعنى ابن الرومى فقال وزاد

أبقيت مالك ميراثا لوارثه * فليت شعرى ما أبقى لك المال
القوم بعدك فى حال تسرهم * فكيف بعدهم حالت بك الحال
ملوا البكاء فما يبكيك من أحد * واستحكم القول فى الميراث والقال
ولتهم عنك دنيا أقبلت لهم * وأدبرت عنك والايام أحوال

والسبب الرابع أن يجمع المال و يطلب المكاثرة استحلاء لجمعه وشغفا باحتجابه فهذا أسوأ الناس حالا فيه وأشدهم حرمانا له قد توجهت اليه سائر الملاوم حتى صار وبالا عليه ومذاما له وفى مثله قال الله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم فقال النبى صلى الله عليه وسلم تبا للذهب تبا للفضة فشق ذلك على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا أى مال نتخذ فقال عمر رضى الله عنه أنا أعلم لكم ذلك فقال يارسول الله ان أصحابك قد شق عليهم فقالوا أى مال نتخذ فقال لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه . وروى شهر بن حوشب عن أبى أمامة قال مات رجل من أهل الصفة فوجد فى مئزره دينار فقال النبى صلى الله عليه وسلم كية ثم مات آخر فوجد فى مئزره ديناران فقال النبى صلى الله عليه وسلم كيتان وانما ذكر ذلك فيهما وان كان قدمات على عهده من ترك أموالا جمة وأحوالا ضخمة فلم يكن فيه ما كان فى هذين لانهما تظاهرا بالقناعة واحتجنا ماليس بهما اليه حاجة فصار ما احتجناه وزرا عليهما وعقابا لهما . وقد قال الشاعر

اذا كنت ذا مال ولم تك ذا ندى * فأنت اذا والمقترون سواء
على أن فى الاموال يوما تباعة * على أهلها والمقترون براء

وأنشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه

ان الذى رزق اليسار فلم يصب * حمدا ولا أجرا لغير موفق
والجد يدنى كل شئ شاسع * والجد يفتح كل باب مغلق
وأحق خلق الله بالهم امرؤ * ذو همة عليا وعيش ضيق
ومن الدليل على القضاء وكونه * بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق
فاذا سمعت بأن مجدودا حوى * عودا فأورق فى يديه فحقق
واذا سمعت بان محدودا أتى * ماء ليشربه فجف فصدق

وآفة من بلى بالجمع والاستكثار ومنى بالامساك والادخار حتى انصرف عن رشده فغوى وانحرف عن سنن قصده فهوى أن يستولى عليه حب المال وبعد الامل فيبعثه حب المال على الحرص فى طلبه ويدعوه بعد الامل على الشح به والحرص والشح أصل لكل ذم وسبب لكل لؤم لان الشح يمنع من أداء الحقوق ويبعث على القطيعة والعقوق ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم شر ما أعطى العبد شح هالع وجبن خالع. وقال بعض الحكماء الغنى البخيل كالقوى الجبان وأما الحرص فيسلب فضائل النفس لاستيلائه عليها ويمنع من التوفر على العبادة لتشاغله عنها ويبعث على التورط فى الشبهات لقلة تحرزه منها وهذه ثلاث حالات هن جامعات الرذائل سالبات الفضائل مع أن الحريص لا يستزيد بحرصه زيادة على رزقه سوى اذلال نفسه واسخاط خالقه. وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الحريص الجاهد والقنوع الزائد يستوفيان أكلهما غير منتقص منه فعلام التهافت. وقال بعض الحكماء الحرص مفسدة للدين والمروءة والله ما عرفت من وجه رجل حرصا فرأيت أن فيه مصطنعا وقال آخر الحريص أسير مهانة لا يفك أسره. وقال بعض البلغاء المقادير الغالبة لا تنال بالمغالبة والارزاق المكتوبة لا تنال بالشدة والمكالبة فذلل للمقادير نفسك واعلم بانك غير نائل بالحرص الا حظك. وقال بعض الادباء رب حظ أدركه غير طالبه ودر أحرزه غير جالبه. وأنشدنى بعض أهل الادب لمحمد بن حازم

يا أسير الطمع الكا * ذب فى غل الهوان
ان عز اليأس خير * لك من ذل الامانى

سامح الدهر اذا عز وخذ صفو الزمان
ربما أعدم ذو الحرص * وأثرى ذو التوانى

وليس للحريص غاية مقصودة يقف عندها ولا نهاية محدودة يقنع بها لانه ان وصل بالحرص الى ما أمل أغراه ذلك بزيادة الحرص والامل واذا لم يصل رأى اضاعة الغناء لوما والصبر عليه حزما وصار بما سلف من عنائه أقوى رجاء وأبسط أملا . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يشيب ابن آدم و يبقى معه خصلتان الحرص والامل وقيل للمسيح عليه السلام ما بال المشايخ أحرص على الدنيا من الشباب قال لانهم ذاقوا من طعم الدنيا ما لم يذقه الشباب ولو صدق الحريص نفسه واستنصح عقله لعلم أن من تمام السعادة وحسن التوفيق الرضاء بالقضاء والقناعة بالقسم . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اقتصدوا فى الطلب فان ما رزقتموه أشد طلبا لكم منكم له وما حرمتموه فلن تنالوه ولو حرصتم . وروى أن جبريل على نبينا وعليه السلام هبط على النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان الله تبارك وتعالى يقرأ عليك السلام ويقول لك اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى فأمر النبى صلى الله عليه وسلم مناديا ينادى من لم يتأدب بأدب الله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات . وقيل مكتوب فى بعض الكتب ردوا أبصاركم عليكم فان لكم فيها شغلا وقال مجاهد فى تأويل قوله تعالى ولنحيينه حياة طيبة قال بالقناعة وقال أكثم بن صيفى من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والمروءة . وقال بعض السلف قد يخيب الجاهد الساعى ويظفر الوادع الهادى فأخذه البحترى فقال

لم ألق مقدورا على استحقاقه * فى الحظ اما ناقصا أو زائدا
وعجبت للمجدود يحرم ناصبا * كلفا وللمجدود يغنم قاعدا
ما خطب من حرم الارادة قاعدا * خطب الذى حرم الارادة جاهدا

وقال بعض الحكماء ان من قنع كان غنيا وان كان مقترا ومن لم يقنع كان فقيرا وان كان مكثرا وقال بعض البلغاء اذا طلبت العز فاطلبه بالطاعه واذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة فمن أطاع الله عز وجل عز نصره ومن لزم القناعة زال فقره . وقال بعض الادباء القناعة عز المعسر والصدقة حرز الموسر . وقال بعض الادباء

انى أرى من له قنوع * يدرك ما نال من تمنى
والرزق يأتى بلا عناء * وربما فات من تعنى

والقناعة قد تكون على ثلاثة أوجه فالوجه الاول أن يقنع بالبلغة من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه وهذا أعلى منازل أهل القناعة . وقال الشاعر

اذا شئت أن تحيا غنيا فلا تكن * على حالة الا رضيت بدونها

وقال مالك بن دينار أزهد الناس من لا تتجاوز رغبته من الدنيا بلغته . وقال بعض الحكماء الرضا بالكفاف يؤدى الى العفاف . وقال بعض الادباء رب ضيق أفضل من سعة وعناء خير من دعة . وأنشدني بعض أهل الادب وذكر أنه لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه

أفادتني القناعة كل عز * وأي غنى أعز من القناعة

فصيرها لنفسك رأس مال * وصير بعدها التقوى بضاعه

والوجه الثاني أن تنتهي به القناعة الى الكفاية ويحذف الفضول والزيادة وهذا أوسط حال المقتنع . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال مامن عبد الا بينه وبين رزقه حجاب فان قنع واقتصد أتاه رزقه وان هتك الحجاب لم يزد في رزقه . وقال بعض الحكماء طلب مافوق الكفاف اسراف . وقال بعض البلغاء من رضي بالمقدور قنع بالميسور . وقال البحتري

تطلب الاكثر في الدنيا وقد * تبلغ الحاجة منها بالاقل

وأنشدت لابراهيم بن المدبر

ان القناعة والعفا * ف ليغنيان عن الغنى

فاذا صبرت عن المنى * فاشكر فقد نلت المنى

والوجه الثالث أن تنتهي به القناعة الى الوقوف على ماسنح فلا يكره ما أتاه وان كان كثيرا ولا يطلب ما تعذر وان كان يسيرا وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة لانها مشتركة بين رغبة ورهبة أما الرغبة فلأنه لا يكره الزيادة على الكفاية اذا سنحت وأما الرهبة فلانه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة اذا تعذرت . وفي مثله قال ذو النون رحمة الله عليه من كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة . وقد روى الحسن بن علي عن أبيه عن جده رضي الله عنهم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا دول فما كان منها لك أتاك على ضعفك وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك ومن انقطع رجاؤه مما فات استراح بدنه ومن رضي بما رزقه الله تعالى قرت عينه . وقال أبو حازم الاعرج وجدت الدنيا شيئين شيأ هو لي لن أعجله قبل أجله ولو طلبته بقوة السموات والارض وشيأ هو لغيري وذلك مما لم أناله فيما مضى ولا أناله فيما بقي يمنع الذي لي من غيري كما يمنع الذي لغيري مني ففي أي هذين أفني عمري وأهلك نفسي . وقال أبو تمام الطائي

لاتأخذنى بالزمان فليس لى * تبعا ولست على الزمان كفيلا
من كان مرعى عزمه وهمومه * روض الامانى لم يزل مهزولا
لوجاد سلطان القنوع وحكمه * فى الخلق ما كان القليل قليلا
الرزق لا تكمد عليه فانه * يأتى ولم تبعث اليه رسولا

وأنشدنى بعض أهل الادب لابن الرومى

جرى قلم القضاء بما يكون * فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق * ويرزق فى غشاوته الجنين

ونحن نسأل الله تعالى أكرم مسؤل وأفضل مأمول أن يحسن الينا التوفيق فيما منح ويصرف عنا الرغبة فيما منع استكفافا لتبعات الثروة وموبقات الشهوة. روى شريك ابن أبى نمر عن أبى الجذع عن أعمامه وأجداده عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال خير أمتى الذين لم يعطوا حتى يبطروا ولم يقتروا حتى يسألوا . وقال أبو تمام الطائى

عندى من الايام مالو أنه * أضحى بشارب مرقد ما غمضا
لا تطلبن الرزق بعد شماسه * فترومه شعبا اذا ما غيضا
ماعوض الصبر امرؤ الا رأى * مافاته دون الذى قد عوضا

باب أدب النفس وهو الخامس من الكتاب

اعلم أن النفس مجبولة على شيم مهملة وأخلاق مرسلة لايستغنى محمودها عن التأديب ولا يكتفى بالمرضى منها عن التهذيب لان لمحمودها أضدادا مقابلة يسعدها هوى مطاع وشهوة غالبة فان أغفل تأديبها تفويضا الى العقل أو توكلا على أن تنقاد الى الاحسن بالطبع أعدمه التفويض درك المجتهدين وأعقبه التوكل ندم الخائبين فصار من الأدب عاطلا وفى صورة الجهل داخلا لان الأدب مكتسب بالتجربة أو مستحسن بالعادة ولكل قوم مواضعة وكل ذلك لاينال بتوقيف العقل ولا بالانقياد للطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة ويستفاد بالدربة والمعاطاة ثم يكون العقل عليه قيما وزكى الطبع اليه مسلما ولو كان العقل مغنيا عن الادب لكان أنبياء الله تعالى عن أدبه مستغنين وبعقولهم مكتفين . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال بعثت لأتمم مكارم الاخلاق . وقيل لعيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام من أدبك قال ما أدبنى أحد ولكنى رأيت جهل الجاهل فجانبته . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه ان الله تعالى جعل مكارم الاخلاق ومحاسنها وصلا بينه وبينكم

فحسب الرجل أن يتصل من الله تعالى بخلق منها . وقال أزدشير بن بابك من فضيلة الادب أنه ممدوح بكل لسان ومتزين به في كل مكان وباق ذكره على أيام الزمان . وقال مهبود شبه العالم الشريف العديم الادب بالبنيان الخراب الذي كلما علا سمكه كان أشد لوحشته وبالنهر اليابس الذي كلما كان أعرض وأعمق كان أشد لوعورته وبالأرض الجيدة المعطلة التي كلما طال خرابها ازداد نباتها غير المنتفع به التفافا وصار للهوام مسكنا . وقال ابن المقفع ما نحن الى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا الى الادب الذي هو لقاح عقولنا فان الحبة المدفونة في الثرى لا تقدر أن تطلع زهرتها ونضارتها الا بالماء الذي يعود اليها من مستودعها . وحكى الاصمعي رحمه الله تعالى أن أعرابيا قال لابنه يا بني الادب دعامة أيد الله بها الالباب وحلية زين الله بها عواطل الاحساب فالعاقل لا يستغني وان صحت غريزته عن الادب المخرج زهرته كما لا تستغني الارض وان عذبت تربتها عن الماء المخرج ثمرتها . وقال بعض الحكماء الادب صورة العقل فصور عقلك كيف شئت وقال آخر العقل بلا أدب كالشجر العاقر ومع الادب كالشجر المثمر وقيل الادب أحد المنصبين . وقال بعض البلغاء الفضل بالعقل والادب لا بالاصل والحسب لان من ساء أدبه ضاع نسبه ومن قل عقله ضل أصله . وقال بعض الادباء ذك قلبك بالادب كما تذكى النار بالحطب واتخذ الادب غنما والحرص عليه حظا يرتجيك راغب ويخاف صولتك راهب ويؤمل نفعك ويرجى عدلك وقال بعض العلماء الادب وسيلة الى كل فضيلة وذريعة الى كل شريعه . وقال بعض الفصحاء الادب يستر قبيح النسب . وقال بعض الشعراء فيه

فما خلق الله مثل العقول * ولا اكتسب الناس مثل الادب
وما كرم المرء الا التقى * ولا حسب المرء الا النسب
وفي العلم زين لاهل الحجا * وآفة ذي الحلم طيش الغضب

وأنشد الاصمعي رحمه الله

وان يك العقل مولودا فلست أرى * ذا العقل مستغنيا عن حادث الأدب
اني رأيتهما كالماء مختلطا * بالترب تظهر منه زهرة العشب
وكل من أخطأته في موالده * غريزة العقل حاكى البهم في الحسب

والتأديب يلزم من وجهين أحدهما ما لزم الوالد لولده في صغره والثاني ما لزم الانسان في نفسه عند نشوه وكبره فأما التأديب اللازم للاب فهو أن يأخذ ولده بمبادي الآداب ليأنس بها وينشو عليها فيسهل عليه قبولها عند الكبر لاستئناسه بمباديها في الصغر لأن نشو الصغير

على الشئ يجعله متطبعا به ومن أغفل فى الصغر كان تأديبه فى الكبر عسيرا . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال مانحل والد ولده نحلة أفضل من أدب حسن يفيده إياه أو جهل قبيح يكفه عنه ويمنعه منه . وقال بعض الحكماء بادروا بتأديب الاطفال قبل تراكم الاشغال وتفرق البال . وقال بعض الشعراء

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت * ولا يلين اذا قومته الخشب
قد ينفع الادب الأحداث فى صغر * وليس ينفع عند الشيبة الادب

وقال آخر

ينشو الصغير على ما كان والده * ان الاصول عليها ينبت الشجر

وأما الأدب اللازم للانسان عند نشوه وكبره فأدبان أدب مواضعة واصطلاح وأدب رياضة واستصلاح فأما أدب المواضعة والاصطلاح فيؤخذ تقليدا على ما استقر عليه اصطلاح العقلاء واتفق عليه استحسان الادباء وليس لاصطلاحهم على وضعه تعليل مستنبط ولا لاتفاقهم على استحسانه دليل موجب كاصطلاحهم على مواضعات الخطاب واتفاقهم على هيئات اللباس حتى ان الانسان الآن اذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها صار مجانبا للادب مستوجبا للذم لأن فراق المألوف فى العادة ومجانبة ما صار متفقا عليه بالمواضعة مفض الى استحقاق الذم بالعقل مالم يكن لمخالفته علة ظاهرة ومعنى حادث وقد كان جائزا فى العقل أن يوضع ذلك على غير ما اتفقوا عليه فيرونه حسنا ويرون ماسواه قبيحا فصار هذا مشاركا لما وجب بالعقل من حيث توجه الذم على تاركه ومخالفا له من حيث انه كان جائزا فى العقل أن يوضع على خلافه وأما أدب الرياضة والاستصلاح فهو ما كان محمولا على حال لايجوز فى العقل أن يكون بخلافها ولا أن تختلف العقلاء فى صلاحها وفسادها وما كان كذلك فتعليله بالعقل مستنبط ووضوح صحته بالدليل مرتبط والنفس على ما يأتى من ذلك شاهد ألهمها الله تعالى ارشادا لها قال الله تعالى فألهمها فجورها وتقواها . قال ابن عباس رضى الله عنه بين لها ماتأتى من الخير وتذر من الشر وسنذكر تعليل كل شئ فى موضعه فانه أولى به وأحق فأول مقدمات أدب الرياضة والاستصلاح أن لايسبق الى حسن الظن بنفسه فيخفى عنه مذموم شيمه ومساوى أخلاقه لان النفوس بالشهوات آمرة وعن الرشد زاجرة . وقد قال الله تعالى ان النفس لأمارة بالسوء وقال صلى الله عليه وسلم أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك ثم أهلك ثم عيالك ودعت اعرابية لرجل فقالت كبت الله كل عدو لك الا نفسك فأخذه بعض الشعراء فقال

قلبي الى ماضرّني داع * يكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوّي اذا * كان عدوّي بين أضلاعي

فاذا كانت النفس كذلك فحسن الظن بها ذريعة الى تحكيمها وتحكيمها داع الى سلاطتها وفساد الاخلاق بها فاذا صرف حسن الظن عنها وتوسمها بما هي عليه من التسويف والمكر فاز بطاعتها وانحاز عن معصيتها . وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه العاجز من عجز عن سياسة نفسه . وقال بعض الحكماء من ساس نفسه ساد ناسه فأما سوء الظن بها فقد اختلف الناس فيه فنهم من كرهه لما فيه من اتهام طاعتها ورد مناصحتها فان النفس وان كان لها مكر يردى فلها نصح يهدى فلما كان حسن الظن بها يعمى عن مساويها كان سوء الظن بها يعمى عن محاسنها ومن عمى عن محاسن نفسه كان كمن عمى عن مساويها فلم ينف عنها قبيحا ولم يهد اليها حسنا . وقد قال الجاحظ في كتاب البيان يجب أن يكون في التهمة لنفسه معتدلا وفي حسن الظن بها مقتصدا فانه ان تجاوز مقدار الحق في التهمة ظلمها فأودعها ذلة المظلومين وان تجاوز بها الحق في مقدار حسن الظن أودعها تهاون الآمنين ولكل ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل مقدار من الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل . وقال الاحنف ابن قيس من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ومن هدم دينه كان لمجده أهدم وذهب قوم الى أن سوء الظن بها أبلغ في صلاحها وأوفر في اجتهادها لان للنفس جورا لا ينفك الا بالسخط عليها وغرورا لا ينكشف الا بالتهمة لها لانها محبوبة بجور ادلالا وتغتر مكرا فان لم يسئ الظن بها غلب عليه جورها وتموّه عليه غرورها فصار بمسورها قانعا وبالشبهة من أفعالها راضيا . وقد قالت الحكماء من رضي عن نفسه أسخط عليه الناس وقال كشاجم

لم أرض عن نفسي مخافة سخطها * ورضى الفتى عن نفسه إغضابها
ولو انني عنها رضيت لقصرت * عما تزيد بمثله آدابها
وتبينت آثار ذاك فأكثرت * عذلي عليه فطال فيه عتابها

وقد استحسن قول أبي تمام الطائي

ويسىء بالاحسان ظنا لا كمن * هو بابنه وبشعره مفتون

فلم يروا اساءة ظنه بالاحسان ذما ولا استقلال عمله لوما بل رأوا ذلك أبلغ في الفضل وأبعث على الازدياد فاذا عرف من نفسه ما تجن وتصور منها ما تكن ولم يطاوعها فيما تحب اذا كان غيا ولا صرف عنها ما تكره اذا كان رشدا فقد ملكها بعد أن كان في ملكها وغلبها بعد أن كان في غلبها . وقد روى أبو حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم الشديد من غلب نفسه . وقال عون بن عبد الله اذا عصتك نفسك فيما كرهت فلا تطعها فيما أحبت ولا يغرنك ثناء من جهل أمرك . وقال بعض البلغاء من قوى على نفسه تناهى فى القوة ومن صبر عن شهوته بالغ فى المروة فحينئذ يأخذ نفسه عند معرفة ما أكنت وخبرة ما أجنت بتقويم عوجها واصلاح فسادها . وقد روى عن عائشة رضى الله عنها قالت يارسول الله متى يعرف الانسان ربه قال اذا عرف نفسه ثم راعى منها ما اصلح واستقام من زيغ يحدث عن اغفال أو ميل يكون عن اهمال ليتم له الصلاح وتستديم له السعادة فان المغفل بعد المعاناة ضائع والمهمل بعد المراعاة ذائع وسنذكر من أحوال أدب الرياضة والاستصلاح فصولا تحتوى على ما يلزم مراعاته من الاخلاق ويجب معاناته من الادب وهى ستة فصول متفرعة

﴿الفصل الاول﴾ فى مجانبة الكبر والاعجاب لانهما يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل وليس لمن استوليا عليه اصغاء لنصح ولا قبول لتأديب لان الكبر يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة فالمتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين فلذلك وجب تقديم القول فيهما بابانة ما يكسبانه من ذم ويوجبانه من لوم فنقول أما الكبر فيكسب المقت ويلهى عن التألف ويوغر صدور الاخوان وحسبك بذلك سوأ عن استقصاء ذمه . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لعمه العباس أنهاك عن الشرك بالله والكبر فان الله يحتجب منهما وقال ازدشير بن بابك ما الكبر الا فضل حمق لم يدر صاحبه أين يذهب به فيصرفه الى الكبر وما أشبه ما قال بالحق . وحكى أن مطرف بن عبد الله بن الشخير نظر الى المهلب بن أبى صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشى الخيلاء فقال يا أبا عبد الله ما هذه المشية التى يبغضها الله ورسوله فقال المهلب أما تعرفنى فقال بل أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة فأخذ ابن عوف هذا الكلام فنظمه شعرا فقال

عجبت من معجب بصورته * وكان بالامس نطفة مذره
وفى غد بعد حسن صورته * يصير فى اللحد جيفة قذره
وهو على تيهه ونخوته * ما بين ثوبيه يحمل العذره

وقد كان المهلب أفضل من أن تجذع نفسه بهذا الجواب ولكنها زلة من زلات الاسترسال وخطيئة من خطايا الادلال فأما الحمق الصريح والجهل القبيح فهو ما حكى عن نافع بن جبير بن مطعم أنه جلس فى حلقة العلاء بن عبد الرحمن الحرقى وهو يقرئ الناس فلما فرغ

قال أتدرون لم جلست البكم قالوا جلست لتسمع قال لا ولكني أردت أن أتواضع لله بالجلوس البكم فهل يرجى من مثل هذا فضل أو ينفع فيه عذل . وقد قال ابن المعتز لما عرف أهل النقص حالهم عند ذوي الكمال استعانوا بالكبر ليعظم صغيرا ويرفع حقيرا وليس بفاعل وأما الاعجاب فيخفي المحاسن ويظهر المساوي ويكسب المذام ويصد عن الفضائل . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الاعجاب ضد الصواب وآفة الالباب وقال بزرجمهر النعمة التي لا يحسد صاحبها عليها التواضع والبلاء الذي لا يرحم صاحبه منه العجب . وقال بعض الحكماء عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله وليس الى ما يكسبه الكبر من المقت حد ولا الى ما ينتهي اليه العجب من الجهل غاية حتى انه ليطفئ من المحاسن ما انتشر ويسلب من الفضائل ما اشتهر وناهيك بسيئة تحبط كل حسنة وبمذمة تهدم كل فضيلة مع ما يثيره من حنق ويكسبه من حقد . حكي عن عمر بن حفص قال قيل للحجاج كيف وجدت منزلك بالعراق قال خير منزل لو كان الله بلغني قتل أربعة فتقربت اليه بدمائهم قيل ومن هم . قال مقاتل بن مسمع ولي سجستان فأتاه الناس فأعطاهم الاموال فلما عزل دخل مسجد البصرة فبسط الناس له أرديتهم فمشى عليها وقال لرجل يماشيه لمثل هذا فليعمل العاملون وعبد الله بن زياد بن ظبيان التيمي خوف أهل البصرة أمرا فخطب خطبة أوجز فيها فنادى الناس من اعراض المسجد أكثر الله فينا مثلك فقال لقد كلفتم الله شططا ومعبد بن زرارة كان ذات يوم جالسا في طريق فمرت به امرأة فقالت له يا عبد الله كيف الطريق الى موضع كذا فقال يا هناه مثلي يكون من عبيد الله وأبو سمال الاسدي أضل راحلته فالتمسها الناس فلم يجدوها فقال والله ان لم يرد الي راحلتي لا صليت له صلاة أبدا . فالتمسها الناس فوجدوها فقالوا له قد رد الله راحلتك فصل فقال ان يميني يمين مصر فانظر الى هؤلاء كيف أفضى بهم العجب الى حمق صاروا به نكالا في الاولين ومثلا في الآخرين ولو تصور المعجب المتكبر ما فطر عليه من جبلة وبلي به من مهنة لخفض جناح نفسه واستبدل لينا من عتوه وسكونا من نفوره . وقال الاحنف بن قيس عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر وقد وصف بعض الشعراء الانسان فقال

يا مظهر الكبر اعجابا بصورته * انظر خلاءك فان النتن تثريب
لو فكر الناس فيما في بطونهم * ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
هل في ابن آدم مثل الرأس مكرمة * وهو بخمس من الاقذار مضروب
أنف يسيل واذن ريحها سهك * والعين مرفضة والثغر ملعوب

يا ابن التراب ومأكول التراب غدا * أقصر فانك مأكول ومشروب

وأحق من كان الكبر مجانبا وللاعجاب مباينا من جل فى الدنيا قدره وعظم فيها خطره لانه قد يستقل بعالى همته كل كثير ويستصغر معها كل كبير . وقال محمد بن على لا ينبغى للشريف أن يرى شيأ من الدنيا لنفسه خطرا فيكون بها نابها . وقال ابن السماك لعيسى ابن موسى تواضعك فى شرفك أشرف لك من شرفك وكان يقال اسمان متضادان بمعنى واحد التواضع والشرف وللكبر أسباب فمن أقوى أسبابه علو اليد ونفوذ الامر وقلة مخالطة الاكفاء . وحكى أن قوما مشوا خلف على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال أبعدوا عنى خفق نعالكم فانها مفسدة لقلوب نوكى الرجال ومشوا خلف ابن مسعود فقال ارجعوا فانها زلة للتابع وفتنة للمتبوع . وروى قيس بن حازم أن رجلا أتى به النبى صلى الله عليه وسلم فأصابته رعدة فقال له صلى الله عليه وسلم هون عليك فانما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد وانما قال ذلك صلى الله عليه وسلم حسما لمواد الكبر وقطعا لذرائع الاعجاب وكسرا لاشراف النفس وتذليلا لسطوة الاستعلاء . ومثل ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال أيها الناس لقد رأيتنى أرعى على خالات لى من بنى مخزوم فيقبضن لى القبضة من التمر والزبيب فأظل اليوم وأى يوم فقال له عبد الرحمن بن عوف والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قصرت بنفسك فقال عمر رضى الله عنه ويحك يا ابن عوف انى خلوت فحدثتنى نفسى فقالت أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك فأردت أن أعرفها نفسها وللاعجاب أسباب فمن أقوى أسبابه كثرة مديح المتقربين واطراء المتملقين الذين جعلوا النفاق عادة ومكسبا والتملق خديعة وملعبا فاذا وجدوه مقبولا فى العقول الضعيفة أغروا أربابها باعتقاد كذبهم وجعلوا ذلك ذريعة الى الاستهزاء بهم . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سمع رجلا يزكى رجلا فقال له قطعت مطاه لو سمعها ما أفلح بعدها . وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه المدح ذبح . وقال ابن المقفع قابل المدح كمادح نفسه . وقال بعض الحكماء من رضى أن يمدح بما ليس فيه فقد أمكن الساخر منه . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اياكم والتمادح فانه الذبح ان كان أحدكم مادحا أخاه لامحالة فليقل أحسب ولا أزكى على الله أحدا وقيل فيما أنزل الله عز وجل من الكتب السالفة عجب لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح وعجب لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب . وقال بعض الشعراء

يا جاهلا غره افراط مادحه * لايغلبن جهل من أطراك علمك بك
أثنى وقال بلا علم أحاط به * وأنت أعلم بالمحصول من ريبك

وهذا أمر ينبغي للعاقل أن يضبط نفسه عن أن يستفزها ويمنعها من تصديق المدح لها فان للنفس ميلا لحب الثناء وسماع المدح . وقال الشاعر

يهوى الثناء مبرز ومقصر * حب الثناء طبيعة الانسان

فاذا سامح نفسه في مدح الصبوة وتابعها على هذه الشهوة تشاغل بها عن الفضائل الممدوحة ولها بها عن المحاسن الممنوحة فصار الظاهر من مدحه كذبا والباطن من ذمه صدقا وعند تقابلهما يكون الصدق ألزم الامرين وهذه خدعة لا يرتضيها عاقل ولا ينخدع بها مميز وليعلم أن المتقرب بالمدح يسرف مع القبول ويكف مع الاباء فلا يغلبه حسن الظن على تصديق مدح هو أعرف بحقيقته واتكن تهمة المادح أغلب عليه فقل مدح كان جميعه صدقا وقل ثناء كان له حقا ولذلك كره أهل الفضل أن يطلقوا ألسنتهم بالثناء والمدح تحرزا من التجاوز فيه وتنزيها عن التملق به . وقد روى مكحول قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكونوا عيابين ولا تكونوا العانين ولا متمادحين ولا متماوتين . وحكى الاصمعي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان اذا مدح قال اللهم أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيرا مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون . وقال بعض الشعراء

اذا المرء لم يمدحه حسن فعاله * فمادحه يهذي وان كان مفصحا

وربما آل حب المدح بصاحبه الى أن يصير مادح نفسه اما لتوهمه أن الناس قد غفلوا عن فضله وأخلوا بحقه وإما ليخدعهم بتدليس نفسه بالمدح والاطراء فيعتقدون أن قوله حق متبع وصدق مستمع وإما لتلذذه بسماع الثناء وسرور نفسه بالمدح والاطراء كما يتغنى بنفسه طربا اذا لم يسمع صوتا مطربا ولا غناء ممتعا ولأي ذلك كان فهو الجهل الصريح والنقص الفاضح . وقد قال بعض الشعراء

وما شرف أن يمدح المرء نفسه * ولكن أعمالا تذم وتمدح
وما كل حين يصدق المرء ظنه * ولا كل أصحاب التجارة يربح
ولا كل من ترجو لغيبك حافظا * ولا كل من ضم الوديعة يصلح

وينبغي للعاقل أن يسترشد اخوان الصدق الذين هم أصفياء القلوب ومرايا المحاسن والعيوب على ما ينبهونه عليه من مساويه التي صرفه حسن الظن عنها فانهم أمكن نظرا وأسلم فكرا

ويجعلون ماينهونه عليه من مساويه عوضا عن تصديق المدح فيه . وقد روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المؤمن مرآة المؤمن اذا رأى فيه عيبا أصلحه وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول رحم الله امرأ أهدى الينا مساوينا . وقيل لبعض الحكماء أتحب أن تهدى اليك عيوبك قال نعم من ناصح ومما يقارب معنى هذا القول ماروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال لابن عباس رضي الله عنهما من ترى أن نوليه حمص فقال رجلا صحيحا منك صحيحا لك قال تكون أنت ذلك الرجل قال لا تنتفع بي مع سوء ظني بك وسوء ظنك بي . وقيل في منثور الحكم من أظهر عيب نفسه فقد زكاها فاذا قطع أسباب الكبر وحسم مواد العجب اعتاض بالكبر تواضعا وبالعجب توددا وذلك من أوكد أسباب الكرامة وأقوى مواد النعم وأبلغ شافع الى القلوب يعطفها الى المحبة ويثنيها عن البغض . وقال بعض الحكماء من برئ من ثلاث نال ثلاثا من برئ من السرف نال العز ومن برئ من البخل نال الشرف ومن برئ من الكبر نال الكرامة وقال مصعب بن الزبير التواضع مصائد الشرف وقيل في منثور الحكم من دام تواضعه كثر صديقه وقد تحدث المنازل والولايات لقوم أخلاقا مذمومة يظهرها سوء طباعهم ولآخرين فضائل محمودة يبعث عليها زكاء شيمهم لان لتقلب الاحوال سكرة تظهر من الاخلاق مكنونها ومن السرائر مخزونها لاسيما اذا هجمت من غير تدريج وطرقت من غير تأهب . وقد قال بعض الحكماء في تقلب الاحوال تعرف جواهر الرجال وقال الفضل بن سهل من كانت ولايته فوق قدره تكبر لها ومن كانت ولايته دون قدره تواضع لها . وقال بعض البلغاء الناس في الولاية رجلان رجل يجل العمل بفضله ومروءته ورجل يجل بالعمل لنقصه ودناءته فمن جل عن عمله ازداد به تواضعا وبشرا ومن جل بعمله لبس به تجبرا وتكبرا

﴿الفصل الثاني في حسن الخلق﴾ روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله تعالى اختار لكم الاسلام دينا فأكرموه بحسن الخلق والسخاء فانه لا يكمل الا بهما وقال الاحنف بن قيس ألا أخبركم بادوأ الداء قالوا بلى قال الخلق الدني واللسان البذى . قال بعض الحكماء من ساء خلقه ضاق رزقه وعلة هذا القول ظاهرة . وقال بعض البلغاء الحسن الخلق من نفسه في راحة والناس منه في سلامة والسيئ الخلق الناس منه في بلاء وهو من نفسه في عناء . وقال بعض الحكماء عاشر أهلك بأحسن أخلاقك فان الثواء فيهم قليل . وقال بعض الشعراء

اذا لم تتسع أخلاق قوم * تضيق بهم فسيحات البلاد

اذا ما المرء لم يخلق لبيبا * فليس اللب عن قدم الولاد

فاذا حسنت أخلاق الانسان كثر مصافوه وقل معادوه فتسهلت عليه الامور الصعاب ولانت له القلوب الغضاب . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الاعمار . وقال بعض الحكماء من سعة الاخلاق كنوز الارزاق وسبب ذلك ماذكرنا من كثرة الاصفياء المسعدين وقلة الاعداء المجحفين . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم أحبكم الى أحسنكم أخلاقا الموطؤن أكنافا الذين يألفون ويؤلفون وحسن الخلق أن يكون سهل العريكة لين الجانب طليق الوجه قليل النفور طيب الكلمة وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الاوصاف فقال أهل الجنة كل هين لين سهل طلق ولما ذكرنا من هذه الاوصاف حدود مقدرة ومواضع مستحقة كما قال الشاعر

أصفو وأكدر أحيانا لمختبرى * وليس مستحسنا صفو بلا كدر

وليس يريد بالكدر البذاء وشراسة الخلق فان ذلك ذم لا يستحسن وعيب لا يرتضى وانما يريد الكف والانقباض فى موضع يلام فيه المساعد ويذم فيه الموافق فاذا كانت لمحاسن الاخلاق حدود مقدرة ومواضع مستحقة فان تجاوز بها الحد صارت ملقا وان عدل بها عن مواضعها صارت نفاقا والملق ذل والنفاق لؤم وليس لمن وسم بهما ود مبرور ولا أثر مشكور . وقد روى حكيم عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه . وروى مكحول عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغى لذى الوجهين أن يكون وجيها عند الله تعالى وقال سعيد بن عروة لأن يكون لى نصف وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر وعجز المخبر أحب الى من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين . وقال الشاعر

خل النفاق لأهله * وعليك فالتمس الطريقا
وارغب بنفسك أن ترى * الا عدوا أو صديقا

وقال ابراهيم بن محمد

وكم من صديق وده بلسانه * خؤن بظهر الغيب لا يتذمم
يضاحكنى عجبا اذا ما لقيته * ويصدفنى منه اذا غبت أسهم
كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهدا * وفى غيبه ان غاب صاب وعلقم

وربما تغير حسن الخلق والوطاء الى الشراسة والبذاء لأسباب عارضة وأمور طارئة تجعل اللين خشونة والوطاء غلظة والطلاقة عبوسا فمن أسباب ذلك الولاية التى تحدث فى الاخلاق تغيرا وعلى الخلطاء تنكرا إما من لؤم طبع وإما من ضيق صدر . وقد قيل من تاه فى ولايته ذل فى عزله وقيل ذل العزل يضحك من تيه الولاية . ومنها العزل فقد يسوء به الخلق و يضيق به الصدر إما لشدة أسف أو لقلة صبر . حكى حميد الطويل أن عمار بن ياسر عزل عن ولاية فاشتد ذلك عليه وقال انى وجدتها حلوة الرضاع مرة الفطام . ومنها الغنى فقد تتغير به أخلاق اللئيم بطرا وتسوء طرائقه أشرا وقد قيل من نال استطال وأنشد الرياشى

غضبان يعلم أن المال ساق له * ما لم يسقه له دين ولا خلق

فمن يكن عن كرام الناس يسألنى * فأكرم الناس من كانت له ورق

وقال بعض الشعراء

فان تكن الدنيا أنالتك ثروة * فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر

لقد كشف الاثراء منك خلائقا * من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

و بحسب ما أفسده الغنى كذلك يصلحه الفقر وكتب قتيبة بن مسلم الى الحجاج أن أهل الشام قد التاثوا عليه فكتب اليه أن اقطع عنهم الارزاق ففعل فساءت حالهم فاجتمعوا اليه فقالوا أقلنا فكتب الى الحجاج فيهم فكتب اليه ان كنت آنست منهم رشدا فأجرعليهم ما كنت تجرى واعلم أن الفقر جند الله الاكبر يذل به كل جبار عنيد متكبر . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لولا أن الله تعالى أذل ابن آدم بثلاث ما طأطأ رأسه لشئ الفقر والمرض والموت . ومنها الفقر فقد يتغير به الخلق إما أنفة من ذل الاستكانة أو أسفا على فائت الغنى . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يغلب القدر . وقال أبو تمام الطائى

وأعجب حالات ابن آدم خلقه * يضل اذا فكرت فى كنهه الفكر

فيفرح بالشئ القليل بقاؤه * ويجزع مما صار وهو له ذخر

وربما تسلى من هذه الحالة بالامانى وان قل صدقها فقد قيل قلما تصدق الامنية ولكن قد يعتاض بها سلوة من هم أو مسرة برجاء . وقد قال ابو العتاهية

حرك منالك اذا اغتممـ * ـت فانهن مراوح

وقال آخر

اذا تمنيت بت الليل مغتبطا * ان المنى رأس أموال المفاليس

ومنها الهموم التي تذهل اللب وتشغل القلب فلا تتبع الاحتمال ولا تقوى على صبر وقد قيل الهم كالسم . وقال بعض الادباء الحزن كالداء المخزون في فؤاد المحزون . وقال بعض الشعراء

همومك بالعيش مقرونة * فما تقطع العيش الا بهم
اذا تم أمر بدا نقصه * ترقب زوالا اذا قيل تم
اذا كنت في نعمة فارعها * فان المعاصي تزيل النعم
وحام عليها بشكر الاله * فان الاله سريع النقم
حلاوة دنياك مسمومة * فما تأكل الشهد الا بسم
فكم قدر دب في مهلة * فلم يعلم الناس حتى هجم

ومنها الامراض التي يتغير بها الطبع كما يتغير بها الجسم فلا تبقى الاخلاق على اعتدال ولا يقدر معها على احتمال . وقد قال المتنبي

آلة العيش صحة وشباب * فاذا وليا عن المرء ولى
أبدا تسترد ما تهب الدنيا فياليت جودها كان بخلا

ومنها علو السن وحدوث الهرم لما تأثيره في الجسد كذلك يكون تأثيره في أخلاق النفس فكما يضعف الجسد عن احتمال ما كان يطيقه من أثقال فكذلك تعجز النفس عن أثقال ما كانت تصبر عليه من مخالفة الوفاق ومضيق الشقاق وكذلك ما ضاهاه . وقال منصور النميري

ما كنت أوفى شبابي كنه عزته * حتى مضى فاذا الدنيا له تبع
أصبحت لم تطعمي شكل الشباب ولم * تشجي لغصته فالعذر لا يقع
ما كان أقصر أيام الشباب وما * أبقى حلاوة ذكراه التي تدع
ما واجه الشيب من عين وان رمقت * الا لها نبوة عنه ومرتدع
قد كدت تقضي على فوت الشباب أسى * لولا يعزيك أن العمر منقطع

فهذه سبعة أسباب أحدثت سوء خلق كان عاما وههنا سبب خاص يحدث سوء خلق خاص وهو البغض الذي تنفر منه النفس فتحدث نفورا عن المبغض فيؤول الى سوء خلق يخصه دون غيره فاذا كان سوء الخلق حادثا بسبب كان زواله مقرونا بزوال ذلك السبب ثم بالضد

﴿ الفصل الثالث في الحياء ﴾ اعلم أن الخير والشر معان كامنة تعرف بسمات دالة كما قالت العرب في أمثالها تخبر عن مجهوله مرآته . وكما قال عمر بن سلم الشاعر

لاتسأل المرء عن خلائقه * فى وجهه شاهد من الخبر

فسمة الخير الدعة والحياء وسمة الشر القحة والبذاء وكفى بالحياء خيرا أن يكون على الخير دليلا وكفى بالقحة والبذاء شرا أن يكونا الى الشر سبيلا. وقد روى حسان بن عطية عن أبى امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياء والعى شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق ويشبه أن يكون العى فى معنى الصمت والبيان فى معنى التشدق كما جاء فى الحديث الآخر ان أبغضكم الى الثرثارون المتفيهقون المتشدقون. وروى أبو سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الحياء من الايمان والايمان فى الجنة والبذاء من الجفاء والجفاء فى النار. وقال بعض الحكماء من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه. وقال بعض البلغاء حياة الوجه بحيائه كما أن حياة الغرس بمائه. وقال بعض البلغاء العلماء يا عجبا كيف لا تستحيى من كثرة مالا تستحيى وتتقى من طول مالا تتقى. وقال صالح بن عبد القدوس

اذا قل ماء الوجه قل حياؤه * ولا خير فى وجه اذا قل ماؤه

حياؤك فاحفظه عليك وانما * يدل على فعل الكريم حياؤه

وليس لمن سلب الحياء صاد عن قبيح ولا زاجر عن محظور فهو يقدم على ما يشاء ويأتى ما يهوى وبذلك جاء الخبر. روى شعبة عن منصور بن ربعى عن أبى منصور البدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى يا ابن آدم اذا لم تستحى فاصنع ماشئت وليس هذا القول اغراء بفعل المعاصى عند قلة الحياء كما توهمه بعض من جهل معانى الكلام ومواضعات الخطاب وفى مثل هذا الخبر قول الشاعر

اذا لم تخش عاقبة الليالى * ولم تستحى فاصنع ما تشاء

فلا والله مافى العيش خير * ولا الدنيا اذا ذهب الحياء

يعيش المرء ما استحيا بخير * ويبقى العود ما بقى اللحاء

واختلف أهل العلم فى معنى هذا الخبر فقال أبو بكر بن محمد الساسى فى أصول الفقه معنى هذا الحديث أن من لم يستحى دعاه ترك الحياء الى أن يعمل ما يشاء لا يردعه عنه رادع فليستحى المرء فان الحياء يردعه وسمعت من يحكى عن أبى بكر الرازى من أصحاب أبى حنيفة أن المعنى فيه اذا عرضت عليك أفعالك التى هممت بفعلها فلم تستحى منها لحسنها وجمالها فاصنع ماشئت منها فجعل الحياء حكما على أفعاله وكلا القولين حسن والاول أشبه لان الكلام خرج من النبى صلى الله عليه وسلم مخرج الذم لا مخرج الامر لكن قد جاء الحديث بما يضاهى القول الثانى

وهو قوله صلى الله عليه وسلم ما أحببت أن تسمعه اذناك فأته وما كرهت أن تسمعه اذناك فاجتنبه ويجوز أن يحمل هذا الحديث على المعنى الصريح فيه ويكون التأويل الاول في الحديث المتقدم أصح اذ ليس يلزم أن تكون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها متفقة المعاني بل اختلاف معانيها أدخل في الحكمة وأبلغ في الفصاحة اذا لم يضاد بعضها بعضا واعلم أن الحياء في الانسان قد يكون من ثلاثة أوجه أحدها حياؤه من الله تعالى والثاني حياؤه من الناس والثالث حياؤه من نفسه فأما حياؤه من الله تعالى فيكون بامتثال أوامره والكف عن زواجره . وروى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال استحيوا من الله عز وجل حق الحياء فقيل يارسول الله فكيف نستحيي من الله عز وجل حق الحياء قال من حفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وترك زينة الحياة الدنيا وذكر الموت والبلى فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء وهذا الحديث من أبلغ الوصايا . وقال أبو الحسن الماوردي مصنف الكتاب رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ذات ليلة فقلت يارسول الله أوصني فقال استحي من الله عز وجل أحق الحياء ثم قال تغير الناس قلت وكيف ذلك يارسول الله قال كنت أنظر الى الصبي فأرى من وجهه البشر والحياء وأنا أنظر اليه اليوم فلا أرى ذلك في وجهه ثم تكلم بعد ذلك بوصايا وعظات تصورتها وأذهلني السرور عن حفظها ووددت اني لو حفظتها فلم يبد أبشيء صلى الله عليه وسلم قبل الوصية بالحياء من الله عز وجل وجعل ماسلبه الصبي من البشر والحياء سببا لتغير الناس وخص الصبي لان ما يأتيه بالطبع من غير تكلف فصلى الله وسلم على من هدى أمته وتابع انذارها وقطع أعذارها وأوصل تأديبها وحفظ تهذيبها وجعل لكل عصر حظا من زواجره ونصيبا من أوامره أعاننا الله على قبولها بالعمل وعلى استدامتها بالتوفيق . وقد روى أن علقمة بن علاثة قال يارسول الله عظني فقال النبي صلى الله عليه وسلم استحي من الله تعالى استحياءك من ذوي الهيبة من قومك وهذا الحياء يكون من قوة الدين وصحة اليقين ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم قلة الحياء كفر يعني من الله لما فيه من مخالفة أوامره وقال صلى الله عليه وسلم الحياء نظام الايمان فاذا انحل نظام الشيء تبدد مافيه وتفرق وأما حياؤه من الناس فيكون بكف الاذى وترك المجاهرة بالقبيح . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من تقوى الله اتقاء الناس . وروى أن حذيفة بن اليمان أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب الطريق عن الناس وقال لاخير فيمن لايستحيي من الناس . وقال بشار بن برد

ولقد أصرف الفؤاد عن الشي * ء حياء وحبه في السواد

أمسك النفس بالعفاف وأمسى * ذاكرا فى غد حديث الأعادى

وهـذا النوع من الحياء قد يكون من كمال المروءة وحب الثناء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له يعنى والله أعلم لقلة مروءته وظهور شهوته . وروى الحسن عن أبى هريرة قال قال صلى الله عليه وسلم ان مروءة الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه وإلفه وجليسه . وقال بعض الشعراء

ورب قبيحة ما حال بينى * وبين ركوبها الا الحياء
اذا رزق الفتى وجها وقاحا * تقلب فى الامور كما يشاء

وقال آخر

اذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا * وتستحى مخلوقا فما شئت فاصنع

وأما حياؤه من نفسه فيكون بالعفة وصيانة الخلوات . وقال بعض الحكماء ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك . وقال بعض الادباء من عمل فى السر عملا يستحى منه فى العلانية فليس لنفسه عنده قدر . ودعا قوم رجلا كان يألف عشرتهم فلم يجبهم وقال انى دخلت البارحة فى الاربعين وأنا أستحى من سنى . وقال بعض الشعراء

فسرى كاعلانى وتلك خليقتى * وظلمة ليلى مثل ضوء نهاريا

وهذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس وحسن السريرة فمتى كمل حياء الانسان من وجوهه الثلاثة فقد كملت فيه أسباب الخير وانتفت عنه أسباب الشر وصار بالفضل مشهورا وبالجميل مذكورا . وقال بعض الشعراء

وانى ليثنينى عن الجهل والخنا * وعن شتم ذى القربى خلائق أربع
حياء واسلام وتقوى وإننى * كريم ومثلى من يضر وينفع

وان أخل بأحد وجوه الحياء لحقه من النقص باخلاله بقدر ما كان يلحقه من الفضل بكماله . وقد قال الرياشى يقال ان أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان يتمثل بهذا الشعر

وحاجة دون أخرى قد سنحت لها * جعلتها للتى أخفيت عنوانا
وإنى لأرى من لا حياء له * ولا أمانة وسط القوم عريانا

﴿الفصل الرابع فى الحلم والغضب﴾ روى محمد بن حارث الهلالى أن جبريل نزل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد انى أتيتك بمكارم الاخلاق فى الدنيا والآخرة خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . وروى سفيان بن عيينة أن النبى صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه الآية قال يا جبريل ماهذا قال لا أدرى حتى أسأل العالم ثم عاد جبريل وقال يا محمد

ان ربك يأمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك . وروى هشام عن الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم كان اذا خرج من منزله قال اللهم انى تصدقت بعرضى على عبادك . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله يحب الحليم الحيى ويبغض الفاحش البذى وقال عليه الصلاة والسلام من حلم ساد ومن تفهم ازداد . وقال بعض الادباء من غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم . وقال بعض البلغاء ماذب عن الأعراض كالصفح والاعراض . وقال بعض الشعراء

أحب مكارم الاخلاق جهدى * وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلما * وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه * ومن حقر الرجال فلن يهابا

فالحلم من أشرف الاخلاق وأحقها بذوى الالباب لما فيه من سلامة العرض وراحة الجسد واجتلاب الحمد . وقد قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصاره وحد الحلم ضبط النفس عن هيجان الغضب وهذا يكون عن باعث وسبب وأسباب الحلم الباعثة على ضبط النفس عشرة . أحدها الرحمة للجهال وذلك من خير يوافق رقة . وقد قيل فى منثور الحكم من أوكد أسباب الحلم رحمة الجهال . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه لرجل أسمعه كلاما ياهذا لا تغرقن فى سبنا ودع للصلح موضعا فانا لانكافئ من عصا الله فينا بأكثر من أن نطيع الله عز وجل فيه وشتم رجل الشعبى فقال ان كنت كما قلت فغفر الله لى وان لم أكن كما قلت فغفر الله لك . واغتاظت عائشة رضى الله عنها على خادم لها ثم رجعت الى نفسها فقالت لله در التقوى ماتركت لذى غيظ شفاء . وقسم معاوية رضى الله عنه قطافا فاعطى شيخا من أهل دمشق قطيفة فلم تعجبه فحلف أن يضرب بها رأس معاوية فأتاه فاخبره فقال له معاوية أوف بنذرك وليرفق الشيخ بالشيخ . والثانى من أسبابه القدرة على الانتصار وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو شكرا للقدرة عليه . وقال بعض الحكماء ليس من الكرم عقوبة من لا يجد امتناعا من السطوة . وقال بعض البلغاء أحسن المكارم عفو المقتدر وجود المفتقر . والثالث من أسبابه الترفع عن السباب وذلك من شرف النفس وعلو الهمة كما قالت الحكماء شرف النفس أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم . وقد قيل ان الله تعالى سمى يحيى عليه السلام سيدا لحلمه . وقد قال الشاعر

لا يبلغ المجد أقوام وان كرموا * حتى يذلوا وان عزوا لاقوام

ويشتموا فترى الالوان مسفرة * لا صفح ذل ولكن صفح أحلام

والرابع من أسبابه الاستهانة بالمسيء وذلك عن ضرب من الكبر والاعجاب كما حكى عن مصعب بن الزبير أنه لما ولي العراق جلس يوما لعطاء الجند وأمر مناديه فنادى أين عمرو بن جرموز وهو الذي قتل أباه الزبير فقيل له أيها الامير انه قد تباعد في الارض فقال أو يظن الجاهل أني أقيده بابي عبد الله فليظهر آمنا ليأخذ عطاءه موفرا فعد الناس ذلك من مستحسن الكبر ومثل ذلك قول بعض الزعماء في شعره

أو كلما طن الذباب طردته * ان الذباب اذا على كريم

وأكثر رجل من سب الاحنف وهو لا يجيبه فقال والله ما منعه من جوابي الا هواني عليه وفي مثله يقول الشاعر

نجا بك لؤمك منجى الذباب * حمته مقاذيره أن ينالا

وأسمع رجل ابن هبيرة فأعرض عنه فقال له الرجل إياك أعني فقال له وعنك أعرض وفي مثله يقول الشاعر

فاذهب فانت طليق عرضك انه * عرض عززت به وأنت ذليل

وقال عمرو بن علي

اذا نطق السفيه فلا تجبه * فخير من اجابته السكوت

سكت عن السفيه فظن أني * عييت عن الجواب وما عييت

والخامس من أسبابه الاستحياء من جزاء الجواب وهذا يكون من صيانة النفس وكمال المروءة وقد قال بعض الحكماء احتمال السفيه خير من التحلي بصورته والاغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته . وقال بعض الادباء ما أفحش حليم ولا أوحش كريم . وقال لقيط بن زرارة

وقل لبني سعد فمالي وما لكم * ترقون مني ما استطعتم وأعتق

أغركم أني باحسن شيمة * بصير وأني بالفواحش أخرق

وان تك قد ساببتني فقهرتني * هنيئا مريئا أنت بالفحش أحذق

والسادس من أسبابه التفضل على السباب فهذا يكون من الكرم وحب التألف كما قيل للاسكندر ان فلانا وفلانا ينقصانك ويثلبانك فلو عاقبتهما فقال هما بعد العقوبة أعذر في تنقصي وثلبي فكان هذا تفضلا منه وتألفا . وقد حكى عن الاحنف بن قيس أنه قال ما عاداني أحد قط الا أخذت في أمره باحدى ثلاث خصال ان كان أعلى مني عرفت له قدره وان كان دوني رفعت قدري عنه وان كان نظيري تفضلت عليه فاخذه الخليل فنظمه شعرا فقال

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب * وان كثرت منه الىّ الجرائم
فما الناس الا واحد من ثلاثة * شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذى فوقى فاعرف قدره * وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فاحلم دائبا * أصون به عرضى وان لام لائم
وأما الذى مثلى فان زل أوهفا * تفضلت ان الفضل بالفخر حاكم

والسابع من أسبابه استنكاف السباب وقطع السباب وهذا يكون من الحزم كما حكى أن رجلا قال لضرار بن القعقاع والله لوقلت واحدة لسمعت عشرا فقال له ضرار والله لوقلت عشرا لم تسمع واحدة . وحكى أن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال لعامر بن مرة الزهرى من أحق الناس قال من ظن أنه أعقل الناس قال صدقت فمن أعقل الناس قال من لم يتجاوز الصمت فى عقوبة الجهال . وقال الشعبى ما أدركت أمى فأبرها ولكن لا أسب أحدا فيسبها . وقال بعض الحكماء فى اعراضك صون أعراضك . وقال بعض الشعراء

وفى الحلم ردع للسفيه عن الاذى * وفى الخرق اغراء فلا تك أخرقا
فتندم اذ لا ينفعنك ندامة * كما ندم المغبون لما تفرقا

وقال آخر

قل ما بدالك من زور ومن كذب * حلمى أصم وأذنى غير صماء

والثامن من أسبابه الخوف من العقوبة على الجواب وهذا يكون من ضعف النفس وربما أوجبه الرأى واقتضاه الحزم . وقد قيل فى منثور الحكم الحلم حجاب الآفات . وقال الشاعر

ارفق اذا خفت من ذى هفوة خرقا * ليس الحليم كمن فى أمره خرق

والتاسع من أسبابه الرعاية ليد سالفة وحرمة لازمة وهذا يكون من الوفاء وحسن العهد وقد قيل فى منثور الحكم أكرم الشيم أرعاها للذمم . وقال الشاعر

ان الوفاء على الكريم فريضة * واللؤم مقرون بذى الاخلاف
وترى الكريم لمن يعاشر منصفا * وترى اللئيم مجانب الانصاف

والعاشر من أسبابه المكر وتوقع الفرص الخفية وهذا يكون من الدهاء . وقد قيل فى منثور الحكم من ظهر غضبه قل كيده . وقال بعض الادباء غضب الجاهل فى قوله وغضب العاقل فى فعله . وقال بعض الحكماء اذا سكت عن الجاهل فقد أوسعته جوابا وأوجعته عقابا . وقال اياس بن قتادة

تعاقب أيدينا ويحلم رأينا * ونشتم بالافعال لا بالتكلم

وقال بعض الشعراء

وللكف عن شتم اللئيم تكرما * أضر له من شتمه حين يشتم

فهذه عشرة أسباب تدعو الى الحلم وبعض الاسباب أفضل من بعض وليس اذا كان بعض أسبابه مفضولا ما يقتضي أن تكون نتيجته من الحلم مذمومة وانما الاولى بالانسان أن يدعوه للحلم أفضل أسبابه وان كان الحلم كله فضلا وان عرى عن أحد هذه الاسباب كان ذلا ولم يكن حلما لانا قد ذكرنا في حد الحلم أنه ضبط النفس عن هيجان الغضب فاذا فقد الغضب لسماع ما يغضب كان ذلك من ذل النفس وقلة الحمية . وقد قالت الحكماء ثلاثة لا يعرفون الا في ثلاثة مواطن لا يعرف الجواد الا في العسرة والشجاع الا في الحرب والحليم الا في الغضب . وقال الشاعر

ليست الاحلام في حال الرضى * انما الاحلام في حال الغضب

وقال آخر

من يدعى الحلم أغضبه لتعرفه * لا يعرف الحلم الا ساعة الغضب

وأنشد النابغة الجعدي بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولا خير في حلم اذا لم يكن له * بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل اذا لم يكن له * حليم اذا ما أورد الامر أصدرا

فلم ينكر صلى الله عليه وسلم قوله عليه ومن فقد الغضب في الاشياء المغضبة حتى استوت حالتاه قبل الاغضاب وبعده فقد عدم من فضائل النفس الشجاعة والانفة والحمية والغيرة والدفاع والاخذ بالثار لانها خصال مركبة من الغضب فاذا عدمها الانسان هان بها ولم يكن لباقي فضائله في النفوس موضع ولا لوفور حلمه في القلوب موقع وقد قال المنصور اذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة . وقال بعض الحكماء العفو يفسد من اللئيم بقدر اصلاحه من الكريم . وقال عمرو بن العاص اكرموا سفهاءكم فانهم يقونكم العار والشنار . وقال مصعب بن الزبير ما قل سفهاء قوم الا ذلوا . وقال أبو تمام الطائي

والحرب تركب رأسها في مشهد * عدل السفيه به بالف حليم

وليس هذا القول اغراء بتحكم الغضب والانقياد اليه عند حدوث ما يغضب فيكسب بالانقياد للغضب من الرذائل أكثر مما يكسبه عدم الغضب من الفضائل ولكن اذا ثار به الغضب عند هجوم ما يغضبه كف سورته بحزمه وأطفأ ثائرته بحلمه ووكل من استحق المقابلة الى غيره ولا يعدم مسيء مكافئا كما لن يعدم محسن مجازيا . والعرب تقول دخل بشا ما خرج منه

أى ان خرج منه خير دخله خير وان خرج منه شر دخله شر . وأنشد ابن دريد عن أبى حاتم

اذا أمن الجهال جهلك مرة * فعرضك للجهال غنم من الغنم
فعم عليه الحلم والجهل والقه * بمنزلة بين العداوة والسلم
اذا أنت جاريت السفيه كما جرى * فأنت سفيه مثله غير ذى حلم
ولا تغضبن عرض السفيه وداره * بحلم فان أعيى عليك فبالصرم
فيرجوك تارات ويخشاك تارة * ويأخذ فيما بين ذلك بالحزم
فان لم تجد بدا من الجهل فاستعن * عليه بجهال فذاك من العزم

وهذه من أحكم أبيات وجدتها فى تدبير الحلم والغضب وهذا التدبير انما يستعمل فيما لا يجد الانسان بدا من مقارنته ولا سبيل الى اطراحه ومتاركته إما لخوف شره أو للزوم أمره فأما من أمكن اطراحه ولم يضر ابعاده فالهوان به أولى والاعراض عنه أصوب فاذا كان على ما وصفت استفاد بتحريك الغضب فضائله وأمن بكف نفسه عن الانقياد له رذائله وصار الحلم مدبرا للامور المغضبة بقدر لا يعتريه نقص بعدم الغضب ولا يلحقه زيادة بفقد الحلم ولو عزب عنه الحلم حتى انقاد لغضبه ضل عنه وجه الصواب فيه وضعف رأيه عن خبرة أسبابه ودواعيه حتى يصير بليد الرأى مغمور الروية مقطوع الحجة مسلوب العزاء قليل الحيلة مع ما يناله من أثر ذلك فى نفسه وجسده حتى يصير أضر عليه مما غضب له . وقد قال بعض الحكماء من كثر شططه كثر غلطه . وروى أن سلمان قال لعلى رضى الله عنه ما الذى يباعدنى عن غضب الله عز وجل قال أن لا تغضب . وقال بعض السلف أقرب ما يكون العبد من غضب الله عز وجل اذا غضب . وقال بعض البلغاء من رد غضبه هد من أغضبه . وقال بعض الادباء ما هيج جاشك كغيظ أجاشك . وقال رجل لبعض الحكماء عظنى قال لا تغضب فينبغى لذى اللب السوى والحزم القوى أن يتلقى قوة الغضب بحلمه فيصدها ويقابل عوادى شرته بحزمه فيردها ليحظى بأجلاء الحيرة ويسعد بحميد العاقبة . وقال بعض الادباء فى اغضائك راحة أعضائك وسبب الغضب هجوم ما تكرهه النفس ممن دونها وسبب الحزن هجوم ما تكرهه النفس ممن فوقها والغضب يتحرك من داخل الجسد الى خارجه والحزن يتحرك من خارج الجسد الى داخله فبذلك قتل الحزن ولم يقتل الغضب لبروز الغضب وكمون الحزن وصار الحادث عن الغضب السطوة والانتقام لبروزه والحادث عن الحزن المرض والاسقام لكمونه ولذلك أفضى الحزن الى الموت ولم يفض اليه الغضب فهذا فرق ما بين الحزن والغضب واعلم ان لتسكين الغضب اذا هجم أسبابا يستعان بها على الحلم منها أن يذكر الله عز وجل

فيدعوه ذلك الى الخوف منه ويبعثه الخوف منه على الطاعة له فيرجع الى أدبه ويأخذ بندبه فعند ذلك يزول الغضب. قال الله تعالى واذكر ربك اذا نسيت قال عكرمة يعنى اذا غضبت وقال الله تعالى وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ومعنى قوله ينزغنك أى يغضبنك فاستعذ بالله انه هو السميع العليم يعنى انه سميع بجهل من جهل عليم بما يذهب عنك الغضب وذكر أن فى التوراة مكتوبا يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق . وحكى أن بعض ملوك الفرس كتب كتابا ودفعه الى وزير له وقال اذا غضبت فناولنيه وكان فيه مالك والغضب انما أنت بشر ارحم من فى الارض يرحمك من فى السماء . وقال بعض الحكماء من ذكر قدرة الله لم يستعمل قدرته فى ظلم عباد الله . وقال عبد الله بن مسلم ابن محارب لهارون الرشيد يا أمير المؤمنين أسألك بالذى أنت بين يديه أذل منى بين يديك وبالذى هو أقدر على عقابك منك على عقابى لما عفوت عنى فعفا عنه لما ذكره قدرة الله تعالى . وروى أن رجلا شكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم القسوة فقال اطلع فى القبور واعتبر بالنشور وكان بعض ملوك الطوائف اذا غضب ألقى عنده مفاتيح ترب الملوك فيزول غضبه ولذلك قال عمر رضى الله عنه من أكثر من ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير ومنها أن ينتقل عن الحالة التى هو فيها الى حالة غيرها فيزول عنه الغضب بتغير الاحوال والتنقل من حال الى حال وكان هذا مذهب المأمون اذا غضب أو شتم وكانت الفرس تقول اذا غضب القائم فليجلس واذا غضب الجالس فليقم ومنها أن يتذكر ما يؤول اليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام وكتب ابرويز الى ابنه شيرويه ان كلمة منك تسفك دما وأخرى منك تحقن دما وان نفاذ أمرك مع كلامك فاحترس فى غضبك من قولك أن تخطئ ومن لونك أن يتغير ومن جسدك أن يخف فان الملوك تعاقب قدرة وتعفو حلما . وقال بعض الحكماء الغضب على من لا تملك عجز وعلى من تملك لؤم . وقال بعض الادباء اياك وعزة الغضب فانها تفضى الى ذل العذر . وقال بعض الشعراء

واذا ما اعترتك فى الغضب العـزة فاذكر تذلل الاعتذار

ومنها أن يذكر ثواب العفو وحسن الصفح فيقهر نفسه على الغضب رغبة فى الجزاء والثواب وحذرا من استحقاق الذم والعقاب . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ينادى مناد يوم القيامة من له أجر على الله عز وجل فليقم فيقوم العافون عن الناس ثم تلا فمن عفا وأصلح فأجره على الله . وقال رجاء بن حيوة لعبد الملك بن مروان فى أسارى ابن الاشعث ان الله قد أعطاك ما تحب من الظفر فأعط الله ما يحب من العفو . وقد روى عن النبى صلى الله عليه

وسلم أنه قال الخير ثلاث خصال فمن كن فيه فقد استكمل الايمان من اذا رضى لم يدخله رضاه في باطل واذا غضب لم يخرجه غضبه من حق واذا قدر عفا وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز كلاما فقال عمر أردت أن يستفزني الشيطان لعزة السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غدا انصرف رحمك الله ومنها أن يذكر انعطاف القلوب عليه وميل النفوس اليه فلا يرى اضاعة ذلك بتنفير الناس عنه وبعدهم منه فيكف عن متابعة الغضب فيرغب في التألف وجميل الثناء . وروى ابن أبي ليلى عن عطية عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ازداد أحد بعفو الا عزا فاعفوا يعزكم الله . وقال بعض البلغاء ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام ولا من شروط الكرم ازالة النعم . وقال المأمون لابراهيم بن المهدي اني شاورت في أمرك فأشاروا علي بقتلك الا أني وجدت قدرك فوق ذنبك فكرهت القتل للازم حرمتك فقال يا أمير المؤمنين ان المشير أشار بما جرت به العادة في السياسة الا أنك أبيت أن تطلب النصر الا من حيث ما عودته من العفو فان عاقبت فلك نظير وان عفوت فلا نظير لك وأنشأ يقول

البر بي منك وطا العذر عندك لي * فيما فعلت فلم تعذل ولم تلم
وقام علمك بي فاحتج عندك لي * مقام شاهد عدل غير متهم
لئن جحدتك معروفا مننت به * اني لفي اللؤم أحظى منك بالكرم
تعفو بعدل وتسطو ان سطوت به * فلا عدمتك من عاف ومنتقم

﴿ الفصل الخامس في الصدق والكذب ﴾ قال الله تعالى وهو أصدق القائلين ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين وقال تعالى انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال للحسن بن علي رضي الله عنهما دع ما يريبك الى ما لا يريبك فان الكذب ريبة والصدق طمأنينة . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال رحم الله امرأ أصلح من لسانه وأقصر من عنانه وألزم طريق الحق مقوله ولم يعود الخطل مفصله . وروى صفوان بن سليم قال قيل للنبي صلى الله عليه وسلم أيكون المؤمن جبانا قال نعم قيل أفيكون بخيلا قال نعم قيل أفيكون كذابا قال لا . وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ولا تلبسوا الحق بالباطل أي لا تخلطوا الصدق بالكذب . وقيل في منثور الحكم الكذاب لص لان اللص يسرق مالك والكذاب يسرق عقلك . وقال بعض الحكماء الخرس خير من الكذب وصدق اللسان أول السعادة . وقال بعض البلغاء الصادق مصان جليل والكاذب مهان ذليل . وقال بعض الادباء لا سيف كالحق ولا عون كالصدق . وقال بعض الشعراء

وما شئ اذا فكرت فيـــه * بأذهب للمـــروءة والجمال
من الكذب الذى لاخير فيه * وأبعـد بالبهاء من الرجال

والكذب جماع كل شر وأصل كل ذم لسوء عواقبه وخبث نتائجه لانه ينتج النميمة والنميمة تنتج البغضاء والبغضاء تؤول الى العداوة وليس مع العداوة أمن ولا راحة ولذلك قيل من قل صدقه قل صديقه والصدق والكذب يدخلان الاخبار الماضية كما أن الوفاء والخلف يدخلان المواعيد المستقبلة فالصدق هو الاخبار عن الشئ على ماهو عليه والكذب هو الاخبار عن الشئ بخلاف ماهو عليه ولكل واحد منهما دواع فدواعى الصدق لازمة ودواعى الكذب عارضة لان الصدق يدعو اليه عقل موجب وشرع مؤكد فالكذب يمنع منه العقل ويصد عنه الشرع ولذلك جاز أن تستفيض الاخبار الصادقة حتى تصير متواترة ولم يجز أن تستفيض الاخبار الكاذبة لان اتفاق الناس فى الصدق والكذب انما هو لاتفاق الدواعى فدواعى الصدق يجوز أن يتفق الجمع الكثير عليها حتى اذا نقلوا خبرا وكانوا عددا ينتفى عن مثلهم المواطأة وقع فى النفس صدقه لان الدواعى اليه نافعة واتفاق الناس فى الدواعى النافعة ممكن ولا يجوز أن يتفق العدد الكثير الذى لا يمكن مواطأة مثلهم على نقل خبر يكون كذبا لان الدواعى اليه غير نافعة وربما كانت ضارة وليس فى جارى العادة أن يتفق الجمع الكثير على دواع غير نافعة ولذلك جاز اتفاق الناس على الصدق لجواز اتفاق دواعيهم ولم يجز أن يتفقوا على الكذب لامتناع اتفاق دواعيهم واذا كان للصدق والكذب دواع فلابد من ذكر ما سنح به الخاطر من دواعيهما أما دواعى الصدق فمنها العقل لانه موجب لقبح الكذب لاسيما اذا لم يجلب نفعا ولم يدفع ضررا والعقل يدعو الى فعل ما كان مستحسنا ويمنع من اتيان ما كان مستقبحا وليس ما استحسن من مبالغات الشعراء حتى صار كذبا صراحا استحسانا للكذب فى العقل كالذى أنشدنيه الازدى لبعض الشعراء

توهمه فكرى فاصبح خـــده * وفيه مكان الوهم من فكرتى أثر
وصافحه كفى فآلم كفه * فمن لمس كفى فى أنامله عقر
ومر بقلبى خاطرا فجرحتـــه * ولم أر شيأ قط يجرحه الفكر

وكقول العباس بن الاحنف وان كان دون هذه المبالغة

تقول وقد كتبت دقيق خطى * اليها لم تجنبت الجليـــــلا
فقلت لها نحلت فصار خطى * مساعدة لكاتبه نحيـــلا

لانه خرج مخرج المبالغة فى التشبيه والاقتدار على صنعة الشعر وان شواهد الحال تخرجه

عن تلبيس الكذب فلذلك استحسن فى الصنعة ولم يستقبح فى العقل وان كان الكذب مستقبحا فيه ومنها الدين الوارد باتباع الصدق وحظر الكذب لان الشرع لا يجوز أن يرد بارخاص ما حظره العقل بل جاء الشرع زائدا على ما اقتضاه العقل من حظر الكذب لان الشرع ورد بحظر الكذب وان جر نفعا أو دفع ضررا والعقل انما حظر ما لا يجلب نفعا ولا يدفع ضررا ومنها المروءة فانها مانعة من الكذب باعثة على الصدق لانها قد تمنع من فعل ما كان مستنكرها فاولى من فعل ما كان مستقبحا ومنها حب الثناء والاشتهار بالصدق حتى لا يرد عليه قول ولا يلحقه ندم. وقد قال بعض البلغاء ليكن مرجعك الى الحق ومنزعك الى الصدق فالحق أقوى معين والصدق أفضل قرين . وقال بعض الشعراء

عود لسانك قول الصدق تحظ به * ان اللسان لما عودت معتاد
موكل بتقاضى ما سننت له * فى الخير والشر فانظر كيف ترتاد

وأما دواعى الكذب فمنها اجتلاب النفع واستدفاع الضر فيرى أن الكذب أسلم وأغنم فيرخص لنفسه فيه اغترارا بالخدع واستشغافا للطمع وربما كان الكذب أبعد لما يؤمل وأقرب لما يخاف لان القبيح لا يكون حسنا والشر لا يصير خيرا وليس يجنى من الشوك العنب ولا من الكرم الحنظل . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال تحروا الصدق وان رأيتم فيه الهلكة فان فيه النجاة وتجنبوا الكذب وان رأيتم أن فيه النجاة فان فيه الهلكة وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لان يضعنى الصدق وقلما يضع أحب الى من أن يرفعنى الكذب وقلما يفعل . وقال بعض الحكماء الصدق منجيك وان خفته والكذب مرديك وان أمنته . وقال الجاحظ الصدق والوفاء توأمان والصبر والحلم توأمان فبهن تمام كل دين وصلاح كل دنيا وأضدادهن سبب كل فرقة وأصل كل فساد ومنها أن يؤثر أن يكون حديثه مستعذبا وكلامه مستظرفا فلا يجد صدقا يعذب ولا حديثا يستظرف فيستحلى الكذب الذى ليست غرائبه معوزة ولا ظرائفه معجزة وهذا النوع أسوأ حالا مما قبل لانه يصدر عن مهانة النفس ودناءة الهمة . وقد قال الجاحظ لم يكذب أحد قط الا لصغر قدر نفسه عنده . وقال ابن المقفع لا تتهاون بارسال الكذبة من الهزل فانها تسرع الى ابطال الحق ومنها أن يقصد بالكذب التشفى من عدوه فيسمه بقبائح يخترعها عليه ويصفه بفضائح ينسبها اليه ويرى أن معرة الكذب غنم وأن ارسالها فى العدو سهم وسم وهذا أسوأ حالا من النوعين الاولين لانه قد جمع بين الكذب المعر والشر المضر ولذلك ورد الشرع برد شهادة العدو على عدوه ومنها أن تكون دواعى الكذب قد ترادفت عليه حتى ألفها فصار الكذب له

عادة ونفسه اليه منقادة حتى لو رام مجانبة الكذب عسر عليه لان العادة طبع ثان . وقد قالت الحكماء من استحلى رضاع الكذب عسر فطامه . وقيل فى منثور الحكم لا يلزم الكذاب شئ الا غلب عليه واعلم أن للكذاب قبل خبرته أمارات دالة عليه فنها أنك اذا لقنته الحديث تلقنه ولم يكن بين ما لقنته وبين ما أورده فرق عنده ومنها أنك اذا شككته فيه تشكك حتى يكاد يرجع فيه ولولاك ما تخالجه الشك فيه ومنها أنك اذا رددت عليه قوله حصر وارتبك ولم يكن عنده نصرة المحتجين ولا برهان الصادقين ولذلك قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه الكذاب كالسراب ومنها ما يظهر عليه من ريبة الكذابين وينم عليه من ذلة المتوهمين لان هذه أمور لا يمكن الانسان دفعها عن نفسه لما فى الطبع من إثارتها ولذلك قالت الحكماء العينان أنم من اللسان وقال بعض البلغاء الوجوه مرايا تريك أسرار البرايا . وقال بعض الشعراء

تريك أعينهم ما فى صدورهم * ان العيون يؤدى سرها النظر

واذا اتسم بالكذب نسبت اليه شوارد الكذب المجهولة وأضيفت الى أكاذيبه زيادات مفتعلة حتى يصير الكاذب مكذوبا عليه فيجمع بين معرة الكذب منه ومضرة الكذب عليه . وقد قال الشاعر

حسب الكذوب من البليـة بعض ما يحكى عليـه
فاذا سمعت بـكذبة * من غيره نسبت اليـه

ثم انه ان تحرى الصدق اتهم وان جانب الكذب كذب حتى لا يعتقد له حديث مصدق ولا كذب مستنكر . وقد قال الشاعر

اذا عرف الكذاب بالكذب لم يكد * يصـدق فى شئ وان كان صادقا
ومن آفة الكذاب نسيـان كذبه * وتلقاه ذا حفظ اذا كان حاذقا

وقد وردت السنة بارخاص الكذب فى الحرب واصلاح ذات البين على وجه التورية والتأويل دون التصريح به فان السنة لا ترد باباحة الكذب لما فيه من التنفير وانما ذلك على طريق التورية والتعريض كما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تطرف برداء وانفرد عن أصحابه فقال له رجل ممن أنت قال من ماء فورى عن الاخبار بنسبه بأمر محتمل فظن السائل أنه عنى القبيلة المنسوبة الى ذلك وانما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من الماء الذى يخلق منه الانسان فبلغ ما أحب من اخفاء نفسه وصدق فى خبره وكالذى حكى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه كان يسير خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر معه فتلقاه العرب وهم يعرفون أبا بكر ولا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا أبا بكر من هـذا فقال هاد يهدينى السبيل فظنوا أنه يعنى هداية الطريق وهو انما يريد هداية سبيل الخير فصدق فى قوله

وورّى عن مراده . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان فى المعاريض لمندوحة عن الكذب . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان فى المعاريض ما يكفى أن يعف الرجل عن الكذب . وقال بعض أهل التأويل فى قوله تعالى لا تؤاخذنى بما نسيت انه لم ينس ولكنه معاريض الكلام . وقال ابن سيرين الكلام أوسع من أن يصرح فيه بالكذب . واعلم أن من الصدق ما يقوم مقام الكذب فى القبح والمعرة ويزيد عليه فى الاذى والمضرة وهى الغيبة والنميمة والسعاية . فأما الغيبة فانها خيانة وهتك ستر يحدثان عن حسد وغدر قال الله تعالى ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا يعنى أنه كما لا يحل لحمه ميتا لا تحل غيبته حيا . وروى أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس فأخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال صامتا عما أحل لهما وأفطرتا على ما حرم عليهما . وروت أسماء بنت يزيد قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذب عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقا على الله عزوجل أن يحرم لحمه على النار . وقال عدى بن حاتم الغيبة رعى اللئام وكان الحسن البصرى رحمه الله تعالى يقول الغيبة فاكهة النساء . وقال رجل لابن سيرين رحمه الله انى اغتبتك فاجعلنى فى حل فقال ما أحب أن أحل لك ما حرم الله عليك . وقال ابن السماك لا تعن الناس على عيبك بسوء غيبك . وقال الشاعر

لا تلتمس من مساوى الناس ما ستروا * فيهتك الله سترا عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم اذا ذكروا * ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

وربما عذر المغتاب نفسه بانه يقول حقا ويعلن فسقا ويستشهد بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ثلاثة ليست غيبتهم بغيبة الامام الجائر وشارب الخمر والمعلن بفسقه فيبعد من الصواب ويجانب الادب لانه وان كان بالغيبة صادقا فقد هتك سترا كان بصونه أولى وجاهر من أسر وأخفى وربما دعا المغتاب ذلك الى اظهار ما كان يستره والمجاهرة بما كان يضمره فلم يفده ذلك الا فساد أخلاقه من غير أن يكون فيه صلاح لغيره . وقد قيل لانوشروان ما الذى لا خير فيه قال ما ضرنى ولم ينفع غيرى أو ضر غيرى ولم ينفعنى فلا أعلم فيه خيرا . وقيل فى منثور الحكم لا بد من العيوب ما ستره علام الغيوب . وقد روى العلاء ابن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال هى أن تقول لاخيك ما فيه فان كنت صادقا فقد اغتبته وان كنت كاذبا فقد بهته . وقال عبد الرحمن بن زيد فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم انه استهزاء المسلم بمن أعلن بفسقه . ودخلت امرأة على النبى صلى الله عليه وسلم مستفتية

فلما خرجت قالت عائشة رضى الله عنها يا رسول الله ما أقصرها فقال مهلا اياك والغيبة فقالت يا رسول الله انما قلت ما فيها قال أجل ولولا ذلك لكان بهتانا . وسئل بعض الادباء عن صفة اللئيم فقال اللئيم اذا غاب عاب واذا حضر اغتاب فاما الخبر فمحمول على الانكار لافعال هؤلاء ولا يكون الانكار غيبة لانه نهى عن منكر وفرق بين انكار المجاهر وغيبة المساتر وأما النميمة فهى أن تجمع الى مذمة الغيبة رداءة وشرا وتضم الى لؤمها دناءة وغدرا ثم تؤول الى تقاطع المتواصلين وتباعد المتقاربين وتباغض المتحابين . وروى شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى يا رسول الله قال من شراركم المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الاحبة الباغون العيوب . وروى محمد ابن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل شغار ملعون كل قتات ملعون كل منان الشغار المحرش بين الناس يلقى بينهم العداوة والقتات النمام وقيل النمام الذى يكون مع القوم يتحدثون فينم حديثهم والقتات هو الذى يستمع عليهم وهم لا يعلمون فينم حديثهم والمنان هو الذى يصنع الخير ويمن به . وقيل فى منثور الحكم النميمة سيف قاتل . وقال بعض الادباء لم يمش ماش شر من واش . فاما السعاية فهى شر الثلاثة لانها تجمع الى مذمة الغيبة ولؤم النميمة التغرير بالنفوس والاموال والقدح فى المنازل والاحوال . وروى ابن قتيبة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال الجنة لا يدخلها ديوث ولا قلاع الديوث هو الذى يجمع بين الرجال والنساء سمى بذلك لانه يدث بينهم والقلاع هو الساعى الذى يقع فى الناس عند الامراء سمى بذلك لانه يأتى الرجل المتمكن عند الامير فلا يزال يقع فيه حتى يقلعه . وقال بعض الحكماء الساعى بين منزلتين قبيحتين اما أن يكون صدق فقد خان الامانة واما أن يكون قد كذب فخالف المروءة . وقال بعض الحكماء الصدق يزين كل أحد الا السعاة فان الساعى أذم وآثم ما يكون اذا صدق . وقال بعض البلغاء النميمة دناءة والسعاية رداءة وهما رأس الغدر وأساس الشر فتجنب سبلهما واجتنب أهلهما . ووقع الفضل بن سهل على قصة ساع سعى اليه نحن نرى قبول السعاية شرا منها لان السعاية دلالة والقبول اجازة فاتقوا الساعى فانه ان كان فى سعايته صادقا كان فى صدقه آثما اذلم يحفظ الحرمة ويستر العورة . وقال الاسكندر لرجل سعى اليه برجل أتحب أن نقبل منك ما تقول فيه على أن نقبل منه ما يقول فيك قال لا قال فكف عن الشر يكف عنك الشر . وروى أن الله تعالى أوحى الى موسى على نبينا وعليه السلام ان فى بلدك ساعيا ولست أخبرك وهو فى أرضك فقال يارب دلنى عليه حتى أخرجه فقال ياموسى

أكره النـ .ـة وأنـ

﴿الفصل السادس في الحسد والمنافسة﴾ اعلم أن الحسد خلق ذميم مع اضراره بالبدن وفساده للدين حتى لقد أمر الله بالاستعاذة من شره فقال تعالى ومن شر حاسد اذا حسد وناهيك بحال ذلك شرا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال دب اليكم داء الامم قبلكم البغضاء والحسد هي الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر والذى نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أنبئكم بأمر اذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم فأخبر صلى الله عليه وسلم بحال الحسد وأن التحابب ينفيه وأن السلام يبعث على التحابب فصار السلام اذا نافيا للحسد وقد جاء كتاب الله تعالى بما يوافق هذا القول وقال الله تعالى ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم قال مجاهد معناه ادفع بالسلام اساءة المسىء . وقال الشاعر

قد يلبث الناس حينا ليس بينهم * ودّ فيزرعه التسليم واللطف

وقال بعض السلف الحسد أول ذنب عصى الله به فى السماء يعنى حسد ابليس لآدم عليه السلام وأول ذنب عصى الله به فى الارض يعنى حسد ابن آدم لاخيه حتى قتله . وقال بعض الحكماء من رضى بقضاء الله تعالى لم يسخطه أحد ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد . وقال بعض البلغاء الناس حاسد ومحسود ولكل نعمة حسود . وقال بعض الادباء ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحسود نفس دائم وهم لازم وقلب هائم . فاخذه بعض الشعراء فقال

ان الحسود الظلوم فى كرب * يخاله من يراه مظلوما
ذا نفس دائم على نفس * يظهر منها ما كان مكتوما

ولو لم يكن من ذم الحسد الا أنه خلق دنىء يتوجه نحو الاكفاء والاقارب ويختص بالمخالط والمصاحب لكانت النزاهة عنه كرما والسلامة منه مغنما فكيف وهو بالنفس مضر وعلى الهم مصرّ حتى ربما أفضى بصاحبه الى التلف من غير نكاية فى عدو ولا اضرار بمحسود . وقد قال معاوية رضى الله عنه ليس فى خصال الشر أعدل من الحسد يقتل الحاسد قبل أن يصل الى المحسود . وقال بعض الحكماء يكفيك من الحاسد أنه يغتم فى وقت سرورك . وقيل فى منثور الحكم عقوبة الحاسد من نفسه . وقال الاصمعى قلت لاعرابى ما أطول عمرك قال تركت الحسد فبقيت . وقال رجل لشريح القاضى انى لاحسدك على ما أرى من صبرك على الخصوم ووقوفك على غامض الحكم فقال ما نفعك الله بذلك ولا ضرنى . وقال عبد الله بن المعتز رحمه الله تعالى

اصبر على كيد الحسو * د فان صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها * ان لم تجد ما تاكله

وحقيقة الحسد شدة الاسى على الخيرات تكون للناس الافاضل وهو غير المنافسة وربما غلط قوم فظنوا أن المنافسة في الخير هي الحسد وليس الامر على ماظنوا لان المنافسة طلب التشبه بالافاضل من غير ادخال ضرر عليهم والحسد مصروف الى الضرر لان غايته أن يعدم الافاضل فضلهم من غير أن يصير الفضل له فهذا الفرق بين المنافسة والحسد فالمنافسة اذا فضيلة لانها داعية الى اكتساب الفضائل والاقتداء باخيار الافاضل . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المؤمن يغبط والمنافق يحسد . وقال الشاعر

نافس على الخيرات أهل العلا * فانما الدنيا أحاديث

كل امرئ في شأنه كادح * فوارث منهم وموروث

واعلم أن دواعي الحسد ثلاثة . أحدها بغض المحسود فيأسى عليه بفضيلة تظهر أو منقبة تشكر فيثير حسدا قد خامر بغضا وهذا النوع لا يكون عاما وان كان أضرها لانه ليس يبغض كل الناس . والثاني أن يظهر من المحسود فضل يعجز عنه فيكره تقدمه فيه واختصاصه به فيثير ذلك حسدا لولاه لكف عنه وهذا أوسطها لانه لا يحسد الا كفاء من دنا وانما يختص بحسد من علا وقد يمتزج بهذا النوع ضرب من المنافسة ولكنها مع عجز فلذلك صارت حسدا . والثالث أن يكون في الحاسد شح بالفضائل وبخل بالنعم وليست اليه فيمنع منها ولا بيده فيدفع عنها لانها مواهب قد منحها الله من شاء فيسخط على الله عز وجل في قضائه ويحسد على مامنح من عطائه وان كانت نعم الله عز وجل عنده أكثر ومنحه عليه أظهر وهذا النوع من الحسد أعمها وأخبثها اذ ليس لصاحبه راحة ولا لرضاه غاية فان اقترن بشر وقدرة كان بورا وانتقاما وان صادف عجزا ومهانة كان جهدا وسقاما . وقد قال عبد الحميد الحسود من الهم كساقي السم فان سرى سمه زال عنه همه واعلم أن بحسب فضل الانسان وظهور النعمة عليه يكون حسد الناس له فان كثر فضله كثر حساده وان قل قلوا لان ظهور الفضل يثير الحسد وحدوث النعمة يضاعف الكمد ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم استعينوا على قضاء الحوائج بسترها فان كل ذي نعمة محسود وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما كانت نعمة الله على أحد الا وجد لها حاسدا فلو كان الرجل أقوم من القدح لما عدم غامزا . وقد قال الشاعر

ان يحسدوني فاني غير لائمهم * قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا

فدام لي ولهم مابي ومابهم * ومات أكثرنا غيظا بما يجد

وربما كان الحسد منبها على فضل المحسود ونقص الحسود . كما قال أبو تمام الطائي

واذا أراد الله نشر فضيلة * طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت * ما كان يعرف طيب عرف العود
لولا التخوف للعواقب لم يزل * للحاسد النعمى على المحسود

فاما ما يستعمله من كان غالبا عليه الحسد وكان طبعه اليه مائلا لينتفى عنه ويكفاه ويسلم من ضرره وعداوته فأمور هي له حسم ان صادفها عزم فنها اتباع الدين في اجتنابه والرجوع الى الله عز وجل في آدابه فيقهر نفسه على مذموم خلقها وينقلها عن لئيم طبعها وان كان نقل الطباع عسرا لكن بالرياضة والتدريج يسهل منها ما استصعب ويحبب منها ما أتعب وان تقدم قول القائل من ربه خلقه كيف يخلى خلقه غير أنه اذا عانى تهذيب نفسه تظاهر بالتخلق دون الخلق ثم بالعادة يصير كالخلق . قال أبو تمام الطائي

فلم أجد الاخلاق الا تخلقا * ولم أجد الافضال الا تفضلا

ومنها العقل الذي يستقبح به من نتائج الحسد ما لا يرضيه ويستنكف من هجنة مساويه فيذلل نفسه أنفة ويقهرها حمية فتذعن لرشدها وتجيب الى صلاحها وهذا انما يصح لذي النفس الابية والهمة العلية وان كان ذو الهمة يجل عن دناءة الحسد . وقد قال الشاعر

أبى له نفسان نفس زكية * ونفس اذا ما خافت الظلم تشمس

ومنها أن يستدفع ضرره ويتوقى أثره ويعلم أن مكانته في نفسه أبلغ ومن الحسد أبعد فيستعمل الحزم في دفع ما كده وأكده ليكون أطيب نفسا وأهنأ عيشا . وقد قيل العجب لغفلة الحساد عن سلامة الاجساد . وقد قال الشاعر

بصير بأعقاب الامور كأنما * يرى بصواب الرأي ما هو واقع

ومنها ما يرى من نفور الناس عنه وبعدهم منه فيخافهم اما على نفسه من عداوة أو على عرضه من ملامة فيتألفهم بمعالجة نفسه ويراهم ان صلحوا أجدى نفعا وأخلص ودا وقال ابن العميد رحمه الله تعالى

داوى جوى بجوى وليس بحازم * من يستكف النار بالحلفاء

وقال المؤمل بن أميل

لا تحسبوني غنيا عن مودتكم * اني اليكم وان أيسرت مفتقر

ومنها أن يساعد القضاء ويستسلم للمقدور ولا يرى أن يغالب قضاء الله فيرجع مغلوبا ولا أن يعارضه في أمره فيرد محروما مسلوبا . وقد قال ازدشير بن بابك اذا لم يساعدنا القضاء ساعدناه . وقال محمود الوراق

قدر الله كائن * حين يقضى وروده
قد مضى فيك علمه * وانتهى ما يريده
وأخو الحزم حزمه * ليس مما يزيده
فأرد ما يكون ان * لم يكن ما تريده

فان أظفرته السعادة بأحد هذه الاسباب وهدته المراشد الى استعمال الصواب سلم من سقامه وخاص من غرامه واستبدل بالنقص فضلا واعتاض من الذم حمدا فان استرك نفسه عن مذمة وصرفها عن لائمة فهو أظهر حزما وأقوى عزما ممن كفته النفس جهادها وأعطته قيادها ولذلك قال على بن أبى طالب رضى الله عنه خياركم كل مفتن تواب . وان صدته الشهوة عن مراشده وأضله الحرمان عن مقاصده فانقاد للطبع اللئيم وغلب عليه الخلق الذميم حتى ظهر حسده واشتد كده فقد باء بأربع مذام احداهن حسرات الحسد وسقام الجسد ثم لا يجد لحسرته انتهاء ولا يؤمل لسقامه شفاء وقال ابن المعتز الحسد داء الجسد . والثانية انخفاض المنزلة وانحطاط المرتبة لانحراف الناس عنه ونفورهم منه . وقد قيل فى منثور الحكم الحسود لا يسود والثالثة مقت الناس له حتى لا يجد فيهم محبا وعداوتهم له حتى لا يرى فيهم وليا فيصير بالعداوة مأثورا وبالمقت مزجورا ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم شر الناس من يبغض الناس ويبغضونه . والرابعة اسخاط الله تعالى فى معارضته واجتناء الاوزار فى مخالفته اذ ليس يرى قضاء الله عدلا ولا لنعمه من الناس أهلا . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال عبد الله بن المعتز الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له بخيل بما لا يملكه طالب ما لا يجده واذا بلى الانسان بمن هذه حاله من حساد النعم وأعداء الفضل استعاذ بالله من شره وتوقى مصارع كيده وتحرز من غوائل حسده وأبعد عن ملابسته وادنائه لعضل دائه واعواز دوائه فقد قيل حاسد النعمة لا يرضيه الا زوالها . وقال بعض الحكماء من ضر بطبعه فلا تأنس بقربه فان قلب الاعيان صعب المرام . وقال عبد الحميد أسد تقاربه خير من حسود تراقبه . وقال محمود الوراق

أعطيت كل الناس من نفسى الرضا * الا الحسود فانه أعيانى
ما ان لى ذنبا اليه علمته * الا تظاهر نعمة الرحمن
وأبى فما يرضيه الا ذلتى * وذهاب أموالى وقطع لسانى

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ثلاثة لا يسلم أحد منهن الطيرة وسوء الظن والحسد فاذا تطيرت فلا ترجع واذا ظننت فلا تحقق واذا حسدت فلا تبغ

﴿فصـــل﴾ وأما آداب المواضعة والاصطلاح فضربان أحدهما ماتكون المواضعة في فروعه والعقل موجب لاصوله والثانى ماتكون المواضـعة فى فروعه وأصوله وذلك متضح فى الفصول التى نذكرها اذا سبرت وهى ثمانية

﴿الفصـل الاول فى الكلام والصمت﴾ اعلم أن الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر ويخبر بمكنونات السرائر لايمكن استرجاع بوادره ولا يقدر على رد شوارده فحق على العاقل أن يحترز من زلله بالامساك عنه أو بالاقلال منه . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال رحم الله من قال خيرا فغنم أوسكت فسلم . وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ يامعاذ أنت سالم ماسكت فاذا تكلمت فعليك أو لك . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه اللسان معيار أطاشه الجهل وأرجحه العقل . وقال بعض الحكماء الزم الصمت تعد حكيما جاهلا كنت أو عالما . وقال بعض الادباء سـعد من لسانه صموت وكلامه قوت . وقال بعض العلماء من أعوز ما يتكلم به العـاقل أن لايتكلم الا لحاجته أو لحجته ولا يفكر الا فى عاقبته أو فى آخرته . وقال بعض البلغاء الزم الصمت فانه يكسبك صفو المحبة ويؤمنك سوء المغبة ويلبسك ثوب الوقار ويكفيك مؤنة الاعتذار . وقال بعض الفصحاء اعقل لسانك الا عن حق توضحه أو باطل تدحضه أوحكمة تنشرها أونعمة تذكرها . وقال الشاعر

رأيت العـــز فى أدب وعقل * وفى الجهـل المذلة والهوان
وماحسن الرجال لهم بحسن * اذا لم يسعد الحســـن البيان
كفى بالمـــــرء عيبا أن تراه * له وجـــه وليس له لسـان

واعلم أن للكلام شروطا لايسـلم المتكلم من الزلل الابها ولا يعرى من النقص الا بعـد أن يستوفيها وهى أربعة . فالشرط الاول أن يكون الكلام لداع يدعو اليه اما فى اجتلاب نفع أو دفع ضرر . والشرط الثانى أن يأتى به فى موضعه ويتوخى به اصابة فرصته . والشرط الثالث أن يقتصر منه على قدر حاجته . والشرط الرابع أن يتخير اللفظ الذى يتكلم به . فهذه أربعة شروط متى أخل المتكلم بشرط منها فقد أوهن فضيلة باقيها وسنذكر تعليل كل شرط منها بما ينبئ عن لزومه . فاما الشرط الاول وهو الداعى الى الكلام فلأن مالا داعى له هذيان ومالاسبب له هجر ومن سامح نفسه فى الكلام اذا عنّ ولم يراع صحة دواعيـه واصابة معانيه كان قوله مرذولا ورأيه معلولا كالذى حكى ابن عائشة أن شابا كان يجالس الاحنف ويطيل الصمت فأعجب ذلك الاحنف فخلت الحلقة يوما فقال له الاحنف تكلم يا ابن أخى فقال ياعم أرأيت لو أن رجلا سقط من شرف هذا المسجد هل كان يضره شئ فقال يا ابن أخى ليتنا تركناك مستورا

ثم تمثل الاحنف بقول الاعور الشنى

وكائن ترى من صامت لك معجب * زيادته أونقصـــــه فى التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبـــق الاصورة اللحم والدم

وكالذى حكى عن أبى يوسف الفقيــه أن رجلا كان يجلس اليــه فيطيل الصمت فقـال له أبو يوسف ألا تسـأل قال بلى متى يفطر الصائم قال اذا غربت الشمس قال فان لم تغرب الى نصف الليل قال فتبسم أبو يوسف رحمه الله وتمثل ببيتى الخطفى جد جرير

عجبت لازراء الغبى بنفســه * وصمت الذى قد كان بالقول أعلما
وفى الصمت ستر للغبى وانما * صحيفـة لب المـرء أن يتكلما

ومما أطرفك به عنى أنى كنت يوما فى مجلسى بالبصرة وأنا مقبل على تدريس أصحابى اذ دخل على رجل مسن قد ناهز الثمانين أوجاوزها فقال لى قد قصدتك بمسألة اخترتك لها فقلت اسأل عافاك الله وظننته يسأل عن حادث نزل به فقال اخبرنى عن نجم ابليس ونجم آدم ماهو فان هذين لعظم شأنهما لا يسئل عنهما الا علماء الدين فعجبت وعجب من فى مجلسى من سؤاله وبدر اليه قوم منهم بالانكار والاستخفاف فكففتهم وقلت هذا لا يقنع مع ماظهر من حاله الا بجواب مثله فاقبلت عليــه وقلت ياهـذا ان المنجمين يزعمون أن نجوم الناس لا تعرف الا بمعرفة مواليدهـم فان ظفرت بمن يعرف ذلك فاسأله فحينئذ أقبل على وقال جزاك الله خيرا ثم انصرف مسرورا فلما كان بعد أيام عاد وقال ماوجدت الى وقتى هذا من يعرف مولد هذين فانظر الى هؤلاء كيف أبانوا بالكلام عن جهلهم وأعربوا بالسؤال عن نقصهم اذ لم يكن لهم داع اليه ولا روية فيما تكلموا به ولو صدر عن روية ودعا اليه داع لسلموا من شينه وبرئوا من عيبه ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لسان العاقل من وراء قلبه فاذا أراد الكلام رجع الى قلبه فان كان له تكلم وان كان عليه أمسك وقلب الجاهل من وراء لسانه يتكلم بكل ما عرض له . وقال عمر بن عبد العزيز من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه . وقال بعض الحكماء عقل المرء مخبوء تحت لسانه . وقال بعض البلغاء احبس لسانك قبل أن يطيل حبسك أو يتلف نفسك فلا شئ أولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع الى الجواب . وقال أبو تمام الطائى

ومما كانت الحكماء قالت * لسان المرء من تبع الفؤاد

وكان بعض الحكماء يغتنم الرخصة فى الكلام ويقول اذا جالست الجهال فانصت لهم واذا جالست العلماء فأنصت لهم فان فى انصاتك للجهال زيادة فى الحلم وفى انصاتك للعلماء زيادة فى العلم

. وأما الشرط الثانى فهو أن يأتى بالكلام فى موضعه لان الكلام فى غير حينه لا يقع موقع الانتفاع به ومالا ينفع من الكلام فقد تقدم القول بانه هزيان وهجر فان قدم ما يقتضى التأخير كان عجلة وخرقا وان أخر ما يقتضى التقديم كان توانيا وعجزا لان لكل مقام قولا وفى كل زمان عملا . وقد قال الشاعر

تضع الحديث على مواضعه * وكلامها من بعدها نزر

وأما الشرط الثالث وهو أن يقتصر منه على قدر حاجته فان الكلام ان لم ينحصر بالحاجة ولم يقدر بالكفاية لم يكن لحده غاية ولا لقدره نهاية ومالم يكن من الكلام محصورا كان إما حصرا ان قصر أوهدرا ان كثر . وروى أن اعرابيا تكلم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وطول فقال النبى صلى الله عليه وسلم كم دون لسانك من حجاب قال شفتاى وأسنانى قال فان الله عز وجل يكره الانبعاق فى الكلام فنضر الله وجه امرئ أوجز فى كلامه فاقتصر على حاجته . وحكى أن بعض الحكماء رأى رجلا يكثر الكلام ويقل السكوت فقال ان الله تعالى انما خلق لك اذنين ولسانا واحدا ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به . وقال بعض الحكماء من كثر كلامه كثرت آثامه . وقال ابن مسعود أنذركم فضول المنطق . وقال بعض البلغاء كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل واقتصر منه على القليل واياك مايسخط سلطانك ويوحش اخوانك فمن أسخط سلطانه تعرض للمنية ومن أوحش اخوانه تبرأ من الحرية . وقال بعض الشعراء

وزن الكلام اذا نطقت فانما * يبدى عيوب ذوى العيوب المنطق

ولمخالفة قدر الحاجة من الكلام حالتان تقصير يكون حصرا وتكثير يكون هدرا وكلاهما شين وشين الهدر أشنع وربما كان فى الغالب أخوف قال النبى صلى الله عليه وسلم وهل يكب الناس على مناخرهم فى نار جهنم الا حصائد ألسنتهم . وقال بعض الحكماء مقتل الرجل بين فكيه . وقال بعض البلغاء الحصر خير من الهذر لان الحصر يضعف الحجة والهذر يتلف المهجة . وقد قال الشاعر

رأيت اللسان على أهله * اذا ساسه الجهل ليثا مغيرا

وقال بعض الادباء يارب ألسنة كالسيوف تقطع أعناق أصحابها ومانقص من هيئات الرجال يزيد فى بهائها وألبابها . وقد ذهب بعضهم الى أن الكلام اذا كثر عن قدر الحاجة وزاد على حد الكفاية وكان صوابا لا يشوبه خطل وسليما لا يتعوده زلل فهو البيان والسحر الحلال . وقال سليمان بن عبد الملك وقد ذم الكلام فى مجلسه كلا ان من تكلم فأحسن

قدر على أن يسكت فيحسن وليس من سكت فأحسن قدر على أن يتكلم فيحسن ووصف بعضهم الكاتب فقال الكاتب من اذا أخذ شبرا كفاه واذ وجد طومارا أملاه . وأنشد بعضهم فى خطباء اياد

يرمون بالخطب الطوال وتارة * وحى الملاحظ خيفة الرقباء

وقال الهيثم بن صالح لابنه يا بنى اذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب فقال يا أبتى فان أنا أكثرت وأكثرت يعنى كلاما وصوابا فقال يا بنى ما رأيت موعوظا أحق بان يكون واعظا منك . وأنشدت لابى الفتح البستى

تكلم وسدد ما استطعت فانما * كلامك حى والسكوت جماد

فان لم تجد قولا سديدا تقوله * فصمتك عن غير السداد سداد

وقيل لاياس بن معاوية مافيك عيب الا كثرة الكلام فقال أفتسمعون صوابا أو خطأ قالوا لا بل صوابا قال فالزيادة من الخير خير . وقال أبو عثمان الجاحظ للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية ومافضل عن مقدار الاحتمال ودعا الى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر وصدق أبو عثمان لان الاكثار منه وان كان صوابا يمل السامع ويكل الخاطر وهو صادر عن اعجاب به ولولاه لاقصر عنه ومن أعجب بكلامه استرسل فيه والمسترسل فى الكلام كثير الزلل دائم العثار . وقال بعض الحكماء من أعجب بقوله أصيب بعقله وليس لكثرة الهذر رجاء يقابل خوفه ولا نفع يوازى ضرره لانه يخاف من نفسه الزلل ومن سامعيه السآمة والملل وليس فى مقابلة هذين حاجة داعية ولا نفع مرجو . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أبغضكم الى المتفيهق المكثار والملح المهذار . وسأل رجل حكيما فقال متى أتكلم قال اذا اشتهيت الصمت فقال متى أصمت قال اذا اشتهيت الكلام . وقال جعفر بن يحيى اذا كان الايجاز كافيا كان الاكثار عيا وان كان الاكثار واجبا كان التقصير عجزا . وقيل فى منثور الحكم اذا تم العقل نقص الكلام . وقال بعض الادباء من أطال صمته اجتلب من الهيبة ما ينفعه ومن الوحشة ما لا يضره . وقال بعض البلغاء يسلم منه خير من منطق تندم عليه فاقتصر من الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغ حاجتك واياك وفضوله فانه يزل القدم ويورث الندم . وقال بعض الفصحاء فم العاقل ملجم اذا هم بالكلام أحجم وفم الجاهل مطلق كلما شاء أطلق . وقال بعض الشعراء

ان الكلام يغر القوم جلوته * حتى يلج به عى واكثار

* وأما الشرط الرابع وهو اختيار اللفظ الذي يتكلم به فلأن اللسان عنوان الانسان يترجم عن مجهوله ويبرهن عن محصوله فيلزم أن يكون بتهذيب ألفاظه حريا وبتقويم لسانه مليا. روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعمه العباس يعجبني جمالك قال وما جمال الرجل يارسول الله قال لسانه وقال خالد بن صفوان ما الانسان لولا اللسان هل كان الا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة . وقال بعض الحكماء اللسان وزير الانسان . وقال بعض البلغاء يستدل على عقل الرجل بقوله وعلى أصله بفعله . وقال بعض الشعراء

وان لسان المرء مالم تكن له * حصاة على عوراته لدليل

وليس يصح اختيار الكلام الا لمن أخذ نفسه بالبلاغة وكلفها لزوم الفصاحة حتى يصير متدربا بها معتادا لها فلا يأتي بكلام مستكره اللفظ ولا مختل المعنى لان البلاغة ليست على معان مفردة ولا لالفاظها غاية وانما البلاغة أن تكون بالمعاني الصحيحة مستودعة في ألفاظ فصيحة فتكون فصاحة الالفاظ مع صحة المعاني هي البلاغة . وقد قيل لليوناني ما البلاغة قال اختيار الكلام وتصحيح الاقسام وقيل ذلك للرومي فقال حسن الاختصار عند البديهة والغزارة يوم الاطالة وقيل للهندي فقال معرفة الفصل من الوصل وقيل للعربي فقال ماحسن ايجازه وقل مجازه وقيل للبدوي فقال مادون السحر وفوق الشعر يفت الخردل ويحط الجندل وقيل للحضري فقال ما كثر اعجازه وتناسبت صدوره وأعجازه . وقال ابن المقفع البلاغة قلة الحصر والجراءة على البشر . وسأل الحجاج ابن القرية عن الايجاز قال أن تقول فلا تبطئ وأن تصيب فلا تخطئ . وقال الشاعر

خير الكلام قليل * على كثير دليل
والعي معنى قصير * يحويه لفظ طويل
وفي الكلام فضول * وفيه قال وقيل

وأما صحة المعاني فتكون من ثلاثة أوجه . أحدها ايضاح تفسيرها حتى لا تكون مشكلة ولا مجملة . والثاني استيفاء تقسيمها حتى لا يدخل فيها ماليس منها ولا يخرج عنها ماهو فيها . والثالث صحة مقابلاتها والمقابلة تكون من وجهين . أحدهما مقابلة المعنى بما يوافقه وحقيقة هذه المقاربة لان المعاني تصير متشاكلة . والثاني مقابلته بما يضاده وهو حقيقة المقابلة وليس المقابلة الا أحد هذين الوجهين . الموافقة في الائتلاف والمضادة مع الاختلاف. فأما فصاحة الالفاظ فتكون بثلاثة أوجه . أحدها مجانبة الغريب الوحشي حتى لا يمجه سمع

ولا ينفر منه طبع . والثانى تنكب اللفظ المستبذل والعدول عن الكلام المسترذل حتى لا يستسقطه خاصى ولا ينبو عن فهمه عامى كما قال الجاحظ فى كتاب البيان أما أنا فلم أر قوما أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب وذلك أنهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا عاميا . والثالث أن يكون بين الالفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة . أما المطابقة فهى أن تكون الالفاظ كالقوالب لمعانيها فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها . وقال بشر بن المعتمر فى وصيته فى البلاغة اذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها ولا صائرة الى مستقرها ولا حالة فى مركزها بل وجدتها قلقة فى مكانها نافرة عن موضعها فلا تكرهها على القرار فى غير موضعها فانك ان لم تتعاط قريض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك أحد واذا أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقا فيهما عابك من أنت أقل عيبا منه وأزرى عليك من أنت فوقه . وأما المناسبة فهى أن يكون المعنى يليق ببعض الالفاظ إما لعرف مستعمل أو لاتفاق مستحسن حتى اذا ذكرت تلك المعانى بغير تلك الالفاظ كانت نافرة عنها وان كانت أفصح وأوضح لاعتياد ما سواها . وقال بعض البلغاء لا يكون البليغ بليغا حتى يكون معنى كلامه أسبق الى فهمك من لفظه الى سمعك وأما معاطاة الاعراب وتجنب اللحن فانما هو من صفات الصواب والبلاغة أعلى منه رتبة وأشرف منزلة وليس لمن لحن فى كلامه مدخل فى الادباء فضلا عن أن يكون فى عداد البلغاء . واعلم أن للكلام آدابا ان أغفلها المتكلم أذهب رونق كلامه وطمس بهجة بيانه ولها الناس عن محاسن فضله بمساوى أدبه فعدلوا عن مناقبه بذكر مثالبه فمن ادابه أن لا يتجاوز فى مدح ولا يسرف فى ذم وان كانت النزاهة عن الذم كرما والتجاوز فى المدح ملقا يصدر عن مهانة والسرف فى الذم انتقام يصدر عن شر وكلاهما شين وان سلم من الكذب . يروى أنه لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد تميم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن الاهتم عن قيس بن عاصم فدحه فقال قيس والله يا رسول الله لقد علم أنى خير مما وصف ولكن حسدنى فذمه عمرو وقال والله يا رسول الله لقد صدقت فى الاولى وما كذبت فى الأخرى لانى رضيت فى الاولى فقلت أحسن ما علمت وسخطت فى الأخرى فقلت أقبح ما علمت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من البيان لسحرا على أن السلامة من الكذب فى المدح والذم متعذرة لاسيما اذا مدح تقربا وذم تحنقا . وحكى عن الاحنف بن قيس أنه قال سهرت ليلتى أفكر فى كلمة أرضى بها سلطانى ولا أسخط بها ربى فما وجدتها . وقال عبد الله بن مسعود ان الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج وما معه دينه قيل وكيف ذلك قال يرضيه بما يسخط الله عز وجل

وسمع ابن الرومى رجلا يصف رجلا و يبالغ فى مدحه فأنشأ يقول

اذا ما وصفت امرأ لامرئ * فلا تغل فى وصفه واقصد
فانك ان تغل تغل الظنو * ن فيه الى الأمد الأبعد
فيضأل من حيث عظمته * لفضل المغيب على المشهد

ومن آدابه أن لا تبعثه الرغبة والرهبة على الاسترسال فى وعد أو وعيد يعجز عنهما ولا يقدر على الوفاء بهما فان من أطلق بهما لسانه وأرسل فيهما عنانه ولم يستثقل من القول ما يستثقله من العمل صار وعده نكثا ووعيده عجزا . وحكى أن سليمان بن داود عليهما السلام مر بعصفور يدور حول عصفورة فقال لأصحابه هل تدرون ما يقول لها قالوا لا يا نبى الله قال انه يخطبها لنفسه ويقول لها زوجينى نفسك أسكنك أى غرف دمشق شئت وقال سليمان كذب العصفور فان غرف دمشق مبنية بالصخور لا يقدر أن يسكنها هنالك ولكن كل خاطب كاذب . ومن آدابه ان قال قولا حققه بفعله واذا تكلم بكلام صدقه بعمله فان ارسال القول اختيار والعمل به اضطرار ولأن يفعل ما لم يقل أجمل من أن يقول ما لم يفعل . وقال بعض الحكماء أحسن الكلام ما لا يحتاج فيه الى الكلام أى يكتفى بالفعل من القول . وقال محمود الوراق

القول ما صدقه الفعل * والفعل ما وكده العقل
لا يثبت القول اذا لم يكن * يقله من تحته الاصل

ومن آدابه أن يراعى مخارج كلامه بحسب مقاصده وأغراضه فان كان ترغيبا قرنه باللين واللطف وان كان ترهيبا خلطه بالخشونة والعنف فان لين اللفظ فى الترهيب وخشونته فى الترغيب خروج عن موضعهما وتعطيل للمقصود بهما فيصير الكلام لغوا والغرض المقصود لهوا . وقد قال أبو الاسود الدؤلى لابنه يا بنى ان كنت فى قوم فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك ولا بكلام من هو دونك فيزدروك . ومن آدابه أن لا يرفع بكلامه صوتا مستكرها ولا ينزعج له انزعاجا مستهجنا وليكف عن حركة تكون طيشا وعن حركة تكون عيا فان نقص الطيش أكثر من فضل البلاغة . وقد حكى أن الحجاج قال لأعرابى أخطيب أنا قال نعم لولا أنك تكثر الرد وتشير باليد وتقول أما بعد . ومن آدابه أن يتجافى هجر القول ومستقبح الكلام وليعدل الى الكناية عما يستقبح صريحه ويستهجن فصيحه ليبلغ الغرض ولسانه نزه وأدبه مصون . وقد قال محمد بن على فى قوله تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما قال كانوا اذا ذكروا الفروج كنوا عنها وكما أنه يصون لسانه عن ذلك فهكذا يصون عنه

سمعه فلا يسمع خنا ولا يصغى الى فحش فان سماع الفحش داع الى اظهاره وذريعة الى انكاره واذا وجد عن الفحش معرضا كف قائله وكان اعراضه أحد النكيرين كما أن سماعه أحد الباعثين وأنشدنى أبو الحسن بن الحارث الهاشمى

تحرّ من الطرق أوساطها * وعدّ عن الموضع المشتبه
وسمعك صن عن قبيح الكلام * كصون اللسان عن النطق به
فانك عند استماع القبيح * شريك لقائله فانتبه

ومما يجرى مجرى فحش القول وهجره فى وجوب اجتنابه ولزوم تنكبه ما كان شنيع البديهة مستنكر الظاهر وان كان عقب التأمل سليما وبعد الكشف والروية مستقيما كالذى رواه الازدى عن الصولى لبعض المتكلمين من الشعراء

انى شيخ كبير * كافر بالله سيرى
أنت ربى والهى * رازق الطفل الصغير

يريد بقوله كافر أى لابس لان الكفر التغطية ولذلك سمى الكافر بالله كافرا لانه قد غطى نعمة الله بمعصيته وقوله بالله سيرى يقسم عليها أن تسير وقوله أنت ربى يعنى ربى ذلك من التربية والهى رازق الطفل الصغير كما أنه رازق الولد الكبير فانظر الى هذا التكلف الشنيع والتعمق البشع ما اعتاض من حيث البديهة اذا سلم بعد الفكر والروية الا لوما ان حسن فيه الظن أو ذما ان قوى فيه الارتياب وقلما يكون ذلك الا من خليع بطر ومرتاب أشر فأما الحديث المروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تصلوا على النبى فخارج من هذا النوع من التلبيس وفى تأويله وجهان . أحدهما أنه أراد النهى عن الصلاة فى المكان المرتفع المحدودب مأخوذ من النبوة . والثانى أنه أراد الطريق ومنه سمى رسل الله أنبياء لانهم الطرق اليه وانما زال عنه التلبيس اذ قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كان من قول غيره تلبيسا شنيعا لان موضوع خطابه وشواهد أحواله يصرفان كلامه عن التجوز والاسترسال فى أمر أو نهى الى ما يجوز أن يرد به شرع وينهى عنه نبى وليس يمتنع ذلك فى غيره ولذلك افترق وجوده منه ومن غيره . ومن آدابه أن يجتنب أمثال العامة الغوغاء ويتخصص بأمثال العلماء الادباء فان لكل صنف من الناس أمثالا تشاكلهم . فلا تجد لساقط الا مثلا ساقطا وتشبيها مستقبحا وللسقاط أمثال فمنها تمثيلهم للشئ المريب كما قال الصنوبرى

اذا ما كنت ذا بول صحيح * ألا فاضرب به وجه الطبيب

ولذلك علتان . أحداهما أن الامثال من هواجس الهمم وخطرات النفوس ولم يكن لذى الهمة الساقطة . الامثل مرذول وتشبيه معلول . والثانية أن الامثال مستخرجة من أحوال المتمثلين بها فبحسب ماهم عليه تكون أمثالهم فلهاتين العلتين وقع الفرق بين أمثال الخاصة وأمثال العامة وربما ألف المخصص مثلا عاميا أو تشبيها ركيكا لكثرة مايطرق سمعه من مخالطة الاراذل فيسترسل فى ضربه مثلا فيصير به مثلا كالذى حكى عن الاصمعى أن الرشيد سأله يوما عن أنساب بعض العرب فقال على الخبير سقطت يا أمير المؤمنين فقال له الفضل بن الربيع أسقط الله حسك أتخاطب أمير المؤمنين بمثل هذا الخطاب فكان الفضل بن الربيع مع قلة علمه أعلم بما يستعمل من الكلام فى محاورة الخلفاء من الاصمعى الذى هو واحد عصره وفريد دهره . وللامثال من الكلام موقع فى الاسماع وتأثير فى القلوب لايكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها ولا يؤثر تأثيرها لان المعانى بها لائحة والشواهد بها واضحة والنفوس بها وامقة والقلوب بها واثقة والعقول لها موافقة فلذلك ضرب الله الامثال فى كتابه العزيز وجعلها من دلائل رسله وأوضح بها الحجة على خلقه لانها فى العقول معقوله وفى القلوب مقبولة ولها أربعة شروط . أحدها صحة التشبيه . والثانى أن يكون العلم بها سابقا والكل عليها موافقا . والثالث أن يسرع وصولها للفهم ويعجل تصورها فى الوهم من غير ارتياء فى استخراجها ولا كد فى استنباطها . والرابع أن تناسب حال السامع لتكون أبلغ تأثيرا وأحسن موقعا فاذا اجتمعت فى الامثال المضروبة هذه الشروط الاربعة كانت زينة للكلام وجلاء للمعانى وتدبرا للافهام

﴿ الفصل الثانى فى الصبر والجزع ﴾ اعلم أن من حسن التوفيق وأمارات السعادة الصبر على الملمات والرفق عند النوازل وبه نزل الكتاب وجاءت السنة قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون يعنى اصبروا على ما افترض الله عليكم وصابروا عدوكم ورابطوا فيه تأويلا . أحدهما على الجهاد . والثانى على انتظار الصلوات . وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أدلكم على ما يحبط الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يارسول الله قال اسباغ الوضوء عند المكاره وكثرة الخطا الى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فنزل الكتاب بتأكيد الصبر فيما أمر به وندب اليه وجعله من عزائم التقوى فيما افترضه وحث عليه . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الصبر ستر من الكروب وعون على الخطوب . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه الصبر مطية لاتكبو والقناعة سيف لاينبو . وقال عبد الحميد لم أسمع أعجب من قول

عمر بن الخطاب رضى الله عنه لو أن الصبر والشكر بعيران ما باليت أيهما ركبت . وقال عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما أفضل العدّة الصبر على الشدة . وقال بعض البلغاء من خير خلالك الصبر على اختلالك . وقيل فى منثور الحكم من أحب البقاء فليعدّ للمصائب قلبا صبورا . وقال بعض الحكماء بالصبر على مواقع الكره تدرك الحظوظ . وقال عبيد بن الابرص

صبر النفس عند كل ملم * ان فى الصبر حيلة المحتال

لاتضيقنّ فى الامور فقد تكشف غماؤها بغير احتيال

ربما تجزع النفوس من الامر له فرجة كحل العقال

وقال ابن المقفع فى كتاب اليتيمة الصبر صبران فاللئام أصبر أجساما والكرام أصبر نفوسا وليس الصبر الممدوح صاحبه أن يكون الرجل قوىّ الجسد على الكد والعمل لان هذا من صفات الحمير ولكن أن يكون للنفس غلوبا وللامور متحملا ولجاشه عند الحفاظ مرتبطا . واعلم أن الصبر على ستة أقسام وهو فى كل قسم منها محمود . فاول أقسامه وأولاها الصبر على امتثال ما أمر الله تعالى به والانتهاء عما نهى الله عنه لان به تخلص الطاعة وبخلوص الطاعة يصح الدين وتؤدى الفروض ويستحق الثواب كما قال فى محكم الكتاب انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد وليس لمن قل صبره على طاعة حظ من برّ ولا نصيب من صلاح ومن لم ير لنفسه صبرا يكسبها ثوابا ويدفع عنها عقابا كان مع سوء الاختيار بعيدا من الرشاد حقيقا بالضلال وقد قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى يا من يطلب من الدنيا مالا يلحقه أترجو أن تلحق من الاخرة مالا تطلبه . وقال أبو العتاهية رحمه الله تعالى

أراك امرأ ترجو من الله عفوه * وأنت على مالا يحب مقيم

تدل على التقوى وأنت مقصر * فيامن يداوى الناس وهو سقيم

وهذا النوع من الصبر انما يكون لفرط الجزع وشدة الخوف فان من خاف الله عزوجل صبر على طاعته ومن جزع من عقابه وقف عند أوامره . والقسم الثانى الصبر على ما تقتضيه أوقاته من رزية قد أجهده الحزن عليها أو حادثة قد أكده الهم بها فان الصبر عليها يعقبه الراحة منها ويكسبه المثوبة عنها فان صبر طائعا والا احتمل هما لازما وصبر كارها آثما . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى من لم يرض بقضائى ويصبر على بلائى فليختر ربا سواى . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه للاشعث بن قيس انك ان صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور وان جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور . وقد ذكر ذلك أبو تمام فى شعره فقال

وقال علي في التعازي لأشعث * وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلوى عزاء وخشية * فتؤجر أو تسلو سلو البهائم

وقال شبيب بن شيبة للمهدي ان أحق ما تصبر عليه ما لم تجد الى دفعه سبيلا وأنشد

وان تصبك مصيبة فاصبر لها * عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر

وقال آخر

تصبرت مغلوبا واني لموجع * كما صبر الظمآن في البلد القفر
وليس اصطباري عنك صبر استطاعة * ولكنه صبر أمر من الصبر

والقسم الثالث الصبر على ما فات ادراكه من رغبة مرجوة وأعوز نيله من مسرة مأمولة فان الصبر عنها يعقب السلو منها والاسف بعد اليأس خرق . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من أعطى فشكر ومنع فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر فأولئك لهم الامن وهم مهتدون . وقال بعض الحكماء اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله مثل ما لا يخطر ببالك فلم تقله وقال بعض الشعراء

اذا ملك القضاء عليك أمرا * فليس يحله غير القضاء
فمالك والمقام بدار ذل * ودار العز واسعة الفضاء

وقال بعض الحكماء ان كنت تجزع على ما فات من يدك فاجزع على ما لا يصل اليك فاخذه بعض الشعراء فقال

لا تطل الحزن على فائت * فقلما يجدى عليك الحزن
سيان محزون على فائت * ومضمر حزنا لما لم يكن

والقسم الرابع الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها أو يحذر حلوله من نكبة يخشاها فلا يتعجل هم ما لم يأت فان أكثر الهموم كاذبة وان الاغلب من الخوف مدفوع . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بالصبر يتوقع الفرج ومن يدمن قرع باب يلج . وقال الحسن البصري رحمه الله لا تحملن على يومك هم غدك فحسب كل يوم همه . وأنشد الجاحظ لحارثة بن زيد

اذا الهم أمسى وهو داء فأمضه * ولست بممضيه وأنت تعادله
ولا تنزلن أمر الشديدة بامرئ * اذا هم أمرا عوقته عواذله
وقل للفؤاد ان نجد بك نزوة * من الروع فافرح أكثر الهم باطله

والقسم الخامس الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها وينتظر من نعمة يأملها فانه ان أدهشه التوقع لها وأذهله التطلع اليها انسدت عليه سبل المطالب واستفزه تسويل المطامع فكان أبعد لرجائه وأعظم لبلائه واذا كان مع الرغبة وقورا وعند الطلب صبورا انجلت عنه عماية الدهش وانجابت عنه حيرة الوله فأبصر رشده وعرف قصده . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الصبر ضياء يعني والله أعلم أنه يكشف ظلم الحيرة ويوضح حقائق الامور . وقال أكثم بن صيفي من صبر ظفر . وقال ابن المقفع كان مكتوبا في قصر أزدشير الصبر مفتاح الدرك . وقال بعض الحكماء بحسن التأني تسهل المطالب . وقال بعض البلغاء من صبر نال المنى ومن شكر حصن النعمى . وقال محمد بن بشير

ان الامور اذا سدت مطالبها * فالصبر يفتق منها كل ما ارتتجا
لا تيأسن وان طالت مطالبة * اذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته * ومدمن القرع للابواب أن يلجا

والقسم السادس الصبر على ما نزل من مكروه أوحل من أمر مخوف فبالصبر في هذا تنفتح وجوه الآراء وتستدفع مكائد الاعداء فان من قل صبره عزب رأيه واشتد جزعه فصار صريع همومه وفريسة غمومه . وقد قال الله تعالى واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان استطعت أن تعمل لله بالرضا في اليقين فافعل وان لم تستطع فاصبر فان في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا واعلم أن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع العسر . وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه الصبر مستأصل الحدثان والجزع من أعوان الزمان . وقال بعض الحكماء بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الامور . وقال بعض البلغاء عند انسداد الفرج تبدو مطالع الفرج . وروى ابن عباس رضى الله عنهما أن سليمان بن داود عليهما السلام لما استكد شياطينه في البناء شكوا ذلك الى ابليس لعنه الله فقال ألستم تذهبون فرغا وترجعون مشاغيل قالوا بلى قال ففي ذلك راحة فبلغ ذلك سليمان على نبينا وعليه السلام فشغلهم ذاهبين وراجعين فشكوا ذلك الى ابليس لعنه الله فقال ألستم تستريحون بالليل قالوا بلى قال ففي هذا راحة لكم نصف دهركم فبلغ ذلك سليمان عليه السلام فشغلهم بالليل والنهار فشكوا ذلك الى ابليس لعنه الله فقال الآن جاءكم الفرج فما لبثوا أن اصيب سليمان عليه السلام ميتا على عصاه فاذا كان هذا في نبي من أنبياء الله يعمل بأمره ويقف على حده فكيف بما جرت به الاقدار من يد عادية وساقه القضاء من حوادث نازلة هل تكون مع

التناهي الامنقرضة وعند بلوغ الغاية الامنحسرة . وأنشد بعض الادباء لعثمان بن عفان رضي الله عنه

خليلي لاوالله مامن ملمة * تدوم على حي وان هي جلت
فان نزلت يوما فلا تخضعن لها * ولا تكثر الشكوى اذا النعل زلت
فكم من كريم قد بلي بنوائب * فصابرها حتى مضت واضمحلت
وكم غمرة هاجت بأمواج غمرة * تلقيتها بالصبر حتى تجلت
وكانت على الايام نفسي عزيزة * فلما رأت صبري على الذل ذلت
فقلت لها يانفس موتي كريمة * فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

ولتسهيل المصائب وتخفيف الشدائد أسباب اذا قارنت حزما وصادقت عزما هان وقعها وقل تأثيرها وضررها . فنها استشعار النفس بما تعلمه من نزول الفناء وتقضي المسار وأن لها آجالا منصرمة ومددا منقضية اذ ليس للدنيا حال تدوم ولا لمخلوق فيها بقاء . وروى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال مامثلي ومثل الدنيا الا كمثل راكب مال الى ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها . وسئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن الدنيا فقال تغر وتضر وتمر . وسأل بعض خلفاء بني العباس جليساله عن الدنيا فقال اذا أقبلت أدبرت وقال عمرو بن عبيد الدنيا أمد والآخرة أبد . وقال أنوشروان ان أحببت أن لا تغتم فلا تقتن مابه تهتم فأخذه بعض الشعراء فقال

ألم تر أن الدهر من سوء فعله * يكدر ما أعطى و يسلب ماأسدى
فمن سره أن لا يرى مايسوءه * فلا يتخذ شيأ يخاف له فقدا

وأنشد بعض الحكماء

لحكيمنا بقراط خير قضية * ووصية تنفي الهموم الركدا
قال الهموم تكون من طبع الورى * فى لبث مافى طبعه أن ينفدا
فاذا اقتنيت من الزجاجة قابلا * للكسر فانكسرت فلا تك مكمدا

وأنشدني بعض أهل العلم لسعيد بن مسلم

انما الدنيا هبات * وعوار مستردة
شدة بعد رخاء * ورخاء بعد شدة

ولما قتل بزرجمهر وجد في جيب قميصه رقعة فيها مكتوب اذا لم يكن جد ففيم الكد وان لم يكن للامر دوام ففيم السرور واذا لم يرد الله دوام ملك ففيم الحيلة . وقال ابن الرومي

رأيت حياة المرء رهنا بموته * وصحته رهنا كذلك بالسقم

اذا طاب لي عيش تنغص طيبه * بصدق يقيني أن سيذهب كالحلم
ومن كان في عيش يراعي زواله * فذلك في بؤس وان كان في نعم

ومنها أن يتصور انجلاء الشدائد وانكشاف الهموم وأنها تقدر بأوقات لا تنصرم قبلها ولا تستديم بعدها فلا تقصر بجزع ولا تطول بصبر وان كان كل يوم يمر بها يذهب منها بشطر و يأخذ منها بنصيب حتى تنجلي وهو عنها غافل . وحكي أن الرشيد حبس رجلا ثم سأل عنه بعد زمان فقال للموكل به قل له كل يوم يمضي من نعيمك يمضي من بؤسي مثله والامر قريب والحكم لله تعالى فاخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال

لو أن ما أنتم فيه يدوم لكم * ظننت ما أنا فيه دائما أبدا
لكنني عالم أني وأنكم * سنستجد خلاف الحالتين غدا

وأنشدت لبعض الشعراء

عواقب مكروه الامور خيار * وأيام ضر لا تدوم قصار
وليس يباق بؤسها ونعيمها * اذا كر ليل ثم كر نهار

وأنشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين حضرته الوفاة

ألم تر أن ربك ليس تحصى * أياديه الحديثة والقديمه
تسل عن الهموم فليس شئ * يقوم ولا همومك بالمقيمه
لعل الله ينظر بعد هذا * اليك بنظرة منه رحيمه

ومنها أن يعلم أن فيما وقي من الرزايا وكفي من الحوادث ماهو أعظم من رزيته وأشد من حادثته ليعلم أنه ممنوح بحسن الدفاع ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ان لله تعالى في أثناء كل محنة منحة . وقيل للشعبي في نائبة كيف أصبحت قال بين نعمتين خير منشور وشر مستور وقال بعض الشعراء

لا تكره المكروه عند حلوله * ان العواقب لم تزل متباينه
كم نعمة لا تستقل بشكرها * لله في طي المكاره كامنه

ومنها أن يتأسى بذوي الغير ويتسلى باولي العبر ويعلم أنهم الاكثرون عددا والاسرعون مددا فيستجد من سلوة الاسى وحسن العزا مايخفف شجوه ويقل هلعه . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ألصقوا بذوي الغير تتسع قلوبكم وعلى مثل ذلك كانت مراثي الشعراء قال البحتري

فلا عجب للاسد ان ظفرت بها * كلاب الاعادي من فصيح وأعجمي
فحربة وحشي سقت حمزة الردى * وموت علي من حسام ابن ملجم

وقال أبو نواس

المرء بين مصائب لا تنقضي * حتى يوارى جسمه في رمسه
فمؤجل يلقى الردى في أهله * ومعجل يلقى الردى في نفسه

ومنها أن يعلم أن النعم زائرة وأنها لا محالة زائلة وأن السرور بها اذا أقبلت مشوب بالحذر من فراقها اذا أدبرت وأنها لا تفرح باقبالها فرحا حتى تعقب بفراقها ترحا فعلى قدر السرور يكون الحزن . وقد قيل في منثور الحكم المفروح به هو المحزون عليه وقيل من بلغ غاية ما يحب فليتوقع غاية ما يكره . وقال بعض الحكماء من علم أن كل نائبة الى انقضاء حسن عزاؤه عند نزول البلاء . وقيل للحسن البصري رحمه الله كيف ترى الدنيا قال شغلني توقع بلائها عن الفرح برخائها فأخذه أبو العتاهية فقال

تريده الايام ان أقبلت * شدة خوف لتصاريفها
كأنها في حال اسعافها * تسمعه وقعة تخويفها

ومنها أن يعلم أن سروره مقرون بمساءة غيره وكذلك حزنه مقرون بسرور غيره اذا كانت الدنيا تنتقل من صاحب الى صاحب وتصل صاحبا بفراق صاحب فتكون سرورا لمن وصلته وحزنا لمن فارقته . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ما قرعت عصا على عصا الا فرح لها قوم وحزن آخرون وقال البحتري

متى أرت الدنيا نباهة خامل * فلا ترتقب الا خمول نبيه

وقال المتنبي

بذا قضت الايام ما بين أهلها * مصائب قوم عند قوم فوائد

وأنشد بعض أهل الادب

ألا انما الدنيا غضارة أيكة * اذا اخضر منها جانب جف جانب
فلا تفرحن منها الشيء تفيده * سيذهب يوما مثل ما أنت ذاهب
وما هـذه الايام الا فجائع * وما العيش واللذات الا مصائب

ومنها أن يعلم أن طوارق الانسان من دلائل فضله ومحنه من شواهد نبله وذلك لاحدى علتين إما لان الكمال معوز والنقص لازم فاذا تواتر الفضل عليه صار النقص فيما سواه وقد قيل من زاد في عقله نقص من رزقه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما انتقصت جارحة من انسان الا كانت ذكاء في عقله . وقال أبو العتاهية

ما جاوز المرء من أطرافه طرفا * الا تخونه النقصان من طرف

وأنشدنى بعض أهل الادب لابراهيم بن هلال الكاتب

اذا جمعت بين امرأين صناعة * فأحببت أن تدرى الذى هو أحذق
فلا تتفقد منهما غير ماجرت * به لهما الارزاق حين تفرق
فحيث يكون النقص فالرزق واسع * وحيث يكون الفضل فالرزق ضيق

وإما لان ذا الفضل محسود وبالاذى مقصود فلا يسلم فى برّه من معاد واشتطاط مناو . وقال الصنوبرى

محن الفتى يخبرن عن فضل الفتى * كالنار مخبرة بفضل العنبر

وقلما تكون محنة فاضل الا من جهة ناقص وبلوى عالم الاعلى يد جاهل وذلك لاستحكام العداوة بينهما بالمباينة وحدوث الانتقام لاجل التقدم . وقد قال الشاعر

فلا غرو أن يمنى عليم بجاهل * فمن ذنب التنين تنكسف الشمس

ومنها ما يعتاضه من الارتياض بنوائب عصره ويستفيده من الحنكة بـبلاء دهره فيصلب عوده ويستقيم عموده ويكمل بادنى شدته ورخائه ويتعظ بحالتى عفوه وبلائه . حكى عن ثعلب قال دخلت على عبيد الله بن سليمان بن وهب وعليه خلع الرضا بعد النكبة فلما مثلت بين يديه قال لى يا أبا العباس اسمع ما أقول

نوائب الدهر أدبتنى * وانما يوعظ الاديب
قد ذقت حلوا وذقت مرا * كذاك عيش الفتى ضروب
لم يمض بؤس ولا نعيم * الا ولى فيهما نصيب
كذاك من صاحب الليالى * تغذوه من درها الخطوب

فقلت لمن هذه الابيات قال لى ومنها أن يختبر أمور زمانه ويتنبه على صلاح شانه فلا يغتر برخاء ولا يطمع فى استواء ولا يؤمل أن تبقى الدنيا على حالة أو تخلو من تقلب واستحالة فان من عرف الدنيا وخبر أحوالها هان عليه بؤسها ونعيمها . وأنشد بعض الادباء

انى رأيت عواقب الدنيا * فتركت ما أهوى لما أخشى
فكرت فى الدنيا وعالمها * فاذا جميع أمورها تفنى
وبلوت أكثر أهلها فاذا * كل امرئ فى شأنه يسعى
أسنى منازلها وأرفعها * فى العز أقربها من المهوى
تعفو مساويها محاسنها * لافرق بين النعى والبشرى
ولقد مررت على القبور فما * ميزت بين العبد والمولى
أتراك تدرى كم رأيت من الا حياء ثم رأيتهم موتى

فاذا ظفر المصاب بأحد هذه الاسباب تخففت عنه أحزانه وتسهلت عليه أشجانه فصار وشيك السلوة قليل الجزع حسن العزاء . وقال بعض الحكماء من حاذر لم يهلع ومن راقب لم يجزع ومن كان متوقعا لم يكن متوجعا . وقال بعض الشعراء

مايكون الامر سهلا كله * انما الدنيا سرور وحزون
هون الامر تعش فى راحة * قلما هونت الا سيهون
تطلب الراحة فى دار العنا * ضل من يطلب شيأ لايكون

فان أغفل نفسه عن دواعى السلوة ومنعها من أسباب الصبر تضاعف عليه من شدة الاسى وهم الجزع مالا يطيق عليه صبرا ولا يجد عنه سلوا . وقال ابن الرومى

ان البلاء يطاق غير مضاعف * فاذا تضاعف صار غير مطاق

فاذا ساعده جزعه بالاسباب الباعثة عليه وأمده هلعه بالذرائع الداعية اليه فقد سعى فى حتفه وأعان على تلفه فمن أسباب ذلك تذكر المصاب حتى لا يتناساه وتصوره حتى لا يعزب عنه ولا يجد من التذكار سلوة ولا يخلط مع التصور تعزية . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لاتستفزوا الدموع بالتذكر . وقال الشاعر * ولا يبعث الاحزان مثل التذكر *
ومنها الاسف وشدة الحسرة فلا يرى من مصابه خلفا ولا يجد لمفقوده بدلا فيزداد بالاسف ولها وبالحسرة هلعا . ولذلك قال الله تعالى لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم . وقال بعض الشعراء

اذا بليت فثق بالله وارض به * ان الذى يكشف البلوى هو الله
اذا قضى الله فاستسلم لقدرته * مالامرئ حيلة فيما قضى الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه * لاتيأسن فان الصانع الله

ومنها كثرة الشكوى وبث الجزع فقد قيل فى قوله تعالى فاصبر صبرا جميلا انه الصبر الذى لاشكوى فيه ولا بث . روى أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ماصبر من بث . وحكى كعب الاحبار أنه مكتوب فى التوراة من أصابته مصيبة فشكا الى الناس فانما يشكو ربه وحكى أن اعرابية دخلت من البادية فسمعت صراخا فى دار فقالت ماهذا فقيل لها مات لهم انسان فقالت ماأراهم الا من ربهم يستغيثون وبقضائه يتبرمون وعن ثوابه يرغبون . وقد قيل فى منثور الحكم من ضاق قلبه اتسع لسانه . وأنشد بعض أهل العلم

لاتكثر الشكوى الى الصديق * وارجع الى الخالق لا المخلوق
* لايخرج الغريق بالغريق *

وقال بعض الشعراء

لا تشك دهرك ما صححت به * ان الغنى هو صحة الجسم
هبك الخليفة كنت منتفعا * بغضارة الدنيا مع السقم

ومنها اليأس من خير مصابه ودرك طلابه فيقترن بحزن الحادثة قنوط الاياس فلا يبقى معهما صبر ولا يتسع لهما صدر وقد قيل المصيبة بالصبر أعظم المصيبتين . وقال ابن الرومى

اصبرى أيتها النفـ * ـس فان الصبر أحجى
ربما خاب رجاء * وأتى ما ليس يرجى

(وأنشدنى بعض أهل العلم)

أتحسب أن البؤس للحر دائم * ولو دام شئ عده الناس فى العجب
لقد عرفتك الحادثات بؤسها * وقد أدبت ان كان ينفعك الادب
ولو طلب الانسان من صرف دهره * دوام الذى يخشى لأعياه ما طلب

ومنها أن يغرى بملاحظة من حيطت سلامته وحرست نعمته حتى التحف بالامن والدعة واستمتع بالثروة والسعة ويرى أنه قد خص من بينهم بالرزية بعد أن كان مساويا وأفرد بالحادثة بعد أن كان مكافيا فلا يستطيع صبرا على بلوى ولا يلزم شكرا على نعمى ولو قابل بهذه النظرة ملاحظة من شاركه فى الرزية وساواه فى الحادثة لتكافأ الامران فهان عليه الصبر وحان منه الفرج . وأنشدت لامرأة من العرب

أيها الانسان صبرا * ان بعد العسر يسرا
كم رأينا اليوم حرا * لم يكن بالامس حرا
ملك الصبر فاضحى * مالكا خيرا وشرا
اشرب الصبر وان كا * ن من الصبر أمرا

وأنشدت لبعض أهل الادب

يراع الفتى للخطب تبدو صدوره * فيأسى وفى عقباه يأتى سروره
ألم تر أن الليل لما تراكمت * دجاه بدا وجه الصباح ونوره
فلا تصحبن اليأس ان كنت عالما * لبيبا فان الدهر شتى أموره

واعلم أنه قل من صبر على حادثة وتماسك فى نكبة الا كان انكشافها وشيكا وكان الفرج منه قريبا أخبرنى بعض أهل الادب أن أبا أيوب الكاتب حبس فى السجن خمس عشرة سنة حتى ضاقت حيلته وقل صبره فكتب الى بعض اخوانه يشكو له طول حبسه فرد عليه جواب رقعته بهذا

صبرا ابا أيوب صبر مبرح * فاذا عجزت عن الخطوب فمن لها
ان الذى عقد الذى انعقدت له * عقد المكاره فيك يملك حلها
صبرا فان الصبر يعقب راحة * ولعلها أن تنجلى ولعلها

فاجابه أبو أيوب يقول

صبرتنى ووعظتنى وأنا لها * وستنجلى بل لا أقول لعلها
ويحلها من كان صاحب عقدها * كرما به اذ كان يملك حلها

فلم يلبث بعد ذلك فى السجن الا أياما حتى أطلق مكرما . وأنشد ابن دريد عن أبى حاتم

اذا اشتملت على اليأس القلوب * وضاق لما به الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره واطمأنت * وأرست فى مكانتها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجها * ولا أغنى بحيلته الاريب
أتاك على قنوط منك غوث * يمن به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات اذا تناهت * فموصول بها الفرج القريب

﴿الفصل الثالث فى المشورة﴾ اعلم أن من الحزم لكل ذى لب أن لا يبرم أمرا ولا يمضى عزما الا بمشورة ذى الرأى الناصح ومطالعة ذى العقل الراجح فان الله تعالى أمر بالمشورة نبيه صلى الله عليه وسلم مع ما تكفل به من ارشاده ووعد به من تأييده فقال تعالى وشاورهم فى الامر . قال قتادة أمره بمشاورتهم تألفا لهم وتطييبا لانفسهم . وقال الضحاك أمره بمشاورتهم لما علم فيها من الفضل . وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون ويتبعه فيها المؤمنون وان كان عن مشورتهم غنيا . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال المشورة حصن من الندامة وأمان من الملامة . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه نعم الموازرة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الرجال ثلاثة رجل ترد عليه الامور فيسددها برأيه ورجل يشاور فيما أشكل عليه وينزل حيث يأمره أهل الرأى ورجل حائر بأمره لا يأتمر رشدا ولا يطيع مرشدا . وقال عمر بن عبد العزيز ان المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة لا يضل معهما رأى ولا يفقد معهما حزم . وقال سيف بن ذى يزن من أعجب برأيه لم يشاور ومن استبد برأيه كان من الصواب بعيدا . وقال عبد الحميد المشاور فى رأيه ناظر من ورائه . وقيل فى منثور الحكم المشاورة راحة لك وتعب على غيرك . وقال بعض الحكماء الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه . وقال بعض الادباء ما خاب من استخار ولا ندم من استشار .

وقال بعض البلغاء من حق العاقل أن يضيف الى رأيه آراء العقلاء ويجمع الى عقله عقول الحكماء فالرأى الفذ ربما زل والعقل الفرد ربما ضل . وقال بشار بن برد

اذا بلغ الرأى المشورة فاستعن * برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة * فان الخوافى قوة للقوادم

فاذا عزم على المشاورة ارتاد لها من أهلها من قد استكملت فيه خمس خصال . احداهن عقل كامل مع تجربة سالفة فان بكثرة التجارب تصح الروية . وقد روى أبو الزناد عن الاعرج عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا . وقال عبد الله بن الحسن لابنه محمد احذر مشورة الجاهل وان كان ناصحا كما تحذر عداوة العاقل اذا كان عدوا فانه يوشك أن يورطك بمشورته فيسبق اليك مكر العاقل وتوريط الجاهل . وقيل لرجل من عبس ما أكثر صوابكم قال نحن ألف رجل وفينا حازم ونحن نطيعه فكأنا ألف حازم وكان يقال اياك ومشاورة رجلين شاب معجب بنفسه قليل التجارب فى غيره أو كبير قد أخذ الدهر من عقله كما أخذ من جسمه . وقيل فى منثور الحكم كل شئ يحتاج الى العقل والعقل يحتاج الى التجارب ولذلك قيل الايام تهتك لك عن الاستار الكامنة . وقال بعض الحكماء التجارب ليست لها غاية والعاقل منها فى زيادة . وقال بعض الحكماء من استعان بذوى العقول فاز بدرك المأمول . وقال أبو الأسود الدؤلى

وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه * ولا كل مؤت نصحه بلبيب
ولكن اذا ما استجمعا عند صاحب * فحق له من طاعة بنصيب

والخصلة الثانية أن يكون ذا دين وتقى فان ذلك عماد كل صلاح وباب كل نجاح ومن غلب عليه الدين فهو مأمون السريرة موفق العزيمة . روى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أراد أمرا فشاور فيه امرأ مسلما وفقه الله لأرشد أموره . والخصلة الثالثة أن يكون ناصحا ودودا فان النصح والمودة يصدقان الفكرة ويمحضان الرأى . وقد قال بعض الحكماء لا تشاور الا الحازم غير الحسود واللبيب غير الحقود واياك ومشاورة النساء فان رأيهن الى الافن وعزمهن الى الوهن . وقال بعض الادباء مشورة المشفق الحازم ظفر ومشورة غير الحازم خطر . وقال بعض الشعراء

اصف ضميرا لمن تعاشره * واسكن الى ناصح تشاوره
وارض من المرء فى مودته * بما يؤدى اليك ظاهره
من يكشف الناس لا يجد أحدا * تصح منهم له سرائره

أوشك أن لايدوم وصــــل أخ * فى كــــل زلاته تنافــــره

والخصــلة الرابعــة أن يكون سليم الفكر من هم قاطع وغم شاغل فان من عارضت فكره شوائب الهموم لايسلم له رأى ولايستقيم له خاطر . وقد قيل فى منثور الحكم كل شئ يحتاج الى العــقل والعقل يحتاج الى التجارب وكان كسرى اذا دهــمه أمر بعث الى مرازبتــه فاستشارهم فان قصروا فى الرأى ضرب قهارمته وقال أبطأتم بأرزاقهم فأخطؤا فى آرائهم . وقال صالح بن عبد القدوس

ولامشير كذى نصح ومقــــدرة * فى مشكل الامر فاختر ذاك منتصحا

والخصــلة الخامسة أن لايكون له فى الامر المستشار غرض يتابعه ولاهوى يساعده فان الاغراض جاذبة والهوى صادّ والرأى اذا عارضــه الهوى وجاذبته الاغراض فســد . وقد قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب

وقد يحكم الايام من كان جاهــــلا * ويردى الهوى ذا الرأى وهو لبيب

ويحمد فى الامر الفتى وهو مخطئ * ويعذل فى الاحسان وهو مصيب

فاذا استكملت هــذه الخصال الخمس فى رجل كان أهلا للمشورة ومعدنا للرأى فلا تعدل عن استشارته اعتمادا على ماتتوهمه من فضل رأيك وثقة بما تستشعره من صحة رويتك فان رأى غير ذى الحاجة أسلم وهو من الصواب أقرب لخلوص الفكر وخلو الخاطر مع عدم الهوى وارتفاع الشهوة . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال رأس العقل بعد الايمان بالله التودّد الى الناس وما استغنى مستبد برأيه وما هلك أحد عن مشورة فاذا أراد الله بعبد هلكة كان أول مايهلكه رأيه . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه . وقال لقمان الحكيم لابنه شاور من جرب الامور فانه يعطيك من رأيه ماقام عليه بالغلاء وأنت تأخذه مجانا . وقال بعض الحكماء نصف رأيك مع أخيك فشاوره ليكمل لك الرأى . وقال بعض الادباء من استغنى برأيه ضل ومن اكتفى بعقله زل . وقال بعض البلغاء الخطأ مع الاسترشاد أحمد من الصواب مع الاستبداد . وقال الشاعر

خليلىّ ليس الرأى فى صدر واحد * أشــــيرا علىّ بالذى تريان

ولا ينبغى أن يتصوّر فى نفســه أنه ان شاور فى أمره ظهر للناس ضعف رأيه وفساد رويته حتى افتقــر الى رأى غيره فان هــذه معاذير النوكى وليس يراد الرأى للمباهاة به وانما يراد للانتفاع بنتيجته والتحرز من الخطأ عند زلله وكيف يكون عارا ماأدّى الى صواب وصدّ عن خطأ . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لقحوا عقولكم بالمذاكرة واستعينوا

على أموركم بالمشاورة . وقال بعض الحكماء من كمال عقلك استظهارك على عقلك . وقال بعض البلغاء اذا أشكلت عليك الامور وتغير لك الجمهور فارجع الى رأي العقلاء وافزع الى استشارة العلماء ولا تأنف من الاسترشاد ولا تستنكف من الاستمداد فلأن تسأل وتسلم خير لك من أن تستبد وتندم وينبغي أن تكثر من استشارة ذوي الالباب لاسيما في الامر الجليل فقلما يضل عن الجماعة رأي ويذهب عنهم صواب لأن إرسال الخواطر الثاقبة واجالة الافكار الصادقة لا يعزب عنها ممكن ولا يخفى عليها جائز. وقد قيل في منثور الحكم من أكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا وعند الخطأ عاذرا وان كان الخطأ من الجماعة بعيدا فاذا استشار الجماعة فقد اختلف أهل الرأي في اجتماعهم عليه وانفراد كل واحد منهم به فذهب الفرس أن الاولى اجتماعهم على الارتياء واجالة الفكر ليذكر كل واحد منهم ما قدحه خاطره وأنتجه فكره حتى اذا كان فيه قدح عورض أو توجه عليه ردّ نوقض كالجدل الذي تكون فيه المناظرة وتقع فيه المنازعة والمشاجرة فانه لا يبقى فيه مع اجتماع القرائح عليه خلل الا ظهر ولا زلل الا بان وذهب غيرهم من أصناف الامم الى أن الاولى استسرار كل واحد بالمشورة ليجيل كل واحد منهم فكره في الرأي طمعا في الحظوة بالصواب فان القرائح اذا انفردت استكدّها الفكر واستفرغها الاجتهاد واذا اجتمعت فوّضت وكان الاول من بدائهها متبوعا ولكل واحد من المذهبين وجه ووجه الثاني أظهر . والذي أراه في الاولى غير هذين المذهبين على الاطلاق ولكن ينظر في الشورى فان كانت في حال واحدة هل هي صواب أم خطأ كان اجتماعهم عليها أولى لان ماتردّد بين أمرين فالمراد منه الاعتراض على فساده أو ظهور الحجة في صلاحه وهذا مع الاجتماع أبلغ وعند المناظرة أوضح وان كانت الشورى في خطب قد استبهم صوابه واستعجم جوابه من أمور خافية وأحوال غامضة لم يحصرها عدد ولم يجمعها تقسيم ولا عرف لها جواب يكشف عن خطئه وصوابه فالاولى في مثله انفراد كل واحد بفكره وخلوه بخاطره ليجتهد في الجواب ثم يقع الكشف عنه أخطأ هو أم صواب فيكون الاجتهاد في الجواب منفردا والكشف عن الصواب مجتمعا لان الانفراد في الاجتهاد أوضح والاجتماع على المناظرة أبلغ فهذا هديه . وينبغي أن يسلم أهل الشورى من حسد أو تنافس فيمنعهم من تسليم الصواب لصاحبه ثم يعرض المستشير ذلك على نفسه مع مشاركتهم في الارتياء والاجتهاد فاذا تصفح أقاويل جميعهم كشف عن أصولها وأسبابها وبحث عن نتائجها وعواقبها حتى لا يكون في الامر مقلدا ولا في الرأي مفوّضا فانه يستفيد بذلك مع ارتياضه بالاجتهاد ثلاث خصال احداهن معرفة عقله وصحة رويته والثانية معرفة عقل

صاحبه وصواب رأيه والثالثة وضوح ما استعجم من الرأى وافتتاح ما أغلق من الصواب فاذا تقرر له الرأى أمضاه ولا يؤاخذهم بعواقب الاكداء فيه فانما على الناصح الاجتهاد وليس عليه ضمان النجح لاسيما والمقادير غالبة ومتى عرف منه تعقب المشير وكل الى رأيه وأسلم الى نفسه فصار فردا لا يعان برأى ولا يمد بمشورة وقد قالت الفرس فى حكمها أضعف الحيلة خير من أقوى الشدة وأقل التأنى خير من أكثر العجلة والدولة رسول القضاء المبرم واذا استبد الملك برأيه عميت عليه المراشد واذا ظفر برأى من خامل لا يراه للرأى أهلا ولا للمشورة مستوجبا اغتنمه عفوا فان الرأى كالضالة تؤخذ أين وجدت ولا يهون لمهانة صاحبه فيطرح فان الدرة لا يضعها مهانة غائصها والضالة لا تترك لذلة واجدها وليس يراد الرأى لمكان المشير به فيراعى قدره وانما يراد لانتفاع المستشير وأنشد أبو العيناء عن الاصمعى

النصح أرخص ما باع الرجال فلا * ترد على ناصح نصحا ولا تلم
ان النصائح لا تخفى مناهجها * على الرجال ذوى الالباب والفهم

ثم لا وجه لمن تقرر له رأى أن يني فى امضائه فان الزمان غادر والفرص منتهزة والثقة عجز وقيل للملك زال عنه ملكه ما الذى سلبك ملكك قال تأخيرى عمل اليوم لغد . وقال الشاعر

اذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة * ولاتك بالترداد للرأى مفسدا
فانى رأيت الريث فى العزم هجنة * وانفاذ ذى الرأى العزيمة أرشدا

وينبغى لمن أنزل منزلة المستشار وأحل محل الناصح المواد حتى صار مأمول النجح مرجو الصواب أن يؤدى حق هذه النعمة باخلاص السريرة ويكافئ على الاستسلام ببذل النصح فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان من حق المسلم على المسلم اذا استنصحه أن ينصحه وربما أبطرته المشاورة فأعجب برأيه فاحذره فى المشاورة فليس للمعجب رأى صحيح ولا روية سليمة وربما شح فى الرأى لعداوة أو حسد أو مكر فاحذر العدو ولا تثق بحسود ولا عذر لمن استشاره عدو أو صديق أن يكتم رأيا وقد استرشد ولا أن يخون وقد ائتمن . روى محمد ابن المنكدر عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال المستشير معان والمستشار مؤتمن . وقال سليمان بن دريد

وأجب أخاك اذا استشارك ناصحا * وعلى أخيك نصيحة لا ترد

ولا ينبغى أن يشير قبل أن يستشار الا فيما مس ولا أن يتبرع بالرأى الا فيما لزم فانه لا ينفك من أن يكون رأيا متهما أو مطرحا وفى أى هذين كان وصمة وانما يكون الرأى مقبولا اذا كان عن رغبة وطلب أو كان لباعث وسبب . روى أبو بلال العجلى عن حذيفة بن اليمان

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال قال لقمان لابنه يابني اذا استشهدت فاشهد واذا استعنت فأعن واذا استشرت فلا تعجل حتى تنظر . وقال بيهس الكلابي

من الناس من ان يستشرك فتجتهد * له الرأى يستغششك مالا تتابعه
فلا تمنحن للرأى من ليس أهله * فلا أنت محمود ولا الرأى نافعه

﴿الفصل الرابع فى كتمان السر﴾ اعلم أن كتمان الاسرار من أقوى أسباب النجاح وأدوم لاحوال الصلاح . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال استعينوا على الحاجات بالكتمان فان كل ذى نعمة محسود . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه سرك أسيرك فان تكلمت به صرت أسيره . وقال بعض الحكماء لابنه يابنى كن جوادا بالمال فى موضع الحق ضنينا بالاسرار عن جميع الخلق فان أحمد جود المرء الانفاق فى وجه البر والبخل بمكتوم السر . وقال بعض الادباء من كتم سره كان الخيار اليه ومن أفشاه كان الخيار عليه . وقال بعض البلغاء ماأسرك ما كتمت سرك . وقال بعض الفصحاء مالم تغيبه الاضالع فهو مكشوف ضائع . وقال أنس بن أسيد

ولا تفش سرك الا اليك * فان لكل نصيح نصيحا
فانى رأيت وشاة الرجا * ل لا يتركون أديما صحيحا

وكم من اظهار سر أراق دم صاحبه ومنع من نيل مطالبه ولو كتمه كان من سطوته آمنا وفى عواقبه سالما ولنجاح حوائجه راجيا . وقال أنوشروان من حصن سره فله بتحصينه خصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات واظهار الرجل سر غيره أقبح من اظهاره سر نفسه لانه يبوء باحدى وصمتين الخيانة ان كان مؤتمنا أو النميمة ان كان مستودعا فأما الضرر فربما استويا فيه أو تفاضلا وكلاهما مذموم وهو فيهما ملوم . وفى الاسترسال بابداء السر دلائل على ثلاثة أحوال مذمومة . احداها ضيق الصدر وقلة الصبر حتى انه لم يتسع لسر ولم يقدر على صبر . وقال الشاعر

اذا المرء أفشى سره بلسانه * ولام عليه غيره فهو أحمق
اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه * فصدر الذى يستودع السر أضيق

والثانية الغفلة عن تحذر العقلاء والسهو عن يقظة الاذكياء . وقد قال بعض الحكماء انفرد بسرك ولا تودعه حازما فيزل ولا جاهلا فيخون . والثالثة ما ارتكبه من الغرور واستعمله من الخطر . وقد قال بعض الحكماء سرك من دمك فاذا تكلمت به فقد أرقته . واعلم أن من الاسرار مالا يستغنى فيه عن مطالعة صديق مساهم واستشارة ناصح مسالم فليختر العاقل لسره أمينا

ان لم يجد الى كتمه سبيلا وليتحرّ فى اختيار من يأتمنه عليه ويستودعه اياه فليس كل من كان على الاموال أمينا كان على الاسرار مؤتمنا والعفة عن الاموال أيسر من العفة عن اذاعة الاسرار لان الانسان قد يذيع سر نفسه بمبادرة لسانه وسقط كلامه ويشح باليسير من ماله حفظا له وضنا به ولا يرى ما أضاع من سره كبيرا فى جنب ما حفظه من يسير ماله مع عظم الضرر الداخل عليه فمن أجل ذلك كان أمناء الاسرار أشد تعذرا وأقل وجودا من أمناء الاموال وكان حفظ المال أيسر من كتم الاسرار لان أحراز الاموال منيعة وأحراز الاسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق . وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه القلوب أوعية الاسرار والشفاه أقفالها والالسن مفاتيحها فليحفظ كل امرئ مفتاح سره ومن صفات أمين السر أن يكون ذا عقل صاد ودين حاجز ونصح مبذول وودّ موفور وكتوما بالطبع فان هذه الامور تمنع من الاذاعة وتوجب حفظ الامانة فمن كملت فيه فهو عنقاء مغرب . وقيل فى منثور الحكم قلوب العقلاء حصون الاسرار وليحذر صاحب السر أن يودع سره من يتطلع اليه ويؤثر الوقوف عليه فان طالب الوديعة خائن . وقيل فى منثور الحكم لا تنكح خاطب سرك . وقال صالح بن عبد القدوس

لا تذع سرا الى طالبه * منك فالطالب للسر مذيع

وليحذر كثرة المستودعين لسره فان كثرتهم سبب الاذاعة وطريق الى الاشاعة لامرين . أحدهما أن اجتماع هذه الشروط فى العدد الكثير معوز ولابد اذا كثروا من أن يكون فيهم من أخل ببعضها . والثانى أن كل واحد منهم يجد سبيلا الى نفى الاذاعة عن نفسه واحالة ذلك على غيره فلا يضاف اليه ذنب ولا يتوجه عليه عتب . وقد قال بعض الحكماء كلما كثرت خزان الاسرار ازدادت ضياعا . وقال بعض الشعراء

وسرك ما كان عند امرئ * وسر الثلاثة غير الخفى

وقال آخر

فلا تنطق بسرك كل سر * اذا ما جاوز الاثنين فاشى

ثم لو سلم من اذاعتهم لم يسلم من ادلالهم واستطالتهم فان لمن ظفر بسر من فرط الادلال وكثرة الاستطالة ما ان لم يحجزه عنه عقل ولم يكفه عنه فضل كان أشد من ذل الرق وخضوع التعبد . ولذلك قال بعض الحكماء من أفشى سره كثر عليه المتأمرون فاذا اختار وأرجو أن يوفق للاختيار واضطر الى استيداع سره وليته كفى الاضطرار وجب على المستودع له أداء الامانة فيه بالتحفظ والتناسى له حتى لا يخطر له ببال ولا يدور له فى خلد ثم يرى ذلك حرمة يرعاها

ولا يدل ادلال اللئام . وحكى أن رجلا أسرّ الى صديق له حديثا ثم قال أفهمت قال بل جهلت قال أحفظت قال بل نسيت . وقيل لرجل كيف كتمانك للسر قال أجحد المخبر وأحلف للمستخبر . وقال بعض الشعراء

ولو قدرت على نسيان ما اشتملت * من الضلوع على الاسرار والخبر
لكنت أول من ينسى سرائره * اذ كنت من نشرها يوما على خطر

وحكى أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس فى مجلسه حفظ السر فقال ابنه

ومستودعى سرا تضمنت سره * فأودعته من مستقر الحشى قبرا
ولكننى أخفيه عنى كأننى * من الدهر يوما ما أحطت به خبرا
وما السر فى قلبى كميت بحفرة * لانى أرى المدفون ينتظر النشرا

﴿ الفصل الخامس فى المزاح والضحك ﴾ اعلم أن للمزاح ازاحة عن الحقوق ومخرجا الى القطيعة والعقوق يصم المازح ويؤذى الممازح فوصمة المازح أن يذهب عنه الهيبة والبهاء ويجرئ عليه الغوغاء والسفهاء وأما أذية الممازح فلانه معقوق بقول كريه وفعل ممض ان أمسك عنه أحزن قلبه وان قابل عليه جانب أدبه فحق على العاقل أن يتقيه وينزه نفسه عن وصمة مساويه . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى . وقال عمر بن عبد العزيز اتقوا المزاح فانه حمقة تورث ضغينة . وقال بعض الحكماء انما المزاح سباب الا أن صاحبه يضحك وقيل انما سمى المزاح مزاحا لانه يزيح عن الحق . وقال ابراهيم النخعى المزاح من سخف أو بطر . وقيل فى منثور الحكم المزاح يأكل الهيبة كما تأكل النار الحطب . وقال بعض الحكماء من كثر مزاحه زالت هيبته ومن كثر خلافه طابت غيبته . وقال بعض البلغاء من قل عقله كثر هزله . وذكر خالد بن صفوان المزاح فقال يصك أحدكم صاحبه بأشد من الجندل وينشقه أحرف من الخردل ويفرغ عليه أحر من المرجل ثم يقول انما كنت أمازحك . وقال بعض الحكماء خير المزاح لا ينال وشره لا يقال فنظمه النيسابورى فى قصيدته الجامعة للآداب فقال وزاد

شر مزاح المرء لا يقال * وخيره يا صاح لا ينال
وقد يقال كثرة المزاح * من الفتى تدعو الى التلاحى
ان المزاح بدؤه حلاوه * لكنما آخره عداوه
يحتد منه الرجل الشريف * ويجترى بسخفه السخيف

وقال أبو نواس

خـــل جنبيك لرام * وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير * لك من داء الكلام
انما السالم من ألـ * جم فاه بلجـــــام
ربما استفتح بالمز * ح مغاليـــق الحمام
والمنـــايا آكلات * شـــاربات للانام

واعلم أنه قلما يعرى من المزاح من كان سهلا فالعاقل يتوخى بمزاحه احدى حالتين لا ثالثة لهما. احداهما ايناس المصاحبين والتودد الى المخالطين وهذا يكون بما أنس من جميل القول وبسط من مستحسن الفعل. وقد قال سعيد بن العاص لابنه اقتصد فى مزاحك فان الافراط فيـه يذهب البهاء ويجرئ عليك السفهاء وان التقصير فيه يفض عنك المؤانسين ويوحش منك المصاحبين. والحالة الثانية أن ينفى بالمزاح ماطرأ عليه من سأم وأحدث به من هم فقد قيل لابد للمصدور أن ينفث . وأنشدت لابى الفتح البستى

أفد طبعك المكدود بالجد راحة * يجم وعلله بشئ من المـــزح
ولكن اذا أعطيته المزح فليكن * بمقدار ما يعطى الطعام من الملح

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يمزح على هذا الوجه روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال انى لأمزح ولا أقول الاحقا فمن مزاحه صلى الله عليه وسلم ماروى أن عجوزا من الانصار أتته فقالت يارسول الله ادع لى بالمغفرة فقال أما علمت أن الجنة لايدخلها العجائز فصرخت فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أما قرأت من القرآن قول الله عز وجل إنا أنشأناهن انشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا وأتته أخرى فى حاجة لزوجها فقال لها ومن زوجك فقالت فلان فقال لها الذى فى عينه بياض فقالت لا فقال بلى فانصرفت عجلى الى زوجها وجعلت تتأمل عينيه فقال لها ماشأنك فقالت أخبرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن فى عينيك بياضا فقال أما ترين بياض عينىّ أكثر من سوادهما. وسئل الشعبى عن أكل لحم الشيطان فقال نحن نرضى منه بالكفاف وقيل له ما اسم امرأة ابليس لعنه الله فقال ذلك نكاح ماشهدناه وقال رجل لغــلام بكم تعمـــل معى قال بطعامى فقال له أحسن قليلا قال فاصوم الاثنـــين والخميس . وقد كان أبو هريرة رضى الله عنه مسترسلا فى مزاحه . روى ابن قتيبة فى المعارف أن مروان ربمـا كان يستخلفه على المدينة فيركب حمارا قد شد عليه برذعة فيسير فيلقى الرجل فيقول الطريق قد جاء الامير وربمـا أتى الصبيان وهم يلعبون لعبة الاعراب فلا يشعرون

حتى يلقى نفسه بينهم ويضرب برجله فيفزع الصبيان فينفرون وهذا خروج عن القدر المستسمح به ويوشك أن يكون لهذا الفعل منه تأويل سائغ. وقد كان صهيب بن سنان مزاحا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أتأكل تمرا وبك رمد فقال يا رسول الله انما أمضغ على الناحية الاخرى وانما استجاز صهيب أن يعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمزح في جوابه لان استخباره صلى الله عليه وسلم قد كان يتضمن المزح فاجابه عن استخباره بما يوافقه مساعدة لغرضه وتقربا من قلبه والا فليس لاحد أن يجعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم مزحا لان المزح هزل ومن جعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم المبين عن الله عز وجل أحكامه المؤدى الى خلقه أوامره هزلا ومزحا فقد عصى الله ورسوله وصهيب كان أطوع لله سبحانه وتعالى من أن يكون بهذه المنزلة فقد قال صلى الله عليه وسلم أنا سابق العرب وصهيب سابق الروم وسلمان سابق الفرس وبلال سابق الحبش وليحذر أن يسترسل في ممازحة عدو فيجعل له طريقا الى اعلان المساوى هزلا وهو مجد ويفسح له في التشفي مزحا وهو محق. وقد قال بعض الحكماء اذا مازحت عدوك ظهرت عيوبك. وأما الضحك فان اعتياده شاغل عن النظر في الامور المهمة مذهل عن الفكر في النوائب الملمة وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار ولا لمن وسم به خطر ولا مقدار. روى أبو ادريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب ويذهب بنور الوجه. وروى عن ابن عباس في قوله تعالى مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها أن الصغيرة الضحك وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه من كثر ضحكه قلت هيبته. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه اذا ضحك العالم ضحكة مج من العلم مجة. وقيل في منثور الحكم ضحكة المؤمن غفلة من قلبه والقول في الضحك كالقول في المزاح ان تجافاه الانسان نفر عنه وأوحش منه وان ألفه كانت حاله ما وصفناه فليكن بدل الضحك عند الايناس تبسما وبشرا. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه التبسم دعابة وهذا أبلغ في الايناس من الضحك الذي قد يكون استهزاء وتعجبا وليس ينكر منه المرة النادرة لطارئ استغفل النفس عن دفعه هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أملك الخلق لنفسه قد تبسم حتى بدت نواجذه وانما كان ذلك منه صلى الله عليه وسلم على الوجه الذي ذكرناه

﴿ الفصل السادس في الطيرة والفال ﴾ اعلم أنه ليس شئ أضر بالرأي ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيب غراب يرد قضاء أو يدفع مقدورا فقد جهل. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر. فالعدوى

مايظنه الناس من تعدى العلل والامراض فاخبر أنها لاتعدى فقيل يارسول الله انا نرى النقبة من الجرب فى مشفر البعير فتتعدى الى جميعه فقال صلى الله عليه وسلم فما أعدى الاول وأما الهامة فهو ما كانت العرب فى الجاهلية تعتقده من أن القتيل اذا طل دمه فلم يدرك بثاره صاحت هامته فى القبر اسقونى . قال الزبرقان بن زيد يعنيها

ياعمرو ان لاتدع شتمى ومنقصتى * أضربك حتى تقول الهامة اسقونى

وقال ابراهيم بن هرمة

وكيف وقد صاروا عظاما وأقبرا * يصيح صداها بالعشى وهامها
تفانوا ولم يبقوا وكل قبيلة * سريع الى ورد الفناء كرامها

وأما الصفر فهو كالحية يكون فى الجوف يصيب الماشية والناس وهو أعدى عندهم من الجرب وفيه يقول الشاعر

لايمسك الساق من أين ولا وصب * ولايعض على شرسوفه الصفر

وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا ظننتم فلا تحققوا واذا حسدتم فلا تبغوا واذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا . وقال الشاعر

طيرة الناس لاترد قضاء * فاعذر الدهر لاتشبه بلوم
أى يوم تخصه بسعود * والمنايا ينزلن فى كل يوم
ليس يوم الا وفيه سعود * ونحوس تجرى لقوم وقوم

وقد كانت الفرس أكثر الناس طيرة وكانت العرب اذا أرادت سفرا نفرت أول طائر تلقاه فان طار عنه يمنة سارت وتيمنت واذا طار يسرة رجعت وتشاءمت فنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال أقروا الطير على وكناتها . وحكى عكرمة قال كنا جلوسا عند ابن عباس رضى الله عنهما فمر طائر يصيح فقال رجل من القوم خير فقال ابن عباس لاخير ولا شر . وقال لبيد

لعمرك ماتدرى الضوارب بالحصى * ولا زاجرات الطير ما الله صانع

واعلم أنه قلما يخلو من الطيرة أحد لاسيما من عارضته المقادير فى ارادته وصده القضاء عن طلبته فهو يرجو واليأس عليه أغلب ويأمل والخوف اليه أقرب فاذا عاقه القضاء وخانه الرجاء جعل الطيرة عذر خيبته وغفل عن قضاء الله عز وجل ومشيئته فاذا تطير أحجم عن الاقدام ويئس من الظفر وظن أن القياس فيه مطرد وأن العثرة فيه مستمرة ثم يصير ذلك له عادة فلا ينجح له سعى ولا يتم له قصد فأما من ساعدته المقادير ووافقه القضاء فهو قليل الطيرة لاقدامه ثقة باقباله وتعويلا على سعادته فلا يصده خوف ولا يكفه خور ولا يؤوب الا ظافرا ولا يعود

الامنجعا لان الغنم بالاقدام والخيبة مع الاحجام فصارت الطيرة من سمات الادبار واطراحها من أمارات الاقبال فينبغى لمن منى بها وبلى أن يصرف عن نفسه وساوس النوكى ودواعى الخيبة وذرائع الحرمان ولا يجعل للشيطان سلطانا فى نقض عزائمه ومعارضة خالقه ويعلم أن قضاء الله تعالى عليه غالب وأن رزقه له طالب وأن الحركة سبب فلا يثنيه عنها ما لا يضر مخلوقا ولا يدفع مقدورا وليمض فى عزائمه واثقا بالله تعالى ان أعطى وراضيا به ان منع فقد روى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى الانسان ثلاثة الطيرة والظن والحسد فمخرجه من الطيرة أن لا يرجع ومخرجه من الظن أن لا يحقق ومخرجه من الحسد أن لا يبغى. وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال كفارة الطيرة التوكل على الله تعالى . وقيل فى منثور الحكم الخير فى ترك الطيرة وليقل ان عارضه فى الطيرة ريب أو خامره فيها وهم ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من تطير فليقل اللهم لا يأتى بالخيرات الا أنت ولا يدفع السيئات الا أنت ولا حول ولا قوة الا بالله. وقد روى أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انا نزلنا دارا فكثر فيها عددنا وكثرت فيها أموالنا ثم تحولنا عنها الى أخرى فقلت فيها أموالنا وقل فيها عددنا فقال النبى صلى الله عليه وسلم ذروها فهى ذميمة وليس هذا القول منه صلى الله عليه وسلم على وجه الطيرة ولكن على طريق التبرك بما فارق وترك ما استوحش منه الى ما أنس به. وأما الفال ففيه تقوية للعزم وباعث على الجد ومعونة على الظفر فقد تفاءل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزواته وحروبه . وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع كلمة فأعجبته فقال أخذنا فألك من فيك فينبغى لمن تفاءل أن يتأول الفال بأحسن تأويلاته ولا يجعل لسوء الظن على نفسه سبيلا فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم ان البلاء موكل بالمنطق . روى أن يوسف عليه السلام شكا الى الله تعالى طول الحبس فأوحى الله تعالى اليه يا يوسف أنت حبست نفسك حيث قلت رب السجن أحب الى ولو قلت العافية أحب الى لعوفيت . وحكى أن المؤمل بن أميل الشاعر لما قال يوم الحيرة

شف المؤمل يوم الحيرة النظر * ليت المؤمل لم يخلق له بصر

عمى فأتاه آت فى منامه فقال له هذا ما طلبت . وحكى أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوما فى المصحف فخرج له قوله تعالى واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد فمزق المصحف وأنشأ يقول

أتوعد كل جبار عنيد * فها أنا ذاك جبار عنيد

اذا ما جئت ربك يوم حشر * فقل يا رب مزقنى الوليد

فلم يلبث الا أياما حتى قتل شر قتلة وصلب رأسه على قصره ثم على سور بلده فنعوذ بالله من البغى ومصارعه والشيطان ومصائده وهو حسبنا وعليه توكلنا

﴿الفصل السابع فى المروءة﴾ اعلم أن من شواهد الفضل ودلائل الكرم المروءة التى هى حلية النفوس وزينة الهمم فالمروءة مراعاة الاحوال التى تكون على أفضلها حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد ولا يتوجه اليها ذم باستحقاق . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته . وقال بعض البلغاء من شرائط المروءة أن يتعفف عن الحرام ويتصلف عن الآثام وينصف فى الحكم ويكف عن الظلم ولا يطمع فيما لا يستحق ولا يستطيل على من لا يسترق ولا يعين قويا على ضعيف ولا يؤثر دنيا على شريف ولا يسر مايعقبه الوزر والاثم ولا يفعل مايقبح الذكر والاسم . وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة فقال العقل يأمرك بالانفع والمروءة تأمرك بالاجمل ولن تجد الاخلاق على ماوصفنا من حد المروءة منطبعة ولا عن المراعاة مستغنية وانما المراعاة هى المروءة لا ما انطبعت عليه من فضائل الاخلاق لان غرور الهوى ونازع الشهوة يصرفان النفس أن تركب الافضل من خلائقها والاجمل من طرائقها وان سلمت منها وبعيد أن تسلم الالمن استكمل شرف الاخلاق طبعا واستغنى عن تهذيبها تكلفا وتطبعا . وقال الشاعر

من لك بالمحض وليس محض * يخبث بعض ويطيب بعض

ثم لو استكمل الفضل طبعا وفى المعوز أن يكون مستكملا لكان فى المستحسن من عادات دهره والموضوع من اصطلاح عصره من حقوق المروءة وشروطها مالا يتوصل اليه الا بالمعاناة ولا يوقف عليه الا بالتفقد والمراعاة فثبت أن مراعاة النفس على أفضل أحوالها هى المروءة واذا كانت كذلك فليس ينقاد لها مع ثقل كلفها الا من تسهلت عليه المشاق رغبة فى الحمد وهانت عليه الملاذ حذرا من الذم ولذلك قيل سيد القوم أشقاهم . وقال أبو تمام الطائى

والحمد شهد لا يرى مشتاره * يجنيه الا من نقيع الحنظل
غل لحامله ويحسبه الذى * لم يوه عاتقه خفيف المحمل

وقد لحظ المتنبى ذلك فى قوله

لولا المشقة ساد الناس كلهم * الجود يفقر والاقدام قتال

وله أيضا

واذا كانت النفوس كبارا * تعبت فى مرادها الاجسام

والداعى الى استسهال ذلك شيئان أحدهما علوّ الهمة والثانى شرف النفس . أما علوّ الهمة فلانه باعث على التقدم وداع الى التخصيص أنفة من خمول الضعة واستنكارا لمهانة النقص ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله يحب معالى الامور وأشرافها ويكره دنيها وسفسافها . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لا تصغرن هممكم فانى لم أر أقعد عن المكرمات من صغر الهمم . وقال بعض الحكماء الهمة راية الجد . وقال بعض البلغاء علوّ الهمم بذر النعم . وقال بعض العلماء اذا طلب رجلان أمرا ظفر به أعظمهما مروءة . وقال بعض الادباء من ترك التماس المعالى بسوء الرجاء لم ينل جسيما . وأما شرف النفس فان به يكون قبول التأديب واستقرار التقويم والتهذيب لان النفس ربما جمحت عن الافضل وهى به عارفة ونفرت عن التأديب وهى له مستحسنة لانها عليه غير مطبوعة وله غير ملائمة فتصير منه أنفر ولضده الملائم آثر . وقد قيل ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه واذا شرفت النفس كانت للآداب طالبة وفى الفضائل راغبة فاذا مازجها صارت طبعا ملائما فنمى واستقر فأما من منى بعلوّ الهمة وسلب شرف النفس فقد صار عرضة لأمر أعوزته آلته وأفسدته جهالته فصار كضرير يروم تعلم الكتابة وأخرس يريد الخطبة فلا يزيده الاجتهاد الا عجزا والطلب الا عوزا ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم ما هلك امرؤ عرف قدره . وقيل لبعض الحكماء من أسوأ الناس حالا قال من بعدت همته واتسعت أمنيته وقصرت آلته وقلت مقدرته . وقال افنون التغلبى

ولا خير فيما يكذب المرء نفسه * وتقواله للشئ ياليت ذا ليا
لعمرك ما يدرى امرؤ كيف يتقى * اذا هو لم يجعل له الله واقيا

وقال بعض الحكماء تجنبوا المنى فانها تذهب ببهجة ما خولتم وتستصغرون بها نعمة الله عليكم . وقيل فى منثور الحكم المنى من بضائع النوكى فان صادف بهمته حظا نال به أملا كان فيما ناله كالمغتصب وفيما وصل اليه كالمتغلب اذ ليس فى الحظوظ تقدير لحق ولا تمييز لمستحق وانما هى كالسحاب الذى يمسك عن منابت الاشجار الى مغايص البحار وينزل حيث صادف من خبيث وطيب فان صادف أرضا طيبة نفع وان صادف أرضا خبيثة ضر كذلك الحظ ان صادف نفسا شريفة نفع وكان نعمة عامة وان صادف نفسا دنية ضر وكان نقمة طامة . وحكى أن موسى بن عمران عليه السلام دعا على قوم بالعذاب فأوحى اليه قد ملكت أسفلها على أعلاها فقال يارب كنت أحب لهم عذابا عاجلا فاوحى الله تعالى اليه أليس هذا كل العذاب العاجل الاليم . فاما شرف النفس اذا تجرد عن علو الهمة فان الفضل به عاطل

والقذر به خامل وهو كالقوة فى الجلد الكسل والجبان الفشل تضيع قوته بكسله وجلده بفشله . وقد قيل فى منثور الحكم من دام كسله خاب أمله . وقال بعض الحكماء نكح العجز التوانى فخرج منهما الندامة ونكح الشؤم الكسل فخرج منهما الحرمان . وقال بعض الشعراء

اذا أنت لم تعرف لنفسك حقها * هوانا بها كانت على الناس أهونا
فنفسك أكرمها وان ضاق مسكن * عليك لها فاطلب لنفسك مسكنا
واياك والسكنى بمنزل ذلة * يعد مسيئا فيه من كان محسنا

وشرف النفس مع صغر الهمة أولى من علو الهمة مع دناءة النفس لان من علت همته مع دناءة نفسه كان متعديا الى طلب ما لا يستحقه ومتخطيا الى التماس ما لا يستوجبه ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك لما يستحق ومقصر عما يجب له وفضل ما بين الامرين ظاهر وان كان لكل واحد منهما من الذم نصيب . وقد قيل لبعض الحكماء ما أصعب شئ على الانسان قال أن يعرف نفسه ويكتم الاسرار فاذا اجتمع الامران واقترن بشرف النفس علو الهمة كان الفضل بهما ظاهرا والادب بهما وافرا ومشاق الجد بينهما مسهلة وشروط المروءة بينهما متبينة . وقد قال الحضين بن المنذر الرقاشى

ان المروءة ليس يدركها امرؤ * ورث المكارم عن أب فأضاعها
أمرته نفس بالدناءة والخنا * ونهته عن سبل العلا فأطاعها
فاذا أصاب من المكارم خلة * يبنى الكريم بها المكارم باعها

واعلم أن حقوق المروءة أكثر من أن تحصى وأخفى من أن تظهر لان منها ما يقوم فى الوهم حسا ومنها ما يقتضيه شاهد الحال حدسا ومنها ما يظهر بالفعل ويخفى بالتغافل فلذلك أعوز استيفاء شروطها الا جلا يتنبه الفاضل عليها بيقظته ويستدل العاقل عليها بفطرته وان كان جميع ما تضمنه كتابنا هذا من حقوق المروءة وشروطها وانما نذكر فى هذا الفصل الاشهر من قواعدها وأصولها والاظهر من شروطها وحقوقها محصورا فى تقسيم جامع وهو ينقسم قسمين . أحدهما شروط المروءة فى نفسه . والثانى شروطها فى غيره . فأما شروطها فى نفسه بعد التزام ما أوجبه الشرع من أحكامه فيكون بثلاثة أمور وهى العفة والنزاهة والصيانة . فاما العفة فنوعان أحدهما العفة عن المحارم والثانى العفة عن المآثم . فاما العفة عن المحارم فنوعان أحدهما ضبط الفرج عن الحرام والثانى كف اللسان عن الاعراض . فاما ضبط الفرج عن الحرام فلان عدمه مع وعيد الشرع وزاجر العقل معرة فاضحة وهتكة داحضة ولذلك قال النبى

صلى الله عليه وسلم من وقى شر ذبذبه ولقلقه وقبقبه فقد وقى يريد بذبذبه الفرج وبلقلقه اللسان وبقبقبه البطن . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أحب العفاف الى الله تعالى عفاف الفرج والبطن . وحكى أن معاوية رضى الله عنه سأل عمرا عن المروءة فقال تقوى الله تعالى وصلة الرحم وسأل المغيرة فقال هى العفة عما حرم الله تعالى والحرفة فيما أحل الله تعالى وسأل يزيد فقال هى الصبر على البلوى والشكر على النعمى والعفو عند القدرة فقال معاوية أنت منى حقا . وقال أنوشروان لابنه هرمز الكامل المروءة من حصن دينه ووصل رحمه وأكرم اخوانه . وقال بعض الحكماء من أحب المكارم اجتنب المحارم وقيل عار الفضيحة يكدر لذتها . وقد أنشدنى بعض أهل الادب للحسن بن على رضى الله عنهما

الموت خير من ركوب العار * والعار خير من دخول النار

* والله من هذا وهذا جارى *

والداعى الى ذلك شيئان أحدهما ارسال الطرف والثانى اتباع الشهوة . وقد روى عن النبى عليه السلام أنه قال لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ياعلى لا تتبع النظرة النظرة فان الاولى لك والثانية عليك وفى قوله لا تتبع النظرة النظرة تأويلان أحدهما لا تتبع نظر عينيك نظر قلبك والثانى لا تتبع الاولى التى وقعت سهوا بالنظرة الثانية التى توقعها عمدا . وقال عيسى بن مريم عليه السلام اياكم والنظرة بعد النظرة فانها تزرع فى القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه العيون مصايد الشيطان . وقال بعض الحكماء من أرسل طرفه استدعى حتفه . وقال بعض الشعراء

وكنت متى أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذى لا كله أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وأما الشهوة فهى خادعة العقول وغادرة الالباب ومحسنة القبائح ومسولة الفضائح وليس عطب الا وهى له سبب وعليه ألب ولذلك قال النبى عليه السلام أربع من كن فيه وجبت له الجنة وحفظ من الشيطان من ملك نفسه حين يرغب وحين يرهب وحين يشتهى وحين يغضب . وقهرها عن هذه الاحوال يكون بثلاثة أمور أحدها غض الطرف عن اثارتها وكفه عن مساعدتها فانه الرائد المحرك والقائد المهلك . روى سعيد بن سنان عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال تقبلوا الى ست أتقبل اليكم بالجنة قالوا وما هى يارسول الله قال اذا حدث أحدكم فلا يكذب واذا وعد فلا يخلف واذا ائتمن فلا يخون غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم . والثانى ترغيبها فى الحلال عوضا

واقناعها بالمباح بدلا فان الله ما حرم شيأ الا وأغنى عنه بمباح من جنسه لما علمه من نوازع الشهوة وتركيب الفطرة ليكون ذلك عونا على طاعته وحاجزا عن مخالفته. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما أمر الله تعالى بشئ الا وأعان عليه ولا نهى عن شئ الا وأغنى عنه. والثالث اشعار النفس تقوى الله تعالى فى أوامره واتقاؤه فى زواجره والزامها ما ألزم من طاعته وتحذيرها ما حذر من معصيته واعلامها أنه لا يخفى عليه ضمير ولا يعزب عنه قطمير وأنه يجازى المحسن ويكافئ المسىء وبذلك نزلت كتبه وبلغت رسله. روى ابن مسعود أن آخر ما نزل من القرآن واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون وآخر ما نزل من التوراة اذا لم تستحى فاصنع ما شئت وآخر ما نزل من الانجيل شر الناس من لا يبالى أن يراه الناس مسيئا وآخر ما نزل من الزبور من يزرع خيرا يحصد زرعه غبطة فاذا أشعرها ما وصفت انقادت الى الكف وأذعنت بالاتقاء فسلم دينه وظهرت مروءته فهذا شرط. وأما كف اللسان عن الاعراض فلأن عدمه ملاذ السفهاء وانتقام أهل الغوغاء وهو مستسهل الكاف واذا لم يقهر نفسه عنه برادع كاف وزاجر صاد تلبط بمعاره وتخبط بمضاره وظن أنه لتجافى الناس عنه حمى يتقى ورتبة ترتقى فهلك وأهلك فلذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم ألا ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم فجمع بين الدم والعرض لما فيه من ايغار الصدور وابداء الشرور واظهار البذاء واكتساب الاعداء ولا يبقى مع هذه الامور وزن لموموق ولا مروءة لملحوظ ثم هو بها موتور موزور ولاجلها مهجور ومزجور. وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال شر الناس من أكرمه الناس اتقاء لسانه. وقال بعض الحكماء انما اهلك الناس بفضول الكلام وفضول المال. وما قدح فى الاعراض من الكلام نوعان. أحدهما ما قدح فى عرض صاحبه ولم يتجاوزه الى غيره وذلك شيئان الكذب وفحش القول. والثانى ما تجاوزه الى غيره وذلك أربعة أشياء الغيبة والنميمة والسعاية والسب بقذف أو شتم وربما كان السب أنكاها للقلوب وأبلغها أثرا فى النفوس ولذلك زجر الله عنه بالحد تغليظا وبالتفسيق تشديدا وتصعيبا وقد يكون ذلك لاحد شيئين اما انتقام يصدر عن سفه أو بذاء يحدث عن لؤم. وقد روى أبو سلمة عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم. وقال ابن المقفع الاستطالة لسان الجهالة. وكف النفس عن هذه الحال بما يصدها من الزواجر أسلم وهو بذوى المروءة أجمل فهذا شرط. وأما العفة عن المآثم فنوعان أحدهما الكف عن المجاهرة بالظلم والثانى زجر النفس عن الاسرار بخيانة. فاما المجاهرة بالظلم فعتو مهلك

وطغيان متلف وهو يؤول ان استمر الى فتنة أو جلاء فأما الفتنة فى الاغلب فتحيط بصاحبها وتنعكس عن البادئ بها فلا تنكشف الا وهو بها مصروع كما قال الله تعالى ولا يحيق المكر السيئ الا باهله . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الفتنة نائمة فمن أيقظها صار طعاما لها . وقال جعفر بن محمد الفتنة حصاد الظالمين . وقال بعض الحكماء صاحب الفتنة أقرب شئ أجلا وأسوأ شئ عملا . وقال بعض الشعراء

وكنت كعنز السوء قامت لحتفها * الى مدية تحت الثرى تستثيرها

وأما الجلاء فقد يكون من قوة الظالم وتطاول مدته فيصير ظلمه مع المكنة جلاء وفناء كالنار اذا وقعت فى يابس الشجر فلا تبقى معها مع تمكنها شيأ حتى اذا أفنت ما وجدت اضمحلت وخمدت فكذا حال الظالم مهلك ثم هالك والباعث على ذلك شيئان الجراءة والقسوة ولذلك قال النبى عليه السلام اطلبوا الفضل والمعروف عند الرحماء من أمتى تعيشوا فى أكنافهم . والصادّ عن ذلك أن يرى آثار الله تعالى فى الظالمين فان له فيهم عبرا ويتصور عواقب ظلمهم فان فيها مزدجرا . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من أصبح ولم ينو ظلم أحد غفر الله له ما اجترم . وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا على اتق دعوة المظلوم فانه انما يسأل الله حقه وان الله لا يمنع ذا حق حقه . وقيل فى منثور الحكم ويل للظالم من يوم المظالم . وقال بعض البلغاء من جار حكمه أهلكه ظلمه . وقال بعض الشعراء

وما من يد الا يد الله فوقها * ولا ظالم الا سيبلى بظالم

وأما الاسرار بالخيانة فضعة لانه بذل الخيانة مهين ولقلة الثقة به مستكين . وقيل فى منثور الحكم من يخن يهن وقال خالد الربعى قرأت فى بعض الكتب السالفة ان مما تعجل عقوبته ولا تؤخر الامانة تخان والاحسان يكفر والرحم تقطع والبغى على الناس ولو لم يكن من ذم الخيانة الا ما يجده الخائن فى نفسه من المذلة لكفاه زاجرا ولو تصور عقبى أمانته وجدوى ثقته لعلم أن ذلك من أربح بضائع جاهه وأقوى شفعاء تقدمه مع ما يجده فى نفسه من العز ويقابل عليه من الاعظام . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أدّ الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك . وروى سعيد بن جبير قال لما نزلت هذه الآية ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما ذلك بانهم قالوا ليس علينا فى الاميين سبيل يعنون أن أموال العرب حلال لهم لانهم من غير أهل الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذب أعداء الله ما من شئ كان فى الجاهلية

الاوهو تحت قدمي الا الامانة فانها مؤداة الى البر والفاجر ولا يجعل ما يتظاهر به من الامانة زورا ولا ما يبديه من العفة غرورا فينهتك الزور وينكشف الغرور فيكون مع هتكه للتدليس أقبح وللمعرة الرياء أفضح . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تزال أمتي بخير مالم تر الامانة مغنما والصدقة مغرما . وقال بعض الحكماء من التمس أربعا بأربع التمس مالا يكون من التمس الجزاء بالرياء التمس مالا يكون ومن التمس مودة الناس بالغلظة التمس مالا يكون ومن التمس وفاء الاخوان بغير وفاء التمس مالا يكون ومن التمس العلم براحة الجسد التمس مالا يكون . والداعي الى الخيانة شيئان المهانة وقلة الامانة فاذا حسمهما عن نفسه بما وصفت ظهرت مروءته فهذا شرط قد استوفينا فيه أقسام العفة . وأما النزاهة فنوعان أحدهما النزاهة عن المطامع الدنية والثاني النزاهة عن مواقف الريبة فاما المطامع الدنية فلأن الطمع ذل والدناءة لؤم وهما أدفع شيء للمروءة وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه اللهم اني أعوذ بك من طمع يهدي الى طبع . وقال بعض الشعراء

لا تخضعن لمخلوق على طمع * فان ذلك نقص منك في الدين

واسترزق الله مما في خزائنه * فانما هو بين الكاف والنون

والباعث على ذلك شيئان الشره وقلة الانفة فلا يقنع بما أوتي وان كان كثيرا لاجل شرهه ولا يستنكف مما منع وان كان حقيرا لقلة أنفته وهذه حال من لا يرى لنفسه قدرا ويرى المال أعظم خطرا فيرى بذل أهون الامرين لاجلهما مغنما وليس لمن كان المال عنده أجل ونفسه عليه أقل اصغاء لتأنيب ولا قبول لتأديب . وروى أن رجلا قال يارسول الله أوصني قال عليك باليأس مما في أيدي الناس واياك والطمع فانه فقر حاضر واذا صليت صلاة فصل صلاة مودع واياك وما يعتذر منه . وقال بعض الشعراء

ومن كانت الدنيا مناه وهمه * سبته المنى واستعبدته المطامع

وحسم هذه المطامع شيئان اليأس والقناعة . وقد روى عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان روح القدس نفث في روعي أن نفسا لا تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم ابطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله تعالى فان الله عز وجل لا يدرك ما عنده الا بطاعته فهذا شرط . وأما مواقف الريبة فهي التردد بين منزلتي حمد وذم والوقوف بين حالتي سلامة وسقم فتتوجه اليه لائمة المتوهمين ويناله ذلة المريبين وكفى بصاحبها موقفا ان صح افتضح وان لم يصح امتهن وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم دع ما يريبك الى مالا يريبك وسئل محمد بن علي عن المروءة فقال أن لا تعمل في السر

عملا تستحى منه فى العلانية وقال حسان بن أبى سنان ماوجدت شيأ هوأهون من الورع قيل له وكيف قال اذا ارتبت بشئ تركته . والداعى الى هذه الحال شيئان الاسترسال وحسن الظن والمانع منهما شيئان الحياء والحذر وربما انتفت الريبة بحسن الثقة وارتفعت التهمة بطول الخبرة . وقد حكى عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه رآه بعض الحواريين وقد خرج من منزل امرأة ذات فجور فقال ياروح الله ماتصنع هنا فقال الطبيب انما يداوى المرضى ولكن لا ينبغى أن يجعل ذلك طريقا الى الاسترسال وليكن الحذر عليه أغلب والى الخوف من تصديق التهم أقرب فما كل ريبة ينفيها حسن الثقة هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أبعد خلق الله من الريب وأصونهم من التهم وقف مع زوجته صفية ذات ليلة على باب مسجد يحادثها وكان معتكفا فمر به رجلان من الانصار فلما رأياه أسرعا فقال لهما على رسلكما انها صفية بنت حيى فقالا سبحان الله أوفيك شك يارسول الله فقال مه ان الشيطان يجرى من أحدكم مجرى لحمه ودمه فخشيت أن يقذف فى قلبكما سوأ فكيف من تخالجت فيه الشكوك وتقابلت فيه الظنون فهل يعرى من فى مواقف الريب من قادح محقق ولائم مصدق . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا لم يشق المرء الاعما عمل فقد سعد واذا استعمل الحزم وغلب الحذر وترك مواقف الريب ومظان التهم ولم يقف موقف الاعتذار ولا عذر لمختار لم يختلج فى نزاهته شك ولم يقدح فى عرضه افك . وقد قال الشاعر

أصونك أن أدل عليك ظنا * لان الظن مفتاح اليقين

وقال سهل بن هرون مؤونة المتوقف أيسر من تكلف المعتسف . وقال بعض الحكماء من حسن ظنه بمن لا يخاف الله تعالى فهو مخدوع . وأنشدنى بعض أهل الادب لابى بكر الصولى رحمه الله قوله

أحسنت ظنى بأهل دهرى * فحسن ظنى بهم دهانى
لا آمن الناس بعد هذا * ما الخوف الا من الامان

فهذا شرط استوفينا فيه نوعى النزاهة . وأما الصيانة وهى الثالث من شروط المروءة فنوعان أحدهما صيانة النفس بالتماس كفايتها وتقدير مادتها والثانى صيانتها عن تحمل المنن والاسترسال فى الاستعانة . فاما التماس الكفاية وتقدير المادة فلأن المحتاج الى الناس كل مهتضم وذليل مستثقل وهو لما فطر عليه محتاج الى مايستمده ليقيم أود نفسه ويدفع ضرورة وقته ولذلك قالت العرب فى أمثالها كلب جوال خير من أسد رابض . ومايستمده

نوعان لازم وندب. فاما اللازم فما قام بالكفاية وأفضى الى سد الخلة وعليه في طلبه ثلاثة شروط. أحدها استطابته من الوجوه المباحة وتوقي المحظورة فان المواد المحرمة مستخبثة الاصول ممحوقة المحصول ان صرفها في بر لم يؤجر وان صرفها في مدح لم يشكر ثم هو لأوزارها محتقب وعليها معاقب. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعجبك رجل كسب مالا من غير حله فان أنفقه لم يقبل منه وان أمسكه فهو زاده الى النار. وقال بعض الحكماء شر المال مالزمك اسم مكتسبه وحرمت أجر انفاقه. ونظر بعض الخوارج الى رجل من أصحاب السلطان يتصدق على مسكين فقال انظر اليهم حسناتهم من سيئاتهم. وقال على ابن الجهم

سرّ من عاش ماله فاذا حا * سبه الله سره الاعدام

والثاني طلبه من أحسن جهاته التي لا يلحقه فيها غض ولا يتدنس له بها عرض فان المال يراد لصيانة الأعراض لا لابتذالها ولعز النفوس لا لاذلالها. وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يا حبذا المال أصون به عرضي وأرضي به ربي. وقال أبو بشر الضرير

كفى حزنا أني أروح وأغتدى * ومالى من مال أصون به عرضي

وأكثر ما ألقى الصديق بمرحبا * وذلك لا يكفي الصديق ولا يرضي

وسئل ابن عائشة عن قول النبي صلى الله عليه وسلم اطلبوا الحوائج من حسان الوجوه فقال معناه من أحسن الوجوه التي تحل. والثالث أن يتأنى في تقدير مادته وتدبير كفايته بما لا يلحقه خلل ولا يناله زلل فان يسير المال مع حسن التقدير واصابة التدبير أجدى نفعا وأحسن موقعا من كثيره مع سوء التدبير وفساد التقدير كالبذر في الارض اذا روعى يسيره زكا وان أهمل كثيره اضمحل. وقال محمد بن علي رضي الله عنه الكمال في ثلاثة العفة في الدين والصبر على النوائب وحسن التدبير في المعيشة. وقيل لبعض الحكماء فلان غني فقال لا أعرف ذلك مالم أعرف تدبيره في ماله فاذا استكمل هذه الشروط فيما يستمده من قدر الكفاية فقد أدى حق المروءة في نفسه. وسئل الاحنف بن قيس عن المروءة فقال العفة والحرفة. وقال بعض الحكماء لابنه يا بني لا تكن على أحد كلا فانك تزداد ذلا واضرب في الارض عودا وبدأ. ولا تأسف لمال كان فذهب ولا تعجز عن الطلب لوصب ولا نصب فهذا حال اللازم وقد كان ذوو الهمم العلية والنفوس الأبية يرون ما وصل الى الانسان كسبا أفضل مما وصل اليه ارثا لانه في الارث في جدوى غيره وبالكسب مجد الى غيره وفرق ما بينهما في الفضل ظاهر وقال كشاجم

لأستلذ العيش لم أدأب له * طلبا وسعيا فى الهواجر والغلس
وأرى حراما أن يؤاتينى الغنى * حتى يحاول بالعناء ويلتمس
فاصرف نوالك عن أخيك موفرا * فالليث ليس يسيغ الا ما افترس

وأما الندب فهو ما فضل عن الكفاية وزاد على قدر الحاجة فان الامر فيه معتبر بحال طالبه فان كان ممن تقاعد عن مراتب الرؤساء وتقاصر عن مطاولة النظراء وانقبض عن منافسة الاكفاء فحسبه ما كفاه فليس فى الزيادة الا شره ولا فى الفضول الا نهم وكلاهما مذموم. وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه الدنيا كلٌّ على العاقل . وقال عبد الله بن مسعود المستغنى عن الدنيا بالدنيا كمطفئ النار بالتبن . وقال بعض الحكماء اشترماء وجهك بالقناعة وتسل عن الدنيا لتجافيها عن الكرام . فان كان ممن منى بعلو الهمم وتحركت فيه أريحية الكرم وآثر أن يكون رأسا ومقدما وأن يرى فى النفوس معظما ومفخما فالكفاية لا تقله حتى يكون ماله فاضلا ونائله فائضا . فقد قيل لبعض العرب ما المروءة فيكم قال طعام مأكول ونائل مبذول وبشر مقبول . وقد قال الاحنف بن قيس

فلو مدّ سروى بمال كثير * لجدت وكنت له باذلا
فان المروءة لا تستطاع * اذا لم يكن مالها فاضلا

وأما صيانتها عن تحمل المنن والاسترسال فى الاستعانة فلأن المنة استرقاق الاحرار تحدث ذلة فى الممنون عليه وسطوة فى المانّ به والاسترسال فى الاستعانة تثقيل ومن ثقل على الناس هان ولا قدر عندهم لمهان . وقال رجل لعمر رضى الله عنه خدمك بنوك فقال أغنانى الله عنهم . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه لابنه الحسن فى وصيته له يا بنى ان استطعت أن لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّا فان اليسير من الله تعالى أكرم وأعظم من الكثير من غيره وان كان كل منه كثيرا . وقال زياد لبعض الدهاقين ما المروءة فيكم قال اجتناب الريب فانه لا ينبل مريب واصلاح الرجل ماله فانه من مروءته وقيامه بحوائجه وحوائج أهله فانه لا ينبل من احتاج الى أهله ولا من احتاج أهله الى غيره . وأنشد ثعلب

من عف خف على الصديق لقاؤه * وأخو الحوائج وجهه مملول
وأخوك من وفرت ما فى كيسه * فاذا عبثت به فأنت ثقيل

وان كان الناس لحمة لايستغنون عن التعاون ولايستقلون عن المساعد والمظافر فانما ذلك تعاون ائتلاف يتكافؤن فيه ولايتفاضلون وربما كان المستعين فيه مفضلا والمعين مستفضلا كاستعانة السلطان بجنده والمزارع بأكرته فليس من هذا بد ولا لأحد عنه غنى وانما الذي يتصون عنه الكرام تعاون التفضيل فينقبضون عن أن يستعينوا لئلا يكون عليهم يد ويسارعون أن يعينوا لان يكون لهم يد ومن أقدم من غير اضطرار على الاستعانة بجاه أو بمال فقد أوهى مروءته واستبذل صيانته ومن دعاه الاضطرار لنائب ألم أو حادث هجم الى الاستعانة بمن يتنفس به من خناق كربه ويتخلص به من وثاق نوائبه فلا لوم على مضطر فان أغنته الاستعانة بالجاه عن الاستعانة بالمال فلا عذر له في التعرض للمال ويعدل الى ولاة الامور فان الحوائج عندهم أنجح وهي عليهم أسهل وهم لذلك مندوبون فهم لايجدون لهم مساويا وليصبرن على ابطائهم فان تراكم الامور عليهم يشغلهم الاعن الملح الصبور ولذلك قيل قدم لحاجتك بعض لجاجتك . وقال أبو سارة سحيم بن الاعرف

تعد قرابة وتعد صهرا * ويسعد بالقرابة من رعاها
ومازرناك من عدم ولكن * يهش الى الامارة من رجاها
وأيا مافعلت فان نفسي * تعد صلاح نفسك من غناها

فان تعذر عليه صلاح حاله الا بمال يستعين به على نوائبه كان له مع الضرورة فسحة لكن ان وجده قرضا مردودا لم يأخذه صلة وجودا فان القرض مستسمح به في المروآت هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أعلى الله من قدره وفضله على خلقه قد اقترض ثم قضى فأحسن وقال صلى الله عليه وسلم من أعياه رزق الله تعالى حلالا فليستدن على الله وعلى رسوله وقال صلى الله عليه وسلم المستدين تاجر الله في أرضه . وقال البحتري

ان لم يكن كثر فقل عطية * يبلغ بها باغى الرضا بعض الرضا
أولم يكن هبة فقرض يسرت * أسبابه وكواهب من أقرضا

ولئن كان الدين رقا فهو أسهل من رق الافضال . وقد روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال من أراد البقاء ولا بقاء فليباكر الغداء وليخفف الرداء قيل وما في خفة الرداء من البقاء قال قلة الدين فان أعوزه ذلك الا استيماحا فهو الرق المذل ولذلك قيل لامروءة لمقل . وقال بعض الحكماء من قبل صلتك فقد باعك مروءته وأذل لقدرك عزه وجلالته . والذي يتماسك به الباقي من مروءة الراغبين واليسير التافه من صيانة السائلين وان لم يبق لذي رغبة مروءة ولا لسائل تصون أربعة أمور هي جهد المضطر أحدها أن يتجافى ضرع

السائلين وأبهة المستقلين فيذل بالضرع ويحرم بالابهة وليكن من التجمل على مايقتضيه حال مثله من ذوى الحاجات . وقد قيل لبعض الحكماء متى يفحش زوال النعم قال اذا زال معها التجمل . وأنشد بعض أهل الادب لعلى بن الجهم

هى النفس ماحملتها تتحمل * والدهر أيام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة * وأحسن أخلاق الرجال التفضل
ولاعار أن زالت عن الحر نعمة * ولكن عارا أن يزول التجمل

والثانى أن يقتصر فى السؤال على مادعته اليه الضرورة وقادته اليه الحاجة ولا يجعل ذلك ذريعة الى الاغتنام فيحرم باغتنامه ولا يعذر فى ضرورته . وقد قال بعض الحكماء من ألف المسألة ألفه المنع . والثالث أن يعذر فى المنع ويشكر على الاجابة فانه ان منع فعالا علك وان أجيب فالى مالا يستحق . فقد قال النمر بن تولب

لاتغضبن على امرئ فى ماله * وعلى كرائم صلب مالك فاغضب

والرابع أن يعتمد على سؤال من كان للمسألة أهلا وكان النجح عنده مأمولا فان ذوى المكنة كثير والمعين منهم قليل ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم الخير كثير وقليل فاعله . والمرجو للاجابة من تكاملت فيه خصالها وهى ثلاث . احداهن كرم الطبع فان الكريم مساعد واللئيم معاند وقد قيل المخذول من كانت له الى اللئام حاجة . والثانية سلامة الصدر فان العدو ألب على نكبتك وحرب فى نائبتك وقد قيل من أوغرت صدره استدعيت شره فان رق لك بكرم طبعه ورحمك بحسن ظفره فأعظم بها محنة أن يصير عدوك لك راحما . وقد قال الشاعر

وحسبك من حادث بامرئ * ترى حاسديه له راحمينا

والثالث ظهور المكنة فان من سأل مالا يمكن فقد أحال وكان كمستنهض المسجون ومستسعف المديون وكان بالرد خليقا وبالحرمان حقيقا . وقد قال على كرم الله وجهه من لا يعرف لا حتى يقال له لا فهو أحمق ووصى عبد الله بن الاهتم ابنه فقال يابنى لاتطلب الحوائج من غير أهلها ولا تطلبها فى غير حينها ولا تطلب ما لست له مستحقا فانك ان فعلت ذلك كنت حقيقا بالحرمان . وقال الشاعر

ولاتسألن امرأ حاجة * يحاول من ربه مثلها
فيترك ما كنت حملته * ويبدا بحاجته قبلها

فهذا مايختص بشروط المروءة فى نفسه . وأما شروط المروءة فى غيره فثلاثة المؤازرة والمياسرة والافضال . أما المؤازرة فنوعان أحدهما الاسعاف بالجاه والثانى الاسعاف فى النوائب . فاما الاسعاف بالجاه فقد يكون من الاعلى قدرا والانفذ أمرا وهو أرخص المكارم ثمنا وألطف الصنائع موقعا وربما كان أعظم من المال نفعا وهو الظل الذى يلجأ اليه المضطرون والحمى الذى يأوى اليه الخائفون فان أوطأه اتسع بكثرة الانصار والشيع وان قبضه انقطع بنفور الغاشية والتبع فهو بالبذل ينمى ويزيد وبالكف ينقص ويبيد فلا عذر لمن منح جاها أن يبخل به فيكون أسوأ حالا من البخيل بماله الذى قد يعده لنوائبه ويستبقيه للذته ويكنزه لذريته وبضد ذلك من بخل بجاهه لانه قد أضاعه بالشح وبدده بالبخل وحرم نفسه غنيمة مكنته وفرصة قدرته فلم يعقبه الا ندما على فائت وأسفا على ضائع ومقتا يستحكم فى النفوس وذما قد ينتشر فى الناس . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الخلق كلهم عيال الله وأحب خلق الله تعالى اليه أحسنهم صنيعا الى عياله . وقال بعض الحكماء اصنع الخير عند امكانه يبق لك حمده عند زواله وأحسن والدولة لك يحسن لك والدولة عليك واجعل زمان رخائك عدة لزمان بلائك . وقال بعض البلغاء من علامة الاقبال اصطناع الرجال . وقال بعض الادباء بذل الجاه أحد الحباءين . وقال ابن الاعرابى العرب تقول من أمل شيأ هابه ومن جهل شيأ عابه وبذل الجاه قد يكون من كرم النفس وشكر النعمة وضده من ضده وليس بذل الجاه لالتماس الجزاء بذلا مشكورا وانما هو بائع جاهه ومعاوض على نعم الله تعالى وآلائه فكان بالذم أحق . وأنشد بعض الادباء لعلى بن عباس الرومى رحمه الله

لا يبذل العرف حين يبذله * كمشترى الحمد أو كمعتاضه

بل يفعل العرف حين يفعله * لجوهر العرف لا لأعراضه

وعلى من أسعد بجاهه ثلاثة حقوق يستكثر بها الشكر ويستمد بها المزيد من الاجر . أحدها أن يستسهل المعونة مسرورا ولا يستثقلها كارها فيكون بنعم الله تعالى متبرما ولاحسانه متسخطا . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من عظمت نعمة الله تعالى عليه عظمت مؤونة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤونة عرض تلك النعمة للزوال . والثانى مجانبة الاستطالة وترك الامتنان فانهما من لؤم الطبع وضيق الصدر وفيهما هدم الصنيع واحباط الشكر . وقد قيل للحكيم اليونانى من أضيق الناس طريقا وأقلهم صديقا قال من عاشر الناس بعبوس وجهه واستطال عليهم بنفسه . والثالث أن لا يقرن بشكور سعيه تقريعا بذنب ولا توبيخا على هفوة فلا تفى مضض التوبيخ بادراك النجح ويصير الشكر وجدا

والجد عينيا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم . وقال النابغة الجعدى

ألم تعلما أن الملامة نفعها * قليل اذا ما الشئ ولى فأدبرا

وأما الاسعاف فى النوائب فلان الايام غادرة والنوازل غائرة والحوادث عارضة والنوائب راكضة فلا يعذر فيها الا عليم ولا يستنقذ منها الا سليم . وقد قال عدى بن حاتم

كفى زاجرا للمرء أيام دهره * تروح له بالواعظات وتغتدى

فاذا وجد الكريم مصابا بحوادث دهره حثه الكرم وشكر النعم على الاسعاف فيها بما استطاع سبيلا اليه ووجد قدرة عليه . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خير من الخير معطيه وشر من الشر فاعله . وقيل لبعض الحكماء هل شئ خير من الذهب والفضة قال معطيهما . والاسعاف فى النوائب نوعان واجب وتبرع . فأما الواجب فما اختص بثلاثة أصناف وهم الاهل والاخوان والجيران أما الاهل فلماسة الرحم وتعاطف النسب وقد قيل لم يسد من احتاج أهله الى غيره . وقال حسان بن ثابت

وان امرأ نال المنى لم ينل به * قريبا ولا ذا حاجة لزهيد

وان امرأ عادى الرجال على الغنى * ولم يسأل الله الغنى لحسود

وأما الاخوان فلمستحكم الود ومتأكد العهد . سئل الاحنف بن قيس عن المروءة فقال صدق اللسان ومواساة الاخوان وذكر الله تعالى فى كل مكان . وقال بعض حكماء الفرس صفة الصديق أن يبذل لك ماله عند الحاجة ونفسه عند النكبة ويحفظك عند المغيب . ورأى بعض الحكماء رجلين يصطحبان لا يفترقان فسأل عنهما فقيل هما صديقان فقال ما بال أحدهما فقير والآخر غنى . وأما الجار فلدنو داره واتصال مزاره قال على كرم الله وجهه ليس حسن الجوار كف الاذى بل الصبر على الاذى . وقال بعض الحكماء من أجار جاره أعانه الله وأجاره . وقال بعض البلغاء من أحسن الى جاره فقد دل على حسن نجاره . وقال بعض الشعراء

وللجار حق فاحترز من أذاته * وما خير جار لا يزال مؤاذيا

فيجب من حقوق المروءة وشروط الكرم فى هؤلاء الثلاثة تحمل أثقالهم واسعافهم فى نوائبهم ولا فسحة لذى مروءة عند ظهور المكنة أن يكلهم الى غيره أو يلجئهم الى سؤاله وليكن سائل نفسه عنهم فانهم عيال كرمه وأضياف مروءته فكما أنه لا يحسن أن يلجئ عياله وأضيافه الى الطلب والرغبة فهكذا من عاله كرمه وأضافته مروءته . وقال بعض الشعراء

حق على السـيد المرجو نائله * والمستجار به فى العرب والعجم
أن لا ينيل الأقاصى صوب راحته * حتى يخص به الأدنى من الخـدم
ان الفرات اذا جاشت غواربه * روى السواحل ثم امتد فى الامم

وأما التبرع فيمن عدا هؤلاء الثلاثة من البعداء الذين لا يدلون بنسب ولا يتعلقون بسبب فان تبرع بفضل الكرم وفائض المروءة فنهض فى حوادثهم وتكفل بنوائبهم فقد زاد على شروط المروءة وتجاوزها الى شروط الرئاسة . وقيل لبعض الحكماء أى شئ من أفعال الناس يشبه أفعال الاله قال الاحسان الى الناس وان كف تشاغلا بما لزم فلا لوم مالم يلجأ اليه مضطر لان القيام بالكل معوز والتكفل بالجميع متعذر فهذا حكم الموازرة . وأما المياسرة فنوعان أحدهما العفو عن الهفوات . والثانى المسامحة فى الحقوق . فأما العفو عن الهفوات فلانه لا مبرأ من سهو وزلل ولا سليم من نقص أو خلل ومن رام سليما من هفوة والتمس بريئا من نبوة فقد تعدى على الدهر بشططه وخادع نفسه بغلطه وكان من وجود بغيته بعيدا وصار باقتراحه فردا وحيدا . وقد قالت الحكماء لا صديق لمن أراد صديقا لا عيب فيه . وقيل لأنوشروان هل من أحد لا عيب فيه قال من لا موت له واذا كان الدهر لا يوجده ما طلب ولا ينيله ما أحب وكان الوحيد فى الناس مرفوضا قصيا والمنقطع عنهم وحشيا لزمه مساعدة زمانه فى القضاء ومياسرة اخوانه فى الصفح والاغضاء . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله تعالى أمرنى بمداراة الناس كما أمرنى بأداء الفرائض . وقال بعض الادباء ثلاث خصال لا تجتمع الا فى كريم حسن المحضر واحتمال الزلة وقلة الملال . وقال ابن الرومى

فعذرك مبسوط لذنب مقدم * وودك مقبول بأهل ومرحب
ولو بلغتنى عنك أذنى أقمتها * لدى مقام الكاشح المتكذب
فلست بتقليب اللسان مصارما * خليلا اذا ما القلب لم يتقلب

واذا كان الاغضاء حتما والصفح كرما ترتب بحسب الهفوة وتنزل بقدر الذنب . والهفوات نوعان صغائر وكبائر . فالصغائر مغفورة والنفوس بها معذورة لان الناس مع أطوارهم المختلفة وأخلاقهم المتفاضلة لا يسلمون منها فكان الوجد فيها مطرحا والعتب مستقبحا وقد قال بعض العلماء من هجر أخاه من غير ذنب كان كمن زرع زرعا ثم حصده فى غير أوانه . وقال أبو العتاهية

وشر الاخـلاء من لم يزل * يعاتب طورا وطورا يذم
يريك النصيحة عند اللقاء * ويبريك فى السر برى القلم

وأما الكبائر فنوعان أن يهفو بها خاطيا ويزل بها ساهيا فالحرج فيها مرفوع والعتب عليها موضوع لان هفوة الخاطئ هدر ولومه هذر . وقال بعض الحكماء لا تقطع أخاك الا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه . وقال الاحنف بن قيس حق الصديق أن تحتمل له ثلاثا ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة . وحكى ابن عون أن غلاما هاشميا عربد على قوم فأراد عمه أن يسيء به فقال يا عم انى قد أسأت وليس معى عقلى فلا تسيء بى ومعك عقلك .
وقال أبو نواس

لم أواخذك اذ جنيت لانى * واثق منك بالاخاء الصحيح
فجميل العدو غير جميل * وقبيح الصديق غير قبيح

فان تشتبه خطوءه بالعمد وسهوه بالقصد تثبت ولم يلم بالتوهم فيكون ملوما ولا يلوم بالظن فيصير مذموما ولذلك قيل التثبت نصف العفو . وقال بعض الحكماء لا يفسدك الظن على صديق أصلحك اليقين له . وقال بعض شعراء هذيل

فبعض الامر تصلحه ببعض * فان الغث يحمله السمين
ولا تعجل بظنك قبل خبر * فعند الخبر تنقطع الظنون
ترى بين الرجال العين فضلا * وفيما أضمروا الفضل المبين
كلون الماء مشتبها وليست * تخبر عن مذاقته العيون

والثانى أن يتعمد ما اجترم من كبائره ويقصد ما اجترح من سيئاته ولا يخلو فيما أتاه من أربع أحوال . فالحال الاولى أن يكون موتورا قد قابل على وترته وكافأ على مساءته فاللائمة على من وتره عائدة والى البادئ بها راجعة لان المكافئ أعذر وان كان الصفح أجمل ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم اياكم والمشارة فانها تميت الغيرة وتحيي الغرة . وقال بعض الحكماء من فعل ما شاء لقى مالم يشأ . وقال بعض الادباء من نالته اساءتك همه مساءتك .
وقال بعض البلغاء من أولع بقبح المعاملة أوجع بقبح المقابلة . وقال صالح بن عبد القدوس

اذا وترت امرأ فاحذر عداوته * من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا
ان العدو وان أبدى مسالمة * اذا رأى منك يوما فرصة وثبا

والاغضاء عن هذا أوجب وان لم تكن المكافأة ذنبا لانه قد رأى عقبى اساءته فان واصل الشر واصلته المكافأة وقد قيل باعتزالك الشر يعتزلك وبحسن النصفة يكون المواصلون
وقال بعض الحكماء من كنت سببا لبلائه وجب عليك التلطف له فى علاجه من دائه وقد قال أوس بن حجر

اذا كنت لم تعرض عن الجهل والخنا * أصبت حليما أو أصابك جاهل

• والحال الثانية أن يكون عدواً قد استحكمت شحناؤه واستوعرت سراؤه واستخشنت ضراؤه فهو يتربص بدوائر السوء انتهاز فرصه ويتجرع بمهانة العجز مرارة غصصه فاذا ظفر بنائبة ساعدها واذا شاهد نعمة عاندها فالبعد منه حذرا أسلم والكف عنه متاركة أغنم فانه لا يسلم من عواقب شره ولا يفلت من غوائل مكره • وقد قالت الحكماء لا تعرضن لعدوك فى دولته فاذا زالت كفيت شره • وقال لقمان لابنه يابنى كذب من قال ان الشر بالشر يطفأ فان كان صادقا فليوقد نارين ولينظر هل تطفئ احداهما الاخرى وانما يطفئ الخير الشر كما يطفئ الماء النار • وقال جعفر بن محمد كفاك من الله نصرا أن ترى عدوك يعصى الله فيك • وقال بعض الحكماء بالسيرة العادلة يقهر المعادى • وقال البحترى

وأقسم لا أجزيك بالشر مثله * كفى بالذى جازيتنى لك جازيا

• والحال الثالثة أن يكون لئيم الطبع خبيث الاصل قد أغراه لؤم الطبع على سوء الاعتقاد وبعثه خبث الاصل على اتيان الفساد فهو لا يستقبح الشر ولا يكف عن المكروه فهذه الحالة أعظم لان الاضرار بها أعم ولا سلامة من مثله الا بالبعد والانقباض ولا خلاص منه الا بالصفح والاعراض فانه كالسبع الضارى فى سوارح الغنم وكالنار المتأججة فى يابس الحطب لا يقربها الا تالف ولا يدنو منها الا هالك • روى مكحول عن أبى امامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الناس كشجرة ذات جنى ويوشك أن يعودوا كشجرة ذات شوك ان ناقدتهم ناقدوك وان هربت منهم طلبوك وان تركتهم لم يتركوك قيل يارسول الله وكيف المخرج قال أقرضهم من عرضك ليوم فاقتك • وقال عبد الله بن العباس العاقل الكريم صديق كل أحد الا من ضره والجاهل اللئيم عدو كل أحد الا من نفعه وقال شر ما فى الكريم أن يمنعك خيره وخير ما فى اللئيم أن يكف عنك شره • وقال بعض البلغاء أعداؤك داؤك وفى البعد عنهم شفاؤك • وقال بعض البلغاء شرف الكريم تغافله عن اللئيم ووصى بعض الحكماء ابنه فقال يابنى اذا سلم الناس منك فلا عليك أن لا تسلم منهم فانه قلما اجتمعت هاتان النعمتان • وقال عبد المسيح بن نفيلة

الخير والشر مقرونان فى قرن * فالخير متبع والشر محذور

والحال الرابعة أن يكون صديقا قد استحدث نبوة وتغيرا أو أخا قد استجد جفوة وتنكرا فابدى صفحة عقوقه واطرح لازم حقوقه وعدل عن بر الاخاء الى جفوة الاعداء فهذا قد يعرض فى المودات المستقيمة كما تعرض الامراض فى الاجسام السليمة فان عولجت أقلعت وان أهملت أسقمت ثم أتلفت ولذلك قالت الحكماء دواء المودة كثرة التعاهد • وقال كشاجم

أقل ذا الودّ عثرته وقفه * على سنن الطريق المستقيم
ولا تسرع بمعتبة اليه * فقد يهفو ونيته سليمه

ومن الناس من يرى أن متاركة الاخوان اذا نفروا أصلح واطراحهم اذا فسدوا أولى كأعضاء الجسد اذا فسدت كان قطعها أسلم فان شح بها سرت الى نفسه وكالثوب اذ خلق كان اطراحه بالجديد له أجمل . وقد قال بعض الحكماء رغبتك فيمن يزهد فيك ذل نفس وزهدك فيمن يرغب فيك صغر همة . وقد قال بزرجمهر من تغير عليك في مودته فدعه حيث كان قبل معرفته . وقال نصر بن احمد

صل من دنى وتناس من بعدا * لا تكرهن على الهوى أحدا
قد أكثرت حواء اذ ولدت * فاذا جفا ولد فخذ ولدا

فهذا مذهب من قل وفاؤه وضعف اخاؤه وساءت طرائقه وضاقت خلائقه ولم يكن فيه فضل الاحتمال ولا صبر على الادلال فقابل على الجفوة وعاقب على الهفوة واطرح سالف الحقوق وقابل العقوق بالعقوق فلا بالفضل أخذ ولا الى العفو أخلد وقد علم أن نفسه قد تطغى عليه فترديه وأن جسمه قد يسقم عليه فيؤلمه ويؤذيه وهما أخص به وأحق عليه من صديق قد تميز بذاته وانفصل بأدواته فيريد من غيره لنفسه ما لا يجده من نفسه لنفسه هذا عين المحال ومحض الجهل مع أن من لم يحتمل بقي فردا وانقلب الصديق فصار عدوا وعداوة من كان صديقا أعظم من عداوة من لم يزل عدوا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم أوصاني ربي بسبع الاخلاص في السر والعلانية وأن أعفو عمن ظلمني وأعطي من حرمني وأصل من قطعني وأن يكون صمتي فكرا ونطقي ذكرا ونظري عبرة . وقال لقمان لابنه يابني لا تترك صديقك الاول فلا يطمئن اليك الثاني يابني اتخذ ألف صديق والالف قليل ولا تتخذ عدوا واحدا والواحد كثير . وقيل للمهلب بن أبي صفرة ما تقول في العفو والعقوبة قال هما بمنزلة الجود والبخل فتمسك بأيهما شئت . وأنشد ثعلب

اذا أنت لم تستقبل الامر لم تجد * بكفيك في ادباره متعلقا
اذا أنت لم تترك أخاك وزلة * اذا زلها أوشكتما أن تفرقا

فاذا كان الامر على ما وصفت فمن حقوق الصفح الكشف عن سبب الهفوة ليعرف الداء فيعالجه فان من لم يعرف الداء لم يقف على الدواء . كما قد قال المتنبي

فان الجرح ينفر بعد حين * اذا كان البناء على فساد

واذا كان ذلك كذلك فلا يخلو حال السبب من أن يكون الملل أو زللا فان كان الملل فمودّات الملول ظل الغمام وحلم النيام . وقد قيل فى منثور الحكم لا تأمنن الملول وان تحلى بالصلة وعلاجه أن يتركه على ملله فيمل الجفاء كما مل الاخاء وان كان لزلل لوحظت أسبابه فان كان لها مدخل فى التأويل وشبهة تؤول الى جميل حمله على أجمل تأويله وصرفه الى أحسن جهة كالذى حكى عن خالد بن صفوان أنه مرّ به صديقان له فعرج عليه أحدهما وطواه الآخر فقيل له فى ذلك فقال نعم عرّج علينا هذا بفضله وطوانا ذلك بثقته بنا . وأنشد بعض أهل الادب لمحمد بن داود الاصفهانى

وتزعم للواشين أنى فاسد * عليك وأنى لست فيما عهدتنى
وما فسدت لى يعلم الله نية * عليك ولكن خنتنى فاتهمتنى
غدرت بعهدى عامدا وأخفتنى * فخفت ولو آمنتنى لأمنتنى

وان لم يكن لزلله فى التأويل مدخل نظر حاله بعد زلله فان ظهر ندمه وبان خجله فالندم توبة والخجل انابة ولا ذنب لتائب ولا لوم على منيب ولا يكلف عذرا عما سلف فيلجأ الى ذل التحريف أو خجل التعنيف ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم إياكم والمعاذر فان أكثرها مفاجر . وقال على رضى الله عنه كفى بما يعتذر منه تهمة . وقال مسلم بن قتيبة لرجل اعتذر اليه لا يدعونك أمر قد تخلصت منه الى الدخول فى أمر لعلك لا تخلص منه . وقال بعض الحكماء شفيع المذنب اقراره وتوبته اعتذاره . وقال بعض البلغاء من لم يقبل التوبة عظمت خطيئته ومن لم يحسن الى التائب قبحت اساءته . وقال بعض الحكماء الكريم أوسع المغفرة اذا ضاقت بالذنب المعذرة . وقال بعض الشعراء

العذر يلحقه التحريف والكذب * وليس فى غير ما يرضيك لى أرب
وقد أسأت فبالنعمى التى سلفت * الا مننت بعفو ماله سبب

وان عجل العذر قبل توبته وقدم التنصل قبل انابته فالعذر توبة والتنصل انابة فلا يكشف عن باطن عذره ولا يعنف بظاهر غدره فيكون لئيم الظفر سيئ المكافأة وقد قيل من غلبته الحدة فلا تغتر بعودته . وقال بعض الحكماء شافع المذنب خضوعه الى عذره . وقال بعض الشعراء

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا * ان برّ عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره * وقد أجلك من يعصيك مستترا

وان ترك نفسه فى زلله ولم يتداركه بعذره وتنصله ولا امحاه بتوبته وانابته راعيت حاله فى المتاركة فستجده لا ينفك فيها من أمور ثلاثة . أحدها أن يكون قد كف عن سيئ عمله وأقلع عن سالف زلله فالكف احدى التوبتين والاقلاع أحد العذرين فكن أنت المعتذر عنه بصفحك

والمتصل له بفضله. فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه المحسن على المسيء أمير. والثاني أن يكون قد وقف على ما أسلف من زلله غير تارك ولا متجاوز فوقوف المرض أحد البرأين وكفه عن الزيادة احدى الحسنيين وقد استبقى بالوقوف عن التجاوز أحد شطريه فعول به على صلاح شطره الآخر وإياك وارجاءه فان الارجاء يفسد شطر صلاحه والتلافي يصلح شطر فساده فان من سقم من جسمه ما لم يعالجه سرى السقم الى صحته وان عالجه سرت الصحة الى سقمه . والثالث أن يتجاوز مع الاوقات فيزيد فيه على مرور الايام فهذا هو الداء العضال فان أمكن استدراكه وتأتى استصلاحه وذلك باستنزاله عنه ان علا وبارغابه ان دنا وبعتابه ان ساوى والا فآخر الداء العياء الكي ومن بلغت به الاعذار الى غايتها فلا لائمة عليه والمقيم على شقاقه باغ مصروع . وقد قيل من سل سيف البغي أغمده في رأسه فهذا شرط . وأما المسامحة في الحقوق فلأن الاستيفاء موحش والاستقصاء منفر ومن أراد كل حقه من النفوس المستصعبة بشح أو طمع لم يصل اليه الا بالمنافرة والمشاقة ولم يقدر عليه الا بالمخاشنة والمشاحة لما استقر في الطباع من مقت من شاقها ونافرها وبغض من شاحها ونازعها كما استقر حب من ياسرها وسامحها فكان أليق لأمور المروءة استلطاف النفوس بالمياسرة والمسامحة وتألفها بالمقاربة والمساهلة . قال بعض الحكماء من عاشر اخوانه بالمسامحة دامت له موداتهم . وقال بعض الادباء اذا أخذت عفو القلوب زكا ريعك وان استقصيت أكديت . والمسامحة نوعان في عقود وحقوق فاما العقود فهو أن يكون فيها سهل المناجزة قليل المحاجزة مأمون الغيبة بعيدا من المكر والخديعة . روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أجملوا في طلب الدنيا فان كلا ميسر لما كتب له منها . وقال صلى الله عليه وسلم ألا أدلكم على شئ يحبه الله تعالى ورسوله قالوا بلى يا رسول الله قال التغابن للضعيف . وحكى ابن عون أن عمر ابن عبيد الله اشترى للحسن البصري ازارا بستة دراهم ونصف فأعطى التاجر سبعة دراهم فقال ثمنه ستة دراهم ونصف فقال اني اشتريته لرجل لا يقاسم أخاه درهما ومن الناس من يرى أن المساهلة في العقود عجز وأن الاستقصاء فيها حزم حتى انه لينافس في الحقير وان جاد بالجليل الكثير كالذي حكي عن عبد الله بن جعفر وقد ماكس في درهم وهو يجود بما يجود به فقيل له في ذلك فقال ذلك مالي أجود به وهذا عقلي بخلت به وهذا انما يسوغ من أهل المروءة في دفع ما يخادعهم به الادنياء ويغابنهم به الاشحاء وهكذا كانت حال عبد الله بن جعفر فأما مماسكة الاستنزال والاستسماح فكلا لانه مناف للكرم ومباين للمروءة . وأما الحقوق فتتنوع المسامحة فيها نوعين أحدهما في الاحوال والثاني في الاموال . فاما المسامحة

فى الاحوال فهى اطراح المنازعة فى الرتب وترك المنافسة فى التقدم فان مشاحة النفوس فيها أعظم والعناد عليها أكثر فان سامح فيها ولم ينافس كان مع أخذه بأفضل الاخلاق واستعماله لاحسن الآداب أوقع فى النفوس من افضاله برغائب الاموال ثم هو أزيد فى رتبته وأبلغ فى تقدمه وان شاح فيها ونازع كان مع ارتكابه لأخشن الاخلاق واستعماله لأهجن الآداب أنكى فى النفوس من حد السيف وطعن السنان ثم هو أخفض للرتبة وأمنع من التقدم. حكى أن فتى من بنى هاشم تخطى رقاب الناس عند ابن أبى داود فقال يا بنى ان الآداب ميراث الاشراف ولست أرى عندك من سلفك ارثا وأما المسامحة فى الاموال فتتنوع ثلاثة أنواع مسامحة اسقاط لعدم ومسامحة تخفيف لعجز ومسامحة انكار لعسرة وهى مع اختلاف أسبابها تفضل مأثور وتألف مشكور واذا كان الكريم قد يجود بما تحويه يده وينفذ فيه تصرفه كان أولى أن يجود بما خرج عن يده فطاب نفسا بفراقه وقد تصل المسامحة فى الحقوق الى من لا يقبل البر ويأبى الصلة فيكون أحسن موقعا وأزكى محلا وربما كانت المسامحة فيها آمن من رد السائل ومنع المجتدى لان السائل كما اجترأ على سؤالك فسيجترئ على سؤال غيرك ان رددته وليس كل من صار أسير حقك ورهين دينك يجد بدا من مسامحتك ومياسرتك ثم لك مع ذلك حسن الثناء وجزيل الاجر. وقال محمود الوراق رحمه الله

المرء بعد الموت أحدوثة * يفنى وتبقى منه آثاره
فأحسن الحالات حال امرئ * تطيب بعد الموت أخباره

فهذه حال المياسرة. وأما الافضال فنوعان افضال اصطناع وافضال استكفاف ودفاع فاما افضال الاصطناع فنوعان أحدهما ما أسداه جودا فى شكور والثانى ما تألف به نبوة نفور وكلاهما من شروط المروءة لما فيهما من ظهور الاصطناع وتكاثر الاشياع والاتباع ومن قلت صنائعه فى الشاكرين وأعرض عن تألف النافرين كان فردا مهجورا وتابعا محقورا ولا مروءة لمتروك مطرح ولا قدر لمحقور مهتضم. وقال عمر بن عبد العزيز ما طاوعنى الناس على شئ أردته من الحق حتى بسطت لهم طرفا من الدنيا. وقال بعض الحكماء أقل ما يجب للمنعم بحق نعمته أن لا يتوصل بها الى معصيته. وأنشدت لبعض الاعراب

من جمع المال ولم يجد به * وترك المال لعام جدبه
* هان على الناس هوان كلبه *

وقال اسحق بن ابراهيم الموصلى

يبقى الثناء وتذهب الاموال * ولكل دهر دولة ورجال
مانال محمدة الرجال وشكرهم * الا الجواد بماله المفضال
لا ترض من رجل حلاوة قوله * حتى يصدق مايقول فعال

فان ضاقت به الحال عن الاصطناع بماله فقد عدم من آلة المكارم عمادها وفقد من شروط المروءة سنادها فليواس بنفسه مواساة المسعف وليسعدهم اسعاد المتألف قال المتنبي

* فليسعد النطق ان لم تسعد الحال *

وان كان لا يراها وان أجهدها الا تبعا للمفضلين قليلة بين المكثرين فان الناس لا يساوون بين المعطي والمانع ولا يقنعهم القول دون الفعل ولا يغنيهم الكلام عن المال ويرونه كالصدى ان ردّ صوتا لم يجد نفعا كما قال الشاعر

يجود بالوعد ولكنه * يدهن من قارورة فارغه

فكل ماخرج عندهم عن المال كان فارغا وكل ماعدا الافضال به كان هينا وقد قدمنا من القول في شروط الافضال ما أقنع . وأما افضال الاستكفاف فلأن ذا الفضل لا يعدم حاسد نعمة ومعاند فضيلة يعتريه الجهل باظهار عناده ويبعثه اللؤم على البذي بسفهه فان غفل عن استكفاف السفهاء وأعرض عن استدفاع أهل البذاء صار عرضه هدفا للمثالب وحاله عرضة للنوائب واذا استكف السفيه واستدفع البذي صان عرضه وحمى نعمته . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ماوقى به المرء عرضه فهو صدقة . وقالت عائشة رضي الله عنها ذبوا بأموالكم عن أحسابكم وامتدح رجل الزهري فأعطاه قميصه فقال له رجل أتعطي على كلام الشيطان فقال من ابتغى الخير اتقى الشر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من أراد برّ الوالدين فليعط الشعراء وهذا صحيح لان الشعر سائر يستر به ماتضمن من مدح أو هجاء ومن أجل ذلك قيل لا تواخ شاعرا فانه يمدحك بثمن ويهجوك مجانا . وللاستكفاف السفهاء بالافضال شرطان . أحدهما أن يخفيه حتى لا ينتشر فيه مطامع السفهاء فيتوصلون الى اجتذابه بسببه والى ماله بثلبه . والثاني أن يتطلب له في المجاملة وجها ويجعله في الافضال عليه سببا لانه لا يرى أنه على السفه واستدامة البذاء . واعلم انك ماحييت ملحوظ المحاسن محفوظ المساوي ثم من بعد ذلك حديث منتشر لا يراقبك صديق ولا يحامي عنك شفيق فكن أحسن حديث ينشر يكن سعيك في الناس مشكورا وأجرك عند الله مذخورا . فقد روى زياد بن الجراح عن عمرو بن ميمون أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك

وحياتك قبل موتك فهذا ما اقتضاه هذا الفصل من شروط المروءة وان كان كل كتابنا هذا من شروطها وما اتصل بحقوقها والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿الفصل الثامن في آداب منثورة﴾ اعلم أن الآداب مع اختلافها بتنقل الاحوال وتغير العادات لا يمكن استيعابها ولا يقدر على حصرها وانما يذكر كل انسان ما بلغه الوسع من آداب زمانه واستحسن بالعرف من عادات دهره ولو أمكن ذلك لكان الاول قد أغنى الثاني عنها والمتقدم قد كفى المتأخر تكلفها وانما حظ الاخير أن يتعاطى حفظ الشارد وجمع المفترق ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه وعادات وقته فيثبت ما كان موافقا وينفي ما كان مخالفا ثم يستمد خاطره في استنباط زيادة واستخراج فائدة فان أسعف بشئ فاز بدركه وحظي بفضيلته ثم يعبر عن ذلك كله بما كان مألوفا من كلام الوقت وعرف أهله فان لاهل كل وقت في الكلام عادة تؤلف وعبارة تعرف ليكون أوقع في النفوس وأسبق الى الافهام ثم يرتب ذلك على أوائله ومقدماته ويثبته على أصوله وقواعده حسبما يقتضيه الجنس فان لكل نوع من العلوم طريقة هي أوضح مسلكا وأسهل مأخذا فهذه خمسة شروط هي حظ الاخير فيما يعانيه وكذلك القول في كل تصنيف مستحدث ولولا ذلك لكان تعاطي ما تقدم به الأول عناء ضائعا وتكلفا مستهجنا ونرجو الله أن يمدنا بالتوفيق لتأدية هذه الشروط وتنهضنا المعونة بتوفية هذه الحقوق حتى نسلم من ذم التكلف ونبرأ من عيوب التقصير وان كان اليسير مغفورا والخاطئ معذورا فقد قيل من صنف كتابا فقد استهدف فان أحسن فقد استعطف وان أساء فقد استقذف وقد مضت أبواب تضمنت فصولا رأيت اتباعها بما لم أحب الاخلال به.

فمن ذلك حال الانسان في مأكله ومشربه فان الداعي الى ذلك شيئان حاجة ماسة وشهوة باعثة.

فأما الحاجة فتدعو الى ما سد الجوع وسكن الظمأ وهذا مندوب اليه عقلا وشرعا لما فيه من حفظ النفس وحراسة الجسد ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال بين صوم اليومين لانه يضعف الجسد ويميت النفس ويعجز عن العبادة وكل ذلك يمنع منه الشرع ويدفع عنه العقل وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا نصيب من زهد لان ما حرمها من فعل الطاعات بالعجز والضعف أكثر ثوابا وأعظم أجرا اذ ليس في ترك المباح ثواب يقابل فعل الطاعات واتيان القرب ومن أخسر نفسه ربحا موفورا أو أحرمها أجرا مذخورا كان زهده في الخير أقوى من رغبته ولم يبق عليه من هذا التكليف الا الشهوة برياته وسمعته.

وأما الشهوة فتتنوع نوعين شهوة في الاكثار والزيادة وشهوة في تناول الالوان الملذة فأما النوع الاول وهو شهوة الزيادة على قدر الحاجة والاكثار على مقدار الكفاية فهو ممنوع منه

فى العقل والشرع لان تناول مازاد على الكفاية نهم معرّ وشره مضر . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال إياكم والبطنة فانها مفسدة للدين مورثة للسقم مكسلة عن العبادة وقال على رضى الله عنه ان كنت بطنا فعدّ نفسك زمنا . وقال بعض البلغاء أقلل طعاما تحمد مناما . وقال بعض الادباء الرعب لؤم والنهم شؤم . وقال بعض الحكماء أكبر الدواء تقدير الغذاء . وقال بعض الشعراء

فكم من لقمة منعت أخاها * بلذة ساعة أكلات دهر
وكم من طالب يسعى لامر * وفيه هلاكه لو كان يدرى

وقال آخر

كم دخلت أكلة حشا شره * فاخرجت روحه من الجسد
لابارك الله فى الطعام اذا * كان هلاك النفوس فى المعد

ورب أكلة هاضت آكلا وأحرمته مآكل . روى أبو يزيد المدنى عن عبد الرحمن بن المرقع قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لم يخلق وعاء ملئ شرا من بطن فان كان لابد فاعلا فاجعلوا ثلثا للطعام وثلثا للشراب وثلثا للريح . وأما النوع الثانى وهو شهوة الاشياء الملذة ومنازعة النفوس الى طلب الانواع الشهية فذاهب الناس فى تمكين النفس فيها مختلفة فنهم من يرى أن صرف النفس عنها أولى وقهرها عن اتباع شهواتها أحرى ليذل له قيادها ويهون عليه عنادها لأن تمكينها وماتهوى بطر يطغى وأشر يردى لان شهواتها غير متناهية فاذا أعطاها المراد من شهوات وقتها تعدتها الى شهوات قد استحدثتها فيصير الانسان أسير شهوات لاتنقضى وعبد هوى لاينتهى ومن كان بهذه الحال لم يرج له صلاح ولم يوجد فيه فضل . وأنشدت لابى الفتح البستى

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته * لتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها * فأنت بالنفس لابالجسم انسان

وللحذر من هذه الحال ماحكى أن أباحازم رحمه الله كان يمر على الفاكهة فيشتهيها فيقول موعدك الجنة . وقال آخر تمكين النفس من لذاتها أولى واعطاؤها مااشتهت من المباحات أحرى لما فيه من ارتياح النفس بنيل شهواتها ونشاطها بادراك لذاتها فتنحسر عنها ذلة المقهور وبلادة المجبور ولاتقصر عن درك ولاتعصى فى نهضة ولاتكل عن استعانة وقال آخرون بل توسط الامرين أولى لان فى اعطائها كل شهواتها بلادة والنفس البليدة عاجزة وفى منعها عن البعض كف لها عن السلاطة وفى تمكينها من البعض حسم لها عن البلادة وهذا لعمرى أشبه المذاهب بالسلام لان التوسط فى الامور أحمد وإذ قد مضى

الكلام في المأكول والمشروب فينبغي أن يتبع بذكر الملبوس . اعلم أن الحاجة وان كانت في المأكول والمشروب أدعى فهي الى الملبوس ماسة وبها اليه فاقة لما في الملبوس من حفظ الجسد ودفع الاذى وستر العورة وحصول الزينة قال الله تعالى يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير فعني قوله أنزلنا عليكم لباسا أي خلقنا لكم ما تلبسون من الثياب يواري سوآتكم أي يستر عوراتكم وسميت العورة سوأة لانه يسوء صاحبها انكشافها من جسده وقوله وريشا فيه أربعة تأويلات . أحدها أنه المال وهو قول مجاهد . والثاني أنه اللباس والعيش والنعم وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما . والثالث أنه المعاش وهو قول معبد الجهني . والرابع أنه الجمال وهو قول عبد الرحمن بن زيد وقوله ولباس التقوى فيه ستة تأويلات . أحدها أن لباس التقوى هو الايمان وهو قول قتادة والسدّي . والثاني أنه العمل الصالح وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما . والثالث أنه السمت الحسن وهو قول عثمان بن عفان رضي الله عنه . والرابع هو خشية الله تعالى وهو قول عروة ابن الزبير . والخامس أنه الحياء وهذا قول معبد الجهني . والسادس هو ستر العورة وهذا قول عبد الرحمن بن زيد وقوله ذلك خير فيه تأويلان . أحدهما أن ذلك راجع الى جميع ما تقدم من قوله قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ثم قال ذلك خير أي ذلك الذي ذكرته خير كله . والثاني أن ذلك راجع الى لباس التقوى ومعنى الكلام وان لباس التقوى خير من الرياش واللباس وهذا قول قتادة والسدّي فلما وصف الله تعالى حال اللباس وأخرجه مخرج الامتنان علم أنه معونة منه لشدة الحاجة اليه واذا كان كذلك ففي اللباس ثلاثة أشياء . أحدها دفع الاذى . والثاني ستر العورة . والثالث الجمال والزينه . فأما دفع الاذى به فواجب بالعقل لان العقل يوجب دفع المضار واجتلاب المنافع وقد قال الله تعالى والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم فأخبر بحالها ولم يأمر بها اكتفاء بما يقتضيه العقل واستغناء بما يبعث عليه الطبع ويعني بالظلال الشجر وبالاكنان جمع كن وهو الموضع الذي يستكن فيه ويعني بقوله سرابيل تقيكم الحر ثياب القطن والكتان والصوف وبقوله وسرابيل تقيكم بأسكم الدروع التي تقي البأس وهو الحرب فان قيل كيف قال تقيكم الحر ولم يذكر البرد وقال جعل لكم من الجبال أكنانا ولم يذكر السهل فعن ذلك جوابان أحدهما أن القوم كانوا أصحاب جبال وخيام فذكر لهم الجبال وكانوا أصحاب حر دون برد فذكر لهم نعمته عليهم فيما هو مختص بهم وهذا قول عطاء . والجواب الثاني أنه اكتفاء بذكر أحدهما عن ذكر الآخر اذ كان معلوما أن السرابيل

التى تقى الحر أيضاً تقى البرد ومن اتخذ من الجبال أكناناً اتخذ من السهل وهذا قول الجمهور وأما ستر العورة فقد اختلف الناس فيه هل وجب بالعقل أو بالشرع فقالت طائفة وجب سترها بالعقل لما فى ظهورها من القبح وما كان قبيحاً فالعقل مانع منه ألا ترى أن آدم وحواء لما أكلا من الشجرة التى نهيا عنها بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة تنبها بعقولهما لستر ما رأياه مستقبحاً من سوآتهما لانهما لم يكونا قد كلفا ستر مالم يبد لهما ولا كلفاه بعد أن بدت لهما وقبل سترها وقالت طائفة أخرى بل ستر العورة واجب بالشرع لانه بعض الجسد الذى لا يوجب العقل ستر باقيه وانما اختصت العورة بحكم شرعى فوجب أن يكون ما يلزم من سترها حكماً شرعياً وقد كانت قريش وأكثر العرب مع ما كانوا عليه من وفور العقل وصحة الالباب يطوفون بالبيت عراة ويحرمون على نفوسهم اللحم والودك ويرون ذلك أبلغ فى القربة وانما القرب ما استحسنت فى العقل حتى أنزل الله تعالى يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين يعنى بقوله خذوا زينتكم الثياب التى تستر عوراتكم وكلوا واشربوا ما حرمتموه على أنفسكم من اللحم والودك وفى قوله تعالى ولا تسرفوا تأويلان . أحدهما لا تسرفوا فى التحريم وهذا قول السدى . والثانى لا تأكلوا حراماً فانه اسراف وهذا قول ابن زيد فأوجب بهذه الآية ستر العورة بعد أن لم يكن العقل موجباً له فدل ذلك على أن سترها وجب بالشرع دون العقل . وأما الجمال والزينة فهو مستحسن بالعرف والعادة من غير أن يوجبه عقل أو شرع وفى هذا النوع قد يقع التجاوز والتقصير والتوسط المطلوب فيه معتبر من وجهين أحدهما فى صفة الملبوس وكيفيته والثانى فى جنسه وقيمته . فاما صفته فعتبرة بالعرف من وجهين أحدهما عرف البلاد فان لاهل المشرق زياً مألوفاً ولاهل المغرب زياً مألوفاً وكذلك لما بينهما من البلاد المختلفة عادات فى اللباس مختلفة والثانى عرف الاجناس فان للاجناد زياً مألوفاً وللتجار زياً مألوفاً وكذلك لمن سواهما من الاجناس المختلفة عادات فى اللباس وانما اختلفت عادات الناس فى اللباس من هذين الوجهين ليكون اختلافهم سمة يتميزون بها وعلامة لا يخفون معها فان عدل أحد عن عرف بلده وجنسه كان ذلك منه خرقاً وحمقاً ولذلك قيل العرى الفادح خير من الزى الفاضح . وأما جنس الملبوس وقيمته فعتبر من وجهين أحدهما بالمكنة من اليسار والاعسار فان للموسر فى الزى قدراً وللمعسر دونه والثانى بالمنزلة والحال فان لذى المنزلة الرفيعة فى الزى قدراً وللمنخفض عنه دونه ليتفاضل فيه على حسب تفاضل أحوالهم فيصيروا به متميزين فان عدل الموسر الى زى المعسر كان شحاً وبخلاً وان عدل الرفيع الى زى الدنىء كان مهانة وذلاً وان عدل المعسر الى زى الموسر

كان تبذيرا وسرفا وان عدل الدنىء الى زى الرفيع كان جهلا وحمقا ولزوم العرف المعهود واعتبار الحد المقصود أدل على العقل وأمنع من الذم ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه اياكم لبستين لبسة مشهورة ولبسة محقورة . وقال بعض الحكماء البس من الثياب مالا يزدريك فيه العظماء ولا يعيبه عليك الحكماء . وقال بعض الشعراء

ان العيون رمتك اذ فاجأتها * وعليك من شهر الثياب لباس

أما الطعام فكل لنفسك ماتشا * واجعل لباسك مااشتهاه الناس

واعلم أن المروءة أن يكون الانسان معتدل الحال فى مراعاة لباسه من غير اكثار ولا اطراح فان اطراح مراعاتها وترك تفقدها مهانة وذل وكثرة مراعاتها وصرف الهمة الى العناية لها دناءة ونقص وربما توهم بعض من خلا من فضل وعرى عن تمييز أن ذلك هو المروءة الكاملة والسيرة الفاضلة لما يرى من تميزه بذلك عن الاكثرين وخروجه عن جملة العوام المسترذلين وخفى عليه أنه اذا تعدى طوره وتجاوز قدره كان أقبح لذكره وأبعث على ذمه فكان كما قال المتنبى

لاتعجبن مضيما حسن بزته * وهل يروق دفينا جودة الكفن

وحكى المبرد أن رجلا من قريش كان اذا اتسع لبس أرث ثيابه واذا ضاق لبس أحسنها فقيل له فى ذلك فقال اذا اتسعت تزينت بالجود واذا ضقت فبالهيئة . وقد أتى ابن الرومى بأبلغ من هذا المعنى فى شعره فقال

وما الحلى الا زينة لنقيصة * يتمم من حسن اذا الحسن قصرا

فاما اذا كان الجمال موفرا * لحسنك لم يحتج الى أن يزورا

ولذلك قالت الحكماء ليست العزة فى حسن البزة . وقال بعض الشعراء

وترى سفيه القوم يدنس عرضه * سفها ويمسح نعله وشراكها

واذا اشتد كلفه بمراعاة لباسه قطعه ذلك عن مراعاة نفسه وصار الملبوس عنده أنفس وهو على مراعاته أحرص . وقد قيل فى منثور الحكم البس من الثياب مايخدمك ولا يستخدمك . وقال خالد بن صفوان لاياس بن معاوية أراك لاتبالى مالبست فقال ألبس ثوبا أقى به نفسى أحب الى من ثوب أقيه بنفسى فكما أنه لايكون شديد الكلف بها فكذلك لايكون شديد الاطراح لها فقد حكى عن ابن عائشة أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فنظر اليه رث الهيئة فقال مامالك قال من كل المال قد آتانى الله فقال ان الله تعالى يحب اذا أنعم على امرئ نعمة أن ينظر الى أثرها عليه وقد قيل المروءة الظاهرة فى الثياب الطاهره وهكذا القول فى غلمانه وحشمه ان اشتد كلفه بهم صار عليهم قيما ولهم خادما وان اطرحهم قل رشادهم

وظهر فسادهم فصاروا سببا للمقته وطريقا الى ذمه لكن يكفهم عن سيئ الاخلاق ويأخذهم بأحسن الآداب ليكونوا كما قال فيهم الشاعر

سهل الفناء اذا حللت ببابه * طلق اليدين مؤدب الخدام

وليكن فى تفقد أحوالهم على ما يحفظ تجمله ويصون مبتذله . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ادهنوا يذهب البؤس عنكم والبسوا تظهر نعمة الله عليكم وأحسنوا الى مماليككم فانه أكبت لعدوكم وليتوسط فيهم ما بين حالتى اللين والخشونة فانه ان لان هان عليهم وان خشن مقتوه وكان على خطر منهم . حكى أن الموبذ سمع ضحك الخدام فى مجلس أنوشروان فقال أما تمنع هؤلاء الغلمان فقال أنوشروان انما يهابنا أعداؤنا . وقال أبو تمام الطائى

حشم الصديق عيونهم بحاثة * لصديقه عن صدقه ونفاقه

فلينظرن المرء من غلمانه * فهم خلائفه على أخلاقه

واعلم ان للنفس حالتين حالة استراحة ان حرمتها اياها كلت وحالة تصرف ان أرحتها فيها تخلت فالاولى بالانسان تقدير حاليه حال نومه ودعته وحال تصرفه ويقظته فان لهما قدرا محدودا وزمانا مخصوصا يضر بالنفس مجاوزة أحدهما وتغير زمانهما فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال نومة الضحى مجزة منفخة مكسلة مورمة منسأة للحاجة . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما النوم ثلاثة نوم خرق وهى الضحية ونوم خلق وهى القائلة ونوم حمق وهو العشى وقد روى محمد بن يزدان عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نوم الضحى خرق والقيلولة خلق ونوم العشى حمق . وقيل فى منثور الحكم من لزم الرقاد عدم المراد فاذا أعطى النفس حقها من النوم والدعة واستوفى حقه بالتصرف واليقظة خلص بالاستراحة من عجزها وكلالها وسلم بالرياضة من بلادتها وفسادها . وحكى أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه فوجده نائما فقال يا أبت أتنام والناس بالباب فقال يا بنى نفسى مطيتى وأكره أن أتعبها فلا تقوم بى وينبغى أن يقسم حالة تصرفه ويقظته على المهم من حاجاته فان حاجة الانسان لازمة والزمان يقصر عن استيعاب المهم فكيف به ان تجاوز الى ما ليس بمهم هل يكون الا

كتاركة بيضها بالعراء * وملبسة بيض أخرى جناحا

ثم عليه أن يتصفح فى ليله ما صدر من أفعال نهاره فان الليل أخطر للخاطر وأجمع للفكر فان كان محمودا أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه وان كان مذموما استدركه ان أمكن وانتهى عن مثله فى المستقبل فانه اذا فعل ذلك وجد أفعاله لا تنفك من أربعة أحوال . اما أن يكون قد أصاب

فيها الغرض المقصود بها أو يكون قد أخطأ فيها فوضعها في غير موضعها أو يكون قصر فيها فنقصت عن حدودها أو يكون قد زاد فيها حتى تجاوزت محدودها وهذا التصفح انما هو استظهار بعد تقديم الفكر قبل الفعل ليعلم به مواقع الاصابة ويتحرز به استدراك الخطأ وقد قيل من كثر اعتباره قل عثاره وكما يتصفح أحوال نفسه فكذا يجب أن يتصفح أحوال غيره فربما كان استدراكه الصواب منها أسهل بسلامة النفس من شبهة الهوى وخلو الخاطر من حسن الظن فان ظفر بصواب وجده من غيره أو أعجبه جميل من فعله زين نفسه بالعمل به فان السعيد من تصفح أفعال غيره فاقتدى بأحسنها وانتهى عن سيئها . وقد روى زيد بن خالد الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال السعيد من وعظ بغيره . وقال الشاعر

ان السعيد له من غيره عظة * وفي التجارب تحكيم ومعتبر

وأنشدني بعض أهل العلم لطاهر بن الحسن

اذا أعجبتك خصال امرئ * فكنه يكن منك ما يعجبك
فليس على الجد والمكرمات * اذا جئتها حاجب يحجبك

فأما ما يرومه من أعماله ويؤثر الاقدام عليه من مطالبه فيجب أن يقدم الفكر فيه قبل دخوله فان كان الرجاء فيه أغلب من الاياس منه وحمدت العاقبة فيه سلكه من أسهل مطالبه وألطف جهاته وبقدر شرفه يكون الاقدام وان كان الاياس أغلب عليه من الرجاء مع شدة التغرير ودناءة الامر المطلوب فليحذر أن يكون له متعرضا فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا هممت بأمر ففكر في عاقبته فان رشدا فأمضه وان كان غيا فانته عنه . وقالت الحكماء طلب ما لا يدرك عجز . وقال بعض الشعراء

فاياك والامر الذي ان توسعت * موارده ضاقت عليك المصادر
فما حسن ان يعذر المرء نفسه * وليس له من سائر الناس عاذر

وليعلم أن لكل حين من أيام عمره خلقا وفي كل وقت من أوقات دهره عملا فان تخلق في كبره بأخلاق الصغر وتعاطى أفعال الفكاهة والبطر استصغره من هو أصغر وحقره من هو أقل وأحقر . وكان كالمثل المضروب بقول الشاعر

وكل بازيمسه هرم * تخرا على رأسه العصافير

فكن أيها العاقل مقبلا على شانك راضيا عن زمانك سلما لاهل دهرك جاريا على عادة عصرك منقادا لمن قدمه الناس عليك متحننا على من قدمك الناس عليه ولا تباينهم بالعزلة عنهم فيمقتوك ولا تجاهرهم بالمخالفة لهم فيعادوك فانه لا عيش لممقوت ولا راحة لمعادى . وأنشد بعض أهل الادب لبعضهم

اذا اجتمع الناس فى واحد * وخالفهم فى الرضا واحد
فقد دل اجماعهم دونه * على عقله أنه فاسد

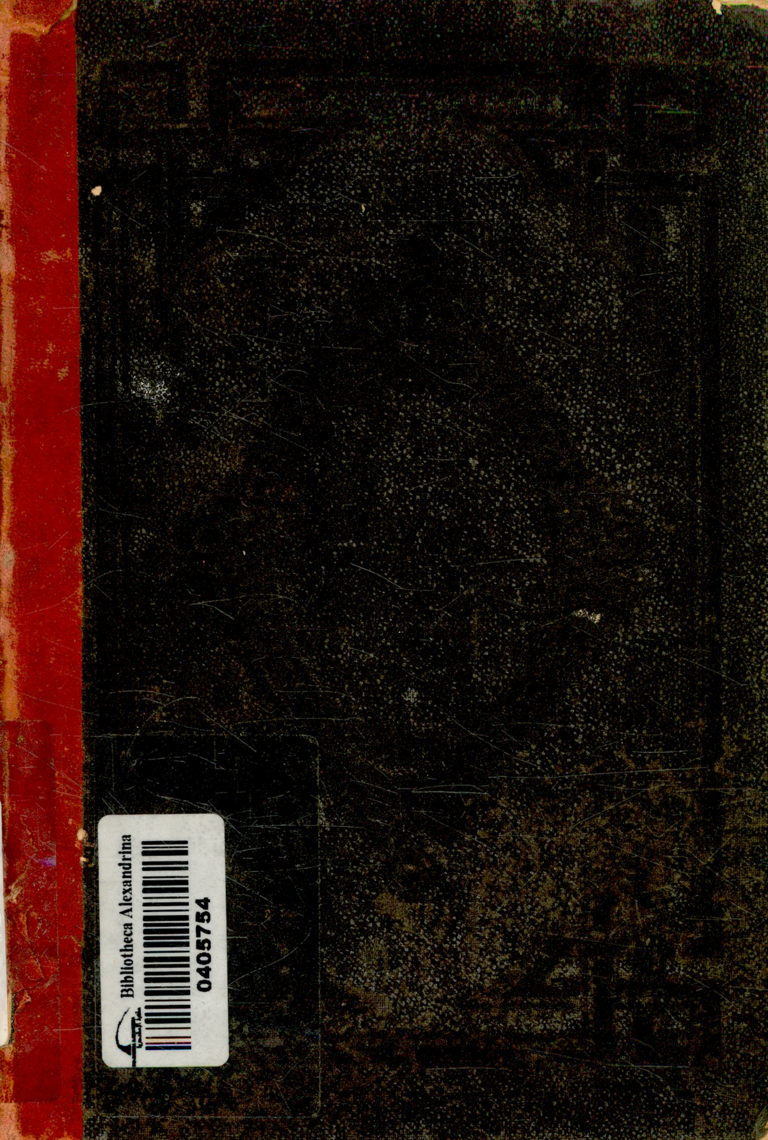
واجعل نصح نفسك غنيمة عقلك ولا تداهنها باخفاء عيبك واظهار عذرك فيصير عدوك أحظى منك فى زجر نفسه بانكارك وبمجاهرتك من نفسك التى هى أخص بك لاغرائك لها باعذارك ومساءتك فحسبك سوء رجل ينفع عدوه ويضر نفسه . وقال بعض الحكماء أصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعا لك . وقال بعض البلغاء من أصلح نفسه أرغم أنف أعاديه ومن أعمل جده بلغ كنه أمانيه . وقال بعض الادباء من عرف معايبه فلا يلم من عابه وأنشد فى أبو ثابت النحوى لبعض الشعراء

ومصروفة عيناه عن عيب نفسه * ولو بان عيب من أخيه لأبصرا
ولو كان ذا الانسان ينصف نفسه * لأمسك عن عيب الصديق وقصرا

فهذب أيها الانسان نفسك بافتكار عيوبك وانفعها كنفعك لعدوك فان من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ أعاننا الله واياك على القول بالعمل وعلى النصح بالقبول وحسبنا الله وكفى

بحمد من بين الرشد من الغى ولم يفرط فى الكتاب من شئ

تم كتاب أدب الدنيا والدين للعلامة أبى الحسن على الماوردى البصرى بهجة المحققين وهو الكتاب الجامع لفرائد الآداب الغنى بشهرته عن المدح والاطناب الجدير بنشر عرفه على عموم البرية لتتخلق بما فيه من الاخلاق المرضية ولذا رغبت نظارة المعارف العمومية اعادة طبعه (بعد تصحيحه مع بعض اختصار بمعرفة حضرتى عبد الجواد افندى عبد المتعال وعبد الله افندى الانصارى ثم تصديق فضيلتلو العلامة الشيخ حمزة فتح الله مفتش اللغة العربية بنظارة المعارف العمومية) محبة لعموم نفعه بالمطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر المحمية فى ظل من ازدهت به المعارف ورفل فى ظلال رياضها كل لبيب عارف حامى حمى الديار المصرية ونخبة سلالة العائلة المحمدية الذى ليس له فى معاليه مدانى ﴿أفندينا عباس باشا حلمى الثانى﴾ لا زالت ألوية المعارف بحسن التفاته منشورة ومساعيه الخيرية فى رفع منار العوارف مشكورة ما لاح بدر التمام وفاح مسك الختام وذلك فى سنة ألف وثلثمائة وست عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية


Bibliotheca Alexandrina
0405754